عبد الفتاح أبو مدين

ألف صفحة و صفحة
من
الأدب و النقد

الجزء الثاني

شاعر: تأخر عنه الدارسون

في أوائل القرن الماضي، كان شعراء العراق الكبار، هم الرصافى والزهاوي والكاظمي، وكان شعراء مصر الكبار هم شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران.. وانتقل الشاعر عبدالمحسن الكاظمي إلى مصر، فأصبح اسمه ملء الأسماع، ونشرت الصحف اليوميه له قصائد رنّانة، واحتفى به الإمام محمد عبد فجعله من خيرة مريديه.. ولا أدل على مكانة الكاظمي حين ورد مصر من أن الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي، وكان فى مطلع حياته الأدبية قد نشر بمجلة «الثريا» مقالة عن شعراء العصر وطبقاتهم، فكانت الطبقة الأولى هى الكاظمي والبارودي وحافظ إبراهيم والرافعي.. ثم جاء في الطبقة الثانية صبري وشوقي ومطران ! ولعلي لا أوافق الرافعي على حكمه، غير أني أريد أن أقول إن الكاظمي احتل المكانة الأولى من الطبقة

الأولى من شعراء العصر في رأي الرافعي، بل قدمه على البارودي وجعل حافظ إبراهيم من بعده، وهذا ماحكاه الأستاذ محمد سعيد العريان فى كتابه حياة الرافعى، ص – 53 – من الطبعة الثانية..

وهذا الذيوع الساطع للكاظمي، كان من المنتظر أن يكون الكاظمي فى مصر ذا مكانة عالية ومنزلة ممتازة تجعله يجد باباً للرزق الواسع والجاه العريض، ولكن الأيام توارت به فجأه، ومازالت تتوارى، حتى كان فى آخر حياته لا يجد ما يأكل، ولا أقول ذلك دون دليل، فقد أرسل قبل وفاته بعام إلى أخ له فى العراق قصيدة باكية نشرت فى مجلة أبولو الصادرة فى أكتوبر 1933، وهي قصيدة طويلة ، كتبها بإمضاء ابنته رباب، وأسلوبها ينم عن قائلها الكبير، وهكذا حال الأديب فى الوطن العربي الكبير. قال الشاعر الكاظمي:

أبِي لدى الأيام جرمي ... وجريرتي فى الدهر علمي
أظما ولا أحظى بغيـ ... ـر موارد فى الناس تظمي
أصغي إلى زمني وطيـ ... ـب كلامه حرقات كلم
أشكو الزمان وكل همي ... فى الزمان علاج عدمي

إني حرمت وما نصحت بغير إجحاف وظلم
إن الليالي بالفت فيما يصم بها ويعمي
الراميات بسهمها والراميات بغير سهم
انا لست اخشى الخصم إن لم أعط أسيافي لخصمي
انا حرب كل محارب لا يأخذ الدنيا بسلم
قل لليالي الريد خصـ ـي ما تشائين وعمّي

إلى أن قال:

يا صاحب العزم الذي اودى شباه بكل عزم
قصّرْ يداً من حادث طالت إلى تقويض جسمي
جفّت أفاويق السحا ب فجدْ بسحب منك تهمي
عجّل بدينار يرن بمسمع الدهر الأصم
لا نبتغي فيه متاع العـ ـيش من ارز ولحم
بل نبتغي خبزاً به منجاتنا من نطش نهم
إنا نسينا طعمه فعساك تذكرنا بطعم
لا بل نسينا حجمه إن قيل هذا ايُّ حجم
أدرك أخاك فإنه من همه امسى كهم
واشف الغليل بقطرة من ذلك البحر الخضم

ولقد عقب بعض الأدباء على القصيدة الباكية بمقالات فى الصحف المختلفة، ومنها ما كتبته الأدبية زينب الروبي فى مجلة أبولو فى عام 1935، إذ قالت بعد سطور تمهيدية: «جئت بهذه السطور لأهيب بوزارة الأوقاف العراقية، لتؤدى واجبها نحو هذا الشيخ الجليل الذي طالما رفع صوت العراق بشعره.. ولابد لي من التوجه بالرجاء إلى وزارة الأوقاف المصرية، وعلى رأسها سعادة الوزير الأديب محمد نجيب الغرابلي باشا لتؤدي بعض الواجب نحو شيوخ أدبائنا وشعرائنا الذين يشكون الفاقة، بعد أن أفنوا أعمارهم في خدمة الوطن»..

هذه ألفاقة الأليمة التي صرح بها الشاعر في قصيدته، والتي طالب فيها ديناراً يأكل منه الخبز، إذ لا طمع له في الأرز واللحم، ظلّت محيطة بالشاعر الشيخ، فلم تمتد يد بالقوت الدافع للحرمان.. ثم لما مات بعد عامين، أخذت الجرائد العربية في مصر والشام والعراق تهتف بفضله.. ولكن الشعراء الذين عرفوا ماكان يكابد من فاقة مهلكة، تعجبوا كثيراً لهذا الاهتمام بالراحل.. هذا الاهتمام الذي لم يبد له أثر ما في حياته البائسة.. وقد رثاه الشاعر أحمد محرّم بقصيدة، قال فيها:

ما شئت فانا محلة ومزارا ... ما كنت قبل نواك أقرب دارا
إني لاستحييك، أحسب أنني ... لم أجف غيرك صاحباً أو جارا
قالوا إذ ذهبت فأين كنت وما لهم ... قلبوا الامور وحرّفوا الأخبارا
ما أنت بالمغبون وحدك إنها ... عادات قومك تغبن الأحرارا
اغفر لقومك ما جنوا إن الفتى ... كل الفتى من يغفر الاوزارا

وقد نشرت هذه القصيدة في مجلة الفتح المصرية، وقدم لها الأستاذ محب الدين الخطيب مدير المجلة بقوله: «في حياة شاعر العرب الشيخ عبدالمحسن ألكاظمي رحمه الله معنى يلمحه الكثيرون بعين الخجل، ويحسونه خزايا صامتين، ولكن شاعر مصر الأستاذ أحمد محرّم أبلغ من يدرك حقائق هذا المعنى، وأفصح من يعبر ببيانه الخالد، عسى أن يستغفر أهل المقدرة، فيكفروا عن ذنوبهم للعبقرية التي تحمل من الزمان وأهله ما يصم ويعمي».

هذا ما قاله الأستاذ محب الدين الخطيب على قصيدة الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم.. ولا تغني قصيدة محرم عن قصيدة الأستاذ معروف الرصافي، حيث ناقش مأساة الكاظمي مناقشة موجعة.. ودرس المأساة دراسة فكرية أكثر منها شعرية،

فتساءل في حسرة عن الاهتمام بالشاعر بعد وفاته، مع تركه يائساً حزيناً في حياته، فقال عن الكاظمي:

قد قضى الكاظمي وهو جدير   أن تعزى في موته الشعراء
عاش منسيّ عارفيه ولما   مات، فاضت بنعيه الأنباء
ذكرته نُعاته بنعوت   قبله حاز مثلها العظماء
فلئن كان مايقولون حقاً   إنهم بالذي نسوا لؤماء
كيف ينسون في الحياة أديباً   عبقرياً عنت له الأدباء
أفينسى حياً ويذكر ميتاً   إن هذا ما تنكر العقلاء
ضحكوا منه في الحياة ومنذ ما   ت، تعالى نحيبهم والبكاء
أيها النادبون غيري غروا   برح اليوم للبيب الخفاء
يكرم الميت بالبكاء وتحيا   عندكم في المهانة الأحياء
كل من يخبر الأناس خُبرى   لا يبالي، أحسنوا أم أساءوا
أنا جربتهم إلى أن تساوى اليو   م عندي سبابهم والثناء

وقد ألم الزهاوي ببعض هذه المعاني، حين قال في رثاء الكاظمي:

قد عاش عيشاً والحياة ملحة   ما كان بالمُغنى ولا بالمسمن

من بيدن الشرق احتقار ذوي النهى والشرق ليس مغيَّراً للديدن
الكاظمي قد اعتنى ببلاده وبلاده بحياته لم تعتن
لو كان يحظى في العراق ببلغة ما سار يقصد مصر عبدالمحسن
بلد به بخلاف ما في غيره شبع الدخيل وأسغب ابن الوطن

وقد يكون قارئ اليوم فى حاجة إلى ترجمة موجزة للشاعر الكبير، لأن كتباً أدبية كثيرة ظهرت عن زملائه الفحول فى العراق، مثل الزهاوي والرصافي والجواهري، وفى مصر، مثل شوقي وحافظ والبارودي ومطران ومحرم وغيرهم، ولكننا لم نر من الباحثين من خص الكاظمي ببحث مستوف جيّد.. وقد يكون هناك من كتب عنه مقالات مبتورة، إلا أن البحث المستقل فى كتاب لم يقم به إلا نفر قليل، أذكر منهم أستاذنا الفاضل الشيخ عبدالقدوس الانصاري رحمه الله، فإنه قد كتب عن الكاظمي جزءاً لطيفاً، قد سدّ بعض الفراغ الذي يتطلب من يملؤه.. وإني أنقل في هذا الحديث ترجمة موجزة، جاءت فى مجلة الرسالة بعد رحيل الشاعر، وذلك حين نعته بتاريخ 1935/5/6 بالعدد «96» ص – 757 –، السنة الثالثة قالت: «فى يوم الخميس الماضي استعذ الله بالشاعر العربي العراقي الكبير الأستاذ

عبدالمحسن الكاظمي عن سن عالية، وشهرة مستفيضة ؛ وهو من الذين ساهموا فى نهضة الشعرالحديث بقسط وافر من السليقة الخالصة، والقريحة الطيّعة والبديهة التي ترتجل القصيدة المطولة عفو الساعة .. هبط الأستاذ مصر منذ خمسة وثلاثين عاماً، فطابت له فيها الإقامة، ولاذ بكنف الإمام محمد عبده ، وهو يومئذ موئل العلم والأدب ؛ فظاهر نعمه عليه كما ظاهرها على الشنقيطي وحافظ والمنفلوطي، حتى اتصل سببه وأثمر أدبه في حماه وتحت عينه، ولم يبتغ الكاظمي الوسيلة إلى الحياة إلا بالشعر، والشعر في هذا الزمن رحم قطعاء واداة عاجزة –، لذلك نكد عيشه قليلاً بعد الإمام؛ فرضي بميسور الكفاف من الرزق ؛ وبالإنتاج القليل من القريض، وأقعده ضعف القلب وكلال البصر وتقدم السن من غشيان المجالس والأندية، حتى اختاره الله إلى جواره»..

وكتب الأستاذ الشيخ عبدالقادر المغربي – «رئيس المجمع العربي بدمشق»، فى العدد «98» من الرسالة مقالاً بعنوان «صديقي الكاظمي»، ذكر فيه أن الامام كان يتعهده فى آخر كل شهر بعشر جنيهات، يتسلمها الشاعر سراً.. وقال الشيخ

المغربي: «وبعد وفاة الإمام لم يجد مندوحة عن السعي لدى الخديو أن يكون له مرتب شهري من الأوقاف ؛ فتوسط في هذا الأمر الشيخ علي يوسف صاحب صحيفة المؤيد.. فكان الشيخ يراجع الخديو في تقرير الراتب، والخديو يأبى كلما روجع بشأنه - إلا الرضخ له من مال الأوقاف بنحو خمسين جنيهاً، وكان يذهب مع الشيخ عبدالمحسن إلى الديوان فيقبضها.. وقد تكررت هذه المعاملة المرة بعد المرة ؛ والشيخ عبدالمحسن في كل مرة يظهر التأفف من تناوله المعونة على هذه الصورة التي ما كان يراها تتفق مع كرامته وإباء نفسه.. وكان يلح في تكليم الخديو في تعيين راتب شهري مقطوع - عشرة جنيهات - يريحه من عناء التوسط ومكابدة المعاملات الديوانية.. وحدث فتور للخديو عباس حين علم أن الشاعر كان له انتساب بالإمام محمد عبده».. وخلال انتظار وعد الخديو بتقرير راتب جاءه واش بأن الكاظمي كان يمدح بل إنه شاعر المفتي ؛ وردد الواش الشعر الذي مدح به الإمام.. وأدى ذلك إلى نكول الخديو عن وعده.. وعرف الشاعر أن الذي ثنى الخديوي عن وعده الشاعر أحمد شوقي.. وعن شعر الكاظمي قال الشيخ المغربي: «وكما أنه تفوق على شعراء زمانه بمتانة الأسلوب وجزالة الألفاظ وخلو شعره من المعاظلة

والتعقيد بهذه الطريقة الفحلة، نراه امتاز عنهم أيضاً في أنه يرتجل الشعر ارتجالاً غاية السلاسة لا جمجمة فيه ولا تلكؤ»..

ونقف قليلاً عند ما أشار إليه الأستاذ المغربي من نكد الحياة وقسوتها على الشاعر بعد وفاة الأستاذ الإمام، لأن الإمام الكريم كان يمنحه شهرياً من راتبه الخاص عشرة جنيهات، فكانت كافية كل الكفاية لمعيشته الميسورة لا الزاهدة. وقد اشتهر ولاؤه للإمام بما أذاعه من قصائد في مديحه التي يجدها القارئ بعضها في الجزء الثاني من مجموعته الشعرية.. فلما مات الأستاذ الإمام سنة 1905 انسدّ باب الرزق في وجه الشاعر.. ولقد حاول أن يجد مرتزقاً في وظيفة حكومية فلم يوفق.. وقد أبنت انه لجأ الى الخديوي عباس لعله يسعفه براتب شهري من الأوقاف كما كان يفعل مع أدباء يلوذون بكنفه وعقد على ذلك الآمال، غير أن السعي الحثيث المتواصل الذي بذله الأستاذ علي يوسف لم يحقق شيئاً من أمله ولا أمل الشاعر البائس المسكين بعد توقف الخمسين جنيهاً التي كان يجود بها الخديو يتسلمها من الديوان في شكل عون، غير أن الواشي قال للخديو ما قال عن صلة الشاعر بالإمام، وأنه قال فيه من الشعر كذا، وعرّض فيك بكذا وكذا ، وكانت المحصلة الشح برفده..

ولعل أحمد شوقي كما قيل كان لا يحب أن يرى من الشعراء من يحاول الاتصال بالخديو، كي يظل هو شاعر الأمير وحده.. وموقفه من الكاظمي شبيه من موقفه مع عبدالحليم المصري، حين حاول التقرب من عباس، فأوصد شوقي الباب دونه.. وهذا ماكان يعلمه الشاعر حافظ إبراهيم، فكان يقول إن شوقي يقف عثرة فى طريقه إلى قلب الأمير.

وقد نفّس الكاظمي عن نفسه بقصيدة متألمة، قال فيها عن أحمد شوقي، نقلاً عن المجموعة الثانية للكاظمي ص 12..

لقد كنت ارجيّه يوماً فى الورى يذكر
وكنت اخال هذا العضب يوم الضرب لا يفتر
إذا بالسابق الكرار ما إن كر حتى فتر
الست الشاعر الفذ وقد اصبحت لا تشعر
الا ايها المغرور بالاوشاب لا تغتر
لئن لم تنته اليوم وتخشاني كما تؤمر
تجد فى قلمي الادهم ما في الذابل الأسمر
فراقب صولة الليث إذا همهم أو زمجر
وتب واستغفر الله فإن الله قد يغفر

ومن ملحقات هذا الباب ماذكره الأستاذ أحمد محفوظ فى كتاب – حياة أحمد شوقي –، حيث قال فى ص «63» عن شوقي: «كان شوقي كريماً في شبابه، ولكني أدركته فى كهولته، فكان يجنح إلى الحرص منه إلى الكرم.. بعث له مرة الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي بكتاب يشكو فيه فقراً أو مرضاً طرحه على الفراش، فبعث إليّ وأراني الخطاب، وسألني أن أتحقق أمر الكاظمي ومكان صدقه من هذا الكتاب، وتبيّن لي موقع منزله فى العباسية.. فأجبته أني سأذهب إليه وأكشف حاله.. وكنت امرءاً كسولاً، وبيت الكاظمي بعيد.. فقلت فى نفسي، وما عليك أن تشهد شهادة زور لأديب شيخ كلنا نعلم فقره، فذهبت أتلكأ فى مشارب القهوات ساعتين، ثم عدت إليه ووصفت من مرض الشيخ وحاجته ما استثار كامن رحمته، فبعثت إليه مع كاتبه قدراً طيباً من المال»..

إن الذي يعرف إباء الكاظمي وترفعه، يقدر كم عانى من الألم حين اضطر أن يكتب إلى شوقي سائلاً للعيش فى كرامته دون أن يسأل أحداً، فأخفق، وندع الأستاذ المغربي يقول فى كلمته التي تصدر بها الجزء الثاني من الديوان..

لقد اضطر أن يسأل تاجر الدجاج أن يصف له طريقة في تفريخها وتغديتها والقيام عليها، ليعتاش هو من وراء ذلك، فوصفها الرجل له، وحاول أن يجربها، ففعل وأصبح عنده ألوف من الفراخ، وكان يعتني بها ويطعمها الأرز، لكنه لم ينجح في تجربته، وكانت الخسارة عليه عظيمة.. قال: وما كان يخطر لي قط أن الكتاكيت سريعة العطب، رقيقة المزاج إلى هذا الحد، وأنها إذا لم يتدبر صاحبها أمرها بانتباه وفرط حيطة، مراعاة الأصول في تغديتها وتدفئتها، لا يبقى من الآلف منها سوى بضعة عشر كتكوتاً !»..

إن الزعيم سعد زغلول كان يعرف مأساة الكاظمي، كما يعلم أنه من شيعة الأستاذ الإمام محمد عبده، فكان يبعث إليه على فترات ما يتبلغ به من المال، ولقد فات الزعيم أن الصدقات لا تتعشى منزلاً، وكان عليه وقد ولي رئاسة الوزراء، أن يبحث إليه عن عمل مناسب في دار الكتب أو مكتبة الأزهر، ولكنه لم يفعل، بل اكتفى بتقرير مبلغ شهري من وزارة الأوقاف لا يكفي لأسرة ذات شمم وإباء.. وليس سعد زغلول هو الملوم، بل إن كبار الوجهاء والوزراء في مصر يعرفون من هو الكاظمي، ولكنهم لم

يفعلوا شيئاً.. وكان الرجل زينة المحافل الأدبية فى مصر، إذ كان يدعى في المحافل العامة ليلقي قصائد رنانة، تقابلها الجرائد بالاحتفاء، وقد اضطر إلى التصريح بمناسبة فى بعض قصائده التي القاها فى الاحتفالات الجهيرة، ومنها قصيدته التي مطلعها:

حكم القضاء فعممي وجرى المقدر فاحكمي

وقد بلغت مائتي بيت !! فى قوته وجزالته يبعثان العجب، وقد نشرت بالجزء الثاني ص 314 وما بعدها، ومنها قوله:

مات الإمام فلا حمىً يلجأ إليه المحتمي
مات الإمام فلا يد تسدي النوال لمعدم
مات الإمام فلا مغيث من صروف الأزلم
يوم الايام يعد من يوم علينا اقوم
امحمد اسفي عليك على الأبر الارحم
آيات فضلك رتلت بين الحطيم وزمزم
ايام عرسك قد ابادتها ليالي المآتم
أخذتك عادية الخطو ب من المعز المكرم

ولعل الشاعر بما تحدث به عن الإمام وأياديه البيض، كان

يطمع أن يكون من تلاميذه من يحذو حذوه على نحو متسع كريم .. وقد أقيمت للشاعر حفلة تأبين كبرى بعد رحيله، فكان جميع القائمين وأكثرهم من ذوي الجاده والصولة في مصر، تحدثوا عن بؤسه الذي أخذ بخناقه، ومع ذلك لم يساعده أحد من المتباكين عليه، وقد ذكرني ذلك بقول الشاعر العراقي محمد على اليعقوبي فى رثائه:

الــق دواتــك واقــرب وخــذ اداتــك واكــتــب

ثم ابتدأ يقول ص 118 من المجموعة الثانية:

أتـرى الافـضـلـين والابـدالا وجدوا للشكوك فيك مجالا
هـكـذا يـنـبـذ الـتـقـاليـد حـر ويـفـك الـقـيـود والاغـلالا
احـرجتك الازرار فهى عقال وطليق الأفكار يأبى العقالا
كنت بالأمس لست تعرف ما الذيل فـاصبـحـت تـسـحـب الأذيـالا
فـأرح حبسك المعذب واختر لـك فـى كـل لحـظـة سـربـالا
لا تـبـد الأزيـاء خـلـة نـطـس عرفت كيف تستجد الخلالا

واندفع مسترسلاً في الارتجال، فأحب الأستاذ المغربي أن يذكر في القصيدة فتمنى أن يذكره فيها، فقال مخاطباً سركس:

نـدك المـغـربـي امـثـل نـد   لـك إمـا ضـربـتـمـا المثـالا
قد تجاورتما بـاعظم صـرح   مثلما جاور الـهـلال الهلالا

وبلغت القصيدة المرتجلة سبعة وثلاثين بيتاً من هذا الطراز، ولها نظائر مرتجلة سجلت فى الديوان.. وأختم هذا البحث «المرتجل» ببعض ما ذكره الأستاذ الكبير مصطفى عبدالرازق فى مقدمة الجزء الأول من ديوان الكاظمي، حيث قال: قد يكون السيد عبدالمحسن الكاظمي، لم يأخذ فى شعره بتلك الأساليب المقتبسة من الأشعار الأجنبية في الأوزان والتعابير، وقد لا يكون السيد عبدالمحسن الكاظمي قد خرج عن دائرة الشعر العربي الذي يلتمس النواحي العاطفية فى كل مايعرض له من المعاني، فهو لم يعالج من الشعر موضوعات اجتماعية أو تاريخية، ليعرضوا عرضاً تاريخياً أو فلسفياً.. والشعر عندي كما يقول - كذا يقول الأستاذ مصطفى عبدالرازق، ليس محتاجاً فى رقيّه إلى هذه الاقتباسات الأعجمية من أوزان لا تطرب أنغامها أذواقنا، وعبارات لاتصور فهمنا للأشياء، ولا إحساسنا، وليس محتاجاً إلى الخروج به عن وجهته.. ووجهة الشعر أن يكون متعة لقلوبنا، ومنعشا لعواطفنا، حتى لا يطغى سلطان

العقل وسلطان التجارب المادية، على الإنسان المحتاج فى كماله إلى انتعاش العواطف والقلوب، وليس ذلك إلا بالشعر، وما إلى الشعر من فنون الجمال..

ولعلي بهذا البحث المتواضع، أكون قد لفت بعض الأنظار، إلى دراسة هذا الشاعر المجيد..

* * *

تبعيــة الاســتلاب

هذا الكتاب هو الكتاب الثالث من نوعه، في هجومه الصارخ على الذين حاولوا النيل من اللغة العربية والزاد الأدبي، وأن أول هذه الكتب، هو كتاب: «تحت راية القرآن»، للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، أما الكتاب الثاني، فهو: «أباطيل وأسمار»، للأستاذ محمود محمد شاكر.. وكتاب «تبعية الاستلاب»، فهو الحلقة الثالثة في سلسلة الكفاح المتواصل.. وفي الكتب الثلاثة فصول تتحدث عن موضوع واحد، كموضوع العامية وإحلالها محل اللغة الفصحى، مما يدل على أن جراثيم الإلحاد الأدبي، قد تفشت سمومها منذ عهد بعيد، وأن الطّرق المتواصل الملح من كبار الكتاب المخلصين الأفذاذ في العالم العربي مايزال في حاجة ماسة إلى معاودته، لأن الخصوم الأعداء تحركهم بواعث دفينة من الأحقاد والعداوات لاتهدأ آثارها..

ومقدمات الكتب الثلاثة تتقارب كثيراً فيما نعلنه من غضب واستنكار، لاسيما فيما كتبه الأستاذ معيض في الباب الأول، تحت عنوان: «الغرب وصعوبة المعادلة، ثم ما يلي هذا الباب من فصول تتأجج بالغيرة الصادقة على التراث العربي، وهي غيرة نجدها عند الكثير ممن صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. وأعتبر نفسي مشاركاً حين أقول إني أحد هؤلاء، ولعلمي المتواضع جولات مؤكدة في هذا الميدان، لا تصل إلى جولات هؤلاء المخلصين، ولكنها جهد المقل على كل حال.. ولا أحاول أن أكون ناقداً حين أكتب عن كتاب الأستاذ معيض البخيتان، لأني أزعم أنني صادق كل الصدق حين أقول إني أوافقه على كل ما ذكره، بل أدعي أن بعض خواطره الصادقة أحسها في نفسي أصدق الإحساس، وكأنها نقلت من صدري، ولا أقول كأنها فقط، لأن للكاتب قلمه المجيد ومنحاه النقدي اللذين يرفعانه إلى مستوى عال.. وإذا كنت أوافقه بحق على اتجاهه، فإني سأكتفي بالتعليق على نقاط أثارت خواطري وتوجهي، وما سأقوله كأنه حاشية محدودة على متن رائع قوي، حاشية تؤيد ولا تعارض، حاشية تحبذ ولا تنقد، وهذا يكفي في مجال الكتابة عن مؤلف جاد، تراه

صدًى لنفسك وترجماناً، وهذا يكفي في مجال الكتابة عن مؤلف متميز، تراه صدًى لنفسك، وترجماناً لفكرك..

في التمهيد الأول، حديث مبدع عما قاله «برتداندرسل»، ص «7»، من أن «النشوء الحضاري اليوناني كان معجزة لا يمكن أن تتكرر، وذلك لأنها وجدت من غير سابقة أو من غير ولادة، وأن ما سبقها من الشرق لم يكن عبقرياً ولا ناضجاً، وذلك لاختلاطه بالتأملات والمعتقدات الدينية، وفرق بين ماجاء بالبداهة والخيال، وبين ما ارتبط بالتحليل والبرهنة العقلية».. هذا قول برتراندرسل الذي نقله المؤلف الفاضل وعقب عليه بما يدحضه، وأنا أقول تعليقاً عليه، «إن الدكتور طه حسين قد نقل هذا الرأي وأفاض في تأكيده في كتاب «قادة الفكر»، ووجد من تصدى لمناقشته بالدليل القاطع، وهو الدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين بالأزهر، فاستشهد بما ذكره «ديوجين اللأيرسي» في كتاب - حياة الفلاسفة -، وقد عاش في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح، إذ اعترف اعترافاً صريحاً بفلسفة المصريين والفرس قبل أن تظهر الفلسفة اليونانية، ومن أقوى ما يؤيد ذلك، أن الباحثين الأثريين عثروا على كلمات العدل والفضيلة والنفس

والحياة الأخرى في الشرق قبل أن توجد في الغرب بقرون عدة، وأن علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أن بناء الأهرام قام على وضع رياضي تنسقه فلسفة هندسية رياضية، وأن كثيراً من النظريات الإغريقية تتوفر فيها جميع شرائط التفعيلة الشرقية»؛ ومعنى ذلك أن ماجاءت به الفلسفة الإغريقية، لم يكن بدءاً للفلسفة ولكن كان تتميماً للحلقات السابقة في الشرق.. والكتب التي صدرت في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح تثبت ذلك! وإني أتساءل: لماذا لا يُردّ الذين يؤكدون سبق الفلسفة الإغريقية على هذه الحقائق وهي ثابتة في المؤلفات القديمة، ولم يكتبها الشرقيون، بل كتبها الغربيون أنفسهم، وفي هذا كفاء!؟

وقد أعجبتني جملة المؤلف على ما يسمى بقصيدة – النثر –، لأنها في العصر الراهن قد انحدرت إلى مستوى الألغاز، بل إلى مستوى الألاعيب البهلوانية، ولكني بالرجوع إلى تاريخ القصيدة النثرية، أرى أنها في عهدها الأول، في أوائل القرن العشرين، كانت تنبض بالأحاسيس وتتدفق بالشعور، فهي جديرة بأن تسمى بالشعر المنثور، كما كانت تسمى إذ ذاك، ومن أمثلتها مانشره جبران خليل جبران، وأمين الريحاني الذي ذكر المؤلف

اسمه في معرض الإنكار، فهذا النوع من الإبداع الفني صادف قبولاً لدى الشعراء، لأن من كتبوه أدباء أصلاء.. وأذكر أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، وهو المدافع الأول عن التراث العربي في هذا العصر، قد ارتضى هذا اللون ونشر منه قصائد بلغت حد الروعة، ويضيق المجال عن الاستشهاد بما قال ، ولكني أذكر مقطوعة من قصيدته «لحوم البحر»، ويعني بها اللاتي تسبحن في البحر عاريات أيام المصيف بالإسكندرية وغيرها، وفيها يقول، وهي عن – وحي القلم، ج 1، ص «258»:

يالحوم البحر! جزار سلخك من ثيابك...

جزار لايذبح بألم، ولكن... بلذة

ولا يحز بالسكين، ولكن يحز بالعاطفة...

إلى الهجاء ياأبطال معركة الرجال والنساء

فهنا تلتحم نواميس الطبيعة ونواميس الأخلاق.

للطبيعة أسلحة العري، والمخالطة، والنظر، والأنس والتضاحك،

ونزوع المعنى إلى المعنى

وللأخلاق المهزومة، سلاح من الدين وقد صدئ، وسلاح
من الحياء! مكسور
يا لحوم البحر سلخك من ثيابك جزار...
ولن تغني هذه المعاني، في قصيدة ذات وزن وقافية، فلن
تزيد في تأثيرها عن قصيدة الشعر المنثور

أما قصيدة الشعر المنثور هذه الأيام فعجيبة الأعاجيب، وغريبة الغرائب.. والمدهش أنها كثيراً ما تلجأ إلى التقليد المنكوس، فتنقل عن الغرب تشبيهاته، وتتحدث عن – الصلب والفداء –، «وخمر المسيح»، كما يتحدث الغرب تماماً! والسؤال الوارد في هذا المجال: لماذا ينكرون على شاعر بدوي، مثل الشيخ محمد عبدالمطلب رحمه الله، أن يتحدث في شعره عن الأماكن المحبوبة في جزيرة العرب، ويقولون إنه مقلّد، ينقل من محفوظه دون إحساسه، ثم تنقلون، أنتم في أشعاركم اصطلاحات الغرب ورسوم الديانة المسيحية نقلاً حرفياً، وتعتبرون أنفسكم مجددين! إن أمثال محمد عبدالمطلب حين يتحدثون عن نجد والعقيق وسلع، يتحدثون عن أماكن يحبونها ويشتاقون رؤيتها، أما أنتم فتهرفون بما لا تشعرون.!

تابعت أبواب الكتاب وفصوله، وقد زاحمت خواطري نحو كل ماقرأت، ولو أردت التعقب بكل ما جاش في نفسي لسودت صفحات كثيرة، ولكني لاأستطيع ان أنقل شعوري الدافق بالإعجاب نحو الباب الأخير عامة والفصل الذى كتبه تحت عنوان: «ما هو الأدب الشعبي؟»، حيث قد وفى نقد الاتجاه الجارف نحو هذا الأدب، وقد مهد لحدثيه ببحث علمي يتضمن أقوال الباحثين في هذا الاتجاه دون أن يتحيّف أراءهم، بل عرضها عرضاً دقيقاً محايداً، ليؤكد بعد ذلك في ص: «327» «كما إني لست مع ولا ضد هذا الشعر العامي، بل كانت لي فيه مساهمات على قدر الحال، ولكني كنت مع الجيد أيما كان، والأهم لدي هو الجودة، فهل جودة هذه العاميات قد فرضت نفسها عند المثقفين، أم أن الظروف والمحاباة هي التى تمثل هذه الظاهرة وتسويقاً؟»، وهوسؤال أحسن الأستاذ عرضه، ثم أحسن الإجابة عليه ، حين قال في الفصل التالي، ص – 329 –، مستشهداً بقول بعض الباحثين، ص: 330: إن غوغائية العوام تكالبت بالحبال والعصي لكي يجهزوا على كل «صيحة توقف من ركوضهم موقف الحذر، والمنابر التي يثيرون بواسطتها الادعاء والسِباب الغليظة بالعشرات»، وهي عبارة موجزة، بسطها

الأستاذ بسطاً شافياً مدعماً بالبرهان وبالأمثلة العاميّة التي انكشف عُوارها دون استياء، ثم جاهر بالحق الصريح، حين أكد أن «هناك من وضعوا للعامية قواميس يُروج لها في الصحف، وفي أين؟ في عقر العربية موئل الفصاحة والبيان»! وقوله في عقر العربية موائل الفصاحة والبيان، يذكرني بحديث سمعته في القاهرة من أحد الفضلاء الذين دعوا إلى الجنادرية في بعض الأعوام، حيث قال لي متأسفاً: «إني حين ذهبت إلى الرياض قلب نجد والجزيرة العربية، ظننت أني سأسمع خلفاء امرئ القيس وزهير وعنترة من أبطال الشعر العربي الفصيح، فاستعيد بما أسمع أمجاد هؤلاء الذين رفعوا راية الشعر العربي على مدى الأجيال، ولكني أرى عجباً! أرى الشعر المسمى عندهم بالنبطي، يحتل الساحة، والحاضرون من الزوار جميعاً لا يفهمون منه شيئاً، ولأصحابه سلطان وضجة، زاحموا بها الشعر الأصيل، حتى كاد الشعر العامي أن يكون كل شيء في هذا المجال، لولا ما تفضل به بعض الكرام من أنصار اللغة العربية وحماتها، وهم كثيرون بحمد الله في المملكة، ولكني أخشى على الصراخ العامي بمرور الأيام، فيتضاءل مركزه الأدبي، جوار هؤلاء الذين ينشئون المجلات ويقيمون الندوات، ويكثرون الضجيج في غير مجال..

وهذا الذي سمعته في القاهرة هو ما أكده الأستاذ المؤلف بدفاعه المستنير، وقد صدق حين قال، في ص -: «356» ليس هناك تاريخ إلا تاريخ وحدة هذه البلاد ورجالها وصنّاع نهضتها، فلتضعه الأجيال في الناصية، ولتحافظ على نصاعته ونبل سيرته، وإن العامية وتداعياتها لن تأتي بخير!

ولي أن أخذ عبرة من تاريخ العامية في بلد آخر هو مصر العزيزة، ففي عهد الاحتلال البريطاني، هيأ الاستعمار الإنجليزي جنوده لمحاربة اللغة العربية والدعوة إلى اللهجة العامية، فألف «دلهم سبتاً» كتاباً سماه قواعد - اللغة العامية في مصر -، وذكر في مقدمته أن اللغة العامية هي طريق الإصلاح الثقافي في مصر، ولن تكون بها نهضة ثقافية إلا عن طريق العامية.. ثم جاء أوروبي آخر هو - كار فولرس - فألف كتاباً آخر تحت عنوان: «اللهجة العامية الحديثة في مصر»، ليؤكد ما قاله لهم شيئاً من قبل، وجاء وديل لكس، وهو مهندس إنجليزي لا صلة له إطلاقاً بالحال الثقافية، فأخذ يلقي عدة محاضرات، تعلن أن أسباب تأخر المصريين هو اللغة العربية، وألاّ سبيل إلى النهضة إلا عن طريق اللغة العامية.. وهذا ما جعل الشرفاء يضجون بالشكوى

والتذمر من هذا الكيد الأليم للغة القرآن.. وقال حافظ إبراهيم رحمه الله، في قصيدته المشهورة على لسان اللغة العربية:

أيطريكم من جانب الغرب ناعب ينادي بوأدي في ربيع حياتي

سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً يعزّ عليها أن تلين قناتي

أيهجرني قومي، عفا الله عنهمُ إلى لغة لم تتصل برواة

أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

فياويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإن عزّ الدواء، وساتي

والقصيدة جميلة رائعة، نشرت بالجزء الأول من ديوان حافظ إبراهيم، وعنوانها: «اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها»، وذلك منذ مئة سنة..

أما الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله، فقد بسط القول في هذا الاتجاه الفاشل حين قال: «كراهة الشباب للفصحى لا ترجع إلى نقص فيها أو قصوره منها، إنما ترجع إلى قلة العلم بها وسوء الفهم لها».. وما قاله الزيات قد حدد العلة تمام التحديد، ونجد في الرجوع إلى قوله في كتابه «دفاع

عن البلاغة» ص - 164 - أنه أجاد التحليل والتشريح، بما كان يسرني أن أقتبس الكثير منه لولا ضيق المقام.. وقد تحدث الأستاذ محمود شاكر رحمه الله في هذا الموضوع في كتابه: «أباطيل وأسمار»، بما ﴿**يشفي صدور قوم مؤمنين**﴾..

وأعود فأقول: ليس فيما كتبت عرضاً للكتاب القيم، الذي ألفه الأخ الأستاذ معيض البخيتان، بعنوان «تبعية الاستلاب». إن عرضه الوافي يتطلب تلخيصه جميعه، ولكنها خواطر تتابعت في نفسي عند قراءتي لهذا الكتاب القيم، وإني أدعو الأستاذ الكريم إلى كتابة كل مايعن له في باب الإصلاح الأدبي والاجتماعي والثقافي، ذلك أنه أثبت جدارة فائقة، يُهنأ عليها، ولازلنا ننتظر منه الكثير بإذن الله..

* * *

نقد لتحقيق تراثي!

يوالي الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني إصدار سلسلة تحت عنوان (من تراثنا الخالد)، صدر منها فيما أعلم إلى الآن ثمانية كتب من كتب التراث العلمي، وقد أفزعني كل الفزع أن المحقق الفاضل وهو أستاذ مشارك للآداب والنقد بكلية الآداب للبنات بالرياض، لا يعرف أقل ما يجب أن يعرفه قارئ عادي فضلاً عن أستاذ جامعي من أصول النشر والتحقيق، وكان الذي لفتني إلى نتاجه العلمي صديق فاضل جاءني يشكو أنه قرأ كتاباً من كتب التراث تحت عنوان (سيرة الرسول أو الطريقة المحمدية) فوجد الكتاب لا يتعرض إلى سيرة الرسول إطلاقاً، إذ تتحدث فصوله عن وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة.. وعن الأمور المهمة في الشريعة المحمدية، وعن أمور يظن أنها من التقوى والورع تتضمن نبذاً من أحاديث الرسول، فكيف يكتب على العنوان «سيرة الرسول»؟ والمتعارف في السيرة أن تكون

قصة حياة، وتاريخ وقائع وأحداث. يقول صديقي الباحث: ثم رجعت إلى ترجمة المؤلف بأول الكتاب فوجدته ينقل عن صاحب كشف الظنون ص «13» اسم الكتاب وهو: (الطريقة المحمدية في الموعظة) وهذا الاسم هو المناسب، فكيف جاز للناشر الفاضل أن يلحق بالعنوان ما لا صلة له به، وما لم يدر بذهن المؤلف أن يتجه إليه؟!! والسؤال الذي اتجه به للدارسين هو: أيجوز لناشر ينتسب إلى أهل العلم أن يضيف إلى عنوان الكتاب ما لا يتصل به، لفتاً للأنظار فحسب! وإذا فعل ذلك وراق تجاري أيقدم عليه باحث جامعي!؟ الطريف أن الكتاب مصدر بكلمة لفضيلة الأستاذ الشيخ مناع بن خليل القطان، قال فيها: (ويظن بعض الناس أن التحقيق أسهل من إعداد بحث، وليس الأمر كذلك دائماً، فإن التحقيق بضوابطه الوافية وعناصره الكاملة عمل شاق يحتاج إلى جلد وصبر، وتدقيق وتمحيص، ودرجة عالية من العلم تمكن المحقق من دراسة حياة المؤلف، والتثبت من نسبة الكتاب إليه. والمقارنة بين النسخ المخطوطة، وتصويب ما فيها من تحريف أو تصحيح، وتوثيق النصوص، ورجعها إلى مصادرها والتعليق على ما يحتاج إلى تعليق).

هذا ما ذكره الأستاذ مناع القطان، وهو حق لا مرية فيه، ولكن هل انتفع الدارس الجامعي بشيء منه؟ لقد راجعت ما وقع تحت يدي من تحقيقاته، فوجدته بعيداً كل البعد عن أن يكون محققاً مبتدئاً، فضلاً عن أن يكون ذا مقدرة على التوثيق والتصويب! وأريد الآن أن أتعرض إلى أنموذج من عمله الأدبي، فأكتب ما عنّ لي في أثناء قراءتي لكتاب (الشفاء في بديع الاكتفاء) لشمس الدين محمد النواجي الشافعي المتوفى سنة (859)، وقد تركت الكتاب الأول (الطريقة المحمدية) لأنه لا يمت إلى البحث الأدبي الذي أوليه اهتمامي، أما كتاب الشفاء فخاص ببعض مباحث علم البديع وهو الاكتفاء فهو إذاً من أبواب البلاغة التي خاض فيها علماؤها. وتناولها النقد الأدبي في التراث بمزيد من التوجيه!.

1 - وأول شيء لفتني في كتاب الشفاء.. أنه صدر بترجمة للمؤلف نقلها الباحث نقلاً من الجزء السابع من كتاب الضوء اللامع للسخاوي، دون أن يؤدي الأمانة العلمية ما يجعله يقرر أن الترجمة منقولة حرفياً من كتاب السخاوي، ولكنه كتب في هامش الصفحة الأولى من الترجمة ص (27)

يقول: وردت ترجمة المؤلف في كثير من الكتب وهي:

(1) الضوء اللامع. (2) الأعلام. (3) الخطط التوفيقية.
(4) حوادث الدهور. (5) آداب اللغة. (6) لغة العرب.
(7) الفهرس التمهيدي. (8) البدر الطالع. (9) ابن إياس.
(10) صفحات لم تنشر.

ومعنى ذلك أن المحقق رجع إلى هذه الكتب ونقل منها عناصر الترجمة، وأن السخاوي ما هو غير مصدر واحد من مصادر البحث! ولكن الحقيقة أنه نقل ما كتبه السخاوي دون زيادة أو نقصان، ثم نقل هذه المصادر من كتاب الأعلام للزركلي، وكأنه قرأها ودرسها وأقام ترجمة جديدة من لبناتها وهو ما لم يحدث!!

وقد وقع خطأ مطبعي في نسخة السخاوي لم يفطن له الناقل، ونسخه كما هو، إذ يقول السخاوي عن الجلال البلقيني: «وهو من كبار علماء عصره ثم كان يعد من أكثر المؤذنين له» والصواب من أكثر (المؤذين له) فنقل الدارس اللفظ دون أن يفرق بين معنى مؤذ؛ ومؤذن! ولم يسأل نفسه كيف يكون الجلال

البلقيني مؤذناً وهو من كبار العلماء! وكيف نقرن الكلمة بهذا الجار والمجرور (له) والذي يؤذن لفرد!؟

2 - وسأتابع صفحات الكتاب، إذ إني في أثناء قراءتي دونت على الهوامش ملاحظات، أنقلها حسب تدرجها المتسلسل في الصفحات، وسأكتفي ببعض عن بعض.

جاء في ص (38) ما يأتي من كلام المؤلف:

(وفي شرح القاضي الفاضل في قوله، وقد صدق والله المثني عليك إذ يقول: «إنك الرجل الذي تضرب به الأمثال والمهذب الذي لا يقال معه أي الرجل).

وهذا النص القصير يتضمن طرفتين وقع فيهما الدكتور محمود حسن أبو ناجي، الطرفة الأولى أنه وضع رقماً على كلمة (المثني عليك) ليقول في الهامش: المثني لم أجد ترجمته في كتب التراجم!! مع أن القاضي الفاضل يقصد بكلمة (المثني) المادح، فهو يقول صدق من يمدحك إذ يقول، فكيف لم يجد الدكتور ترجمة المثني بعد أن أتعب نفسه في البحث؟ وهل من المعقول أن يجدها؟

والطرفة الثانية أنه كتب النص كتابة الشعر هكذا:

وحين رجعت إلى الصفحات المخطوطة الملحقة بالكتاب وجدت النص هكذا ص (15):

إنك الرجل الذي تضرب به الأمثال والمهذب الذي لا يقال معه،

إنك الرجل الذي تضرب به الأمثال، والمهذب الذي لا يقال معه أي الرجال «فلم يفهم الدكتور موضع الشاهد، إذ هو اكتفاء من قول النابغة (أي الرجل المهذب) غير كلمة الرجال، فقال (أي الرجل) أهو خطأ مطبعي. وهو بذلك لا يفهم المعنى اللغوي ولا موضع الشاهد في الاكتفاء فكيف يعقل هذا؟ أيعقل أن يحذف المحقق الصواب من المخطوطة ليضع الخطأ من عنده!! وقد تكرر هذا كثيراً، كما يلي:

3 - في صفحة (46) استشهد المؤلف بنصف بيت لابن الفارض، وهو: (إن غاب عن إنسان عيني فهو في) أي قلبي! فكتبه المحقق هكذا، وكأنه بيت مجزوء لا نصف بيت:

ووضع كسرتين تحت نون إنسان!!! ولو رجع إلى ديوان ابن الفارض لوجد البيت هكذا:

ما للنوى ذنب ومن أهوى معي

إن غاب عن إنسان عيني فهو في

4 - في ص (63) ذكر المؤلف عدة أبيات، قال عنها المحقق في الهامش: إنه لم يعثر على قائلها، وهي للبهاء زهير في ديوانه المشتهر، وليس هذا موضع المؤاخذة، إذ لا نلزم كل محقق بمعرفة ما في جميع دواوين الشعراء! ولكن الذي نعجب له أن المحقق، فصل النص الواحد، فذكر ثلاثة أبيات تبتدئ بقول البهاء:

يا حسن بعض الناس مهلاً

صيرت كل الناس قتلى

ثم قال بعد البيت الثالث ولبعض الشعراء[1]. وذكر ثلاثة أبيات أخرى تبتدئ بقول البهاء من القصيدة نفسها:

وبمهجتي من لا اسميه واكتمه لئلا

---

(1) لو كان قوله «لبعض الشعراء» من صنيع المؤلف نفسه لوجب على المحقق أن يعلق بما يفيد وحدة النص.

هذا إلى أن المؤلف لم يشر إلى موضع الاكتفاء في استشهادات كثيرة - مثل هذه -، وكان على المحقق أن يتدارك ذلك لو كان ممن يعلمون أن المحقق متمم للناشر في عمله؟ وهو كذلك! ولكن من غير طراز الشيباني.

5 - يؤسفني أن أقرر أن المحقق لا يعرف الوزن العروضي، لأن أكثر ما ذكره من الأبيات قد جاء مكسوراً، ولو اقتصر الأمر على عدة أبيات لقلنا إن المطبعة هي التي جنت جناية في الظن لم ترتكبها في اليقين، ولكننا نشير إلى نماذج جاءت في الصفحات (33، 45، 65، 56، 62، 69، 72، 70، 74، 77، 81، 86، 78، 98)، ولها أمثال عدة، مع أن الإهمال قد وصل إلى حد يستغرب، فهو مثلاً في ص (67) قد كتب أبياتاً لشيخ الشيوخ الأنصاري على هذا النحو:

اي أساد عرين نظرت فسبتها اي غزلان واي؟
صادني منها غرير اغيد فيه ما يشغل عن هند ومي
قلت قد اضنيت جسمي قال قد، قلت كي
تذهب روحي قال كي ....

فبالله كيف يختل الوزن في البيت الأول، ثم يتحول البيت

الثالث بقدرة قادر إلى بيت ونصف، ويترك المكان خالياً تملأه النقط. وكأن هناك حذفاً ولا حذف، مع أن الأبيات واضحة تنادي على نفسها، وأي طالب في المعاهد الثانوية قد درس بحر الرمل يستطيع أن يكتبها هكذا:

اي أساد عرين نظرت فسبتها اي غزلان واي

صادني منها غرير أغيد فيه ما يشغل عن هند ومي

قلت قد أضنيت جسمي قال قد قلت كي تذهب روحي قال كي

6 – ديوان ابن الفارض مشهور متداول، وقد تعددت طبعته، فإذا استشهد المؤلف النواجي بنصف بيت وترك نقطاً تدل على فراغ.. فعلى المحقق أن يأتي للديوان ويقرأ النص كاملاً، ويكتب ما يملأ به الفراغ، لاسيما واسم الشاعر مدون مذكور، فلا نقول إنه غاب عن المحقق، ولكنه في ص (88) ذكر أبياتاً لابن الفارض، وقال النواجي مشيراً إلى المطلع، وأولها (أي أول القصيدة):

قلبي يحدثني بأنك متلفي

(فراغ)!

أفما كان على المحقق أن يكمل البيت هكذا:

قلبي يحدثني بأنك متلفي   روحي فداك عرفت أم لم تعرف

أقول: كان عليه أن يكمله في هامش الصفحة، ويقول إن المؤلف قد ترك النقط دون إكمال.. وقد أكملت! أما أن ينقل النقط ويقول: فراغ فهذا ما لا يقبل!

7 - كم تمنيت أن تكون مخطوطة الكتاب تحت يدي، لأني واثق ثقة تامة أنها أفضل بكثير مما رأيناه في النص المطبوع، وقد أسعفنا المحقق بنشر بعض الصفحات من المخطوطة ملحقة بالكتاب. فكانت الدليل على أن المخطوطة تذكر الصواب، فينقله المحقق خطأ، لغياب دقة النقل. والقارئ المتأمل سيدهش لما نقول، ونحن نشاركه هذه الدهشة، وسنذكر له أمثلة نتركه يقلب كفاً على كف.

(أ) ورد في صفحات المخطوطة المرفقة بالكتاب هذان البيتان:

من عقرب الصدغ ومن حية الشـ   ـعر لقد مت بلسع الهوى

قالوا يداوي قلبه إن يدم   قلت وهل يرجى لفان دوا

والبيتان صحيحان سليمان لا نقص بهما ولا عيب، وحذف

حرف تارة، أو كلمة تارة أخرى مما يخل بالوزن والمعنى معاً، ولكن المحقق نقلهما هكذا ص (112):

من عقرب الصدغ ومن حية الشعـ ـــر لقد مت بلسع الهوى

قالوا يداوي قلبه إن يدم قلت وهل يرجى لفان دوا

فحذف كلمة الشعر من البيت الأول، وهي موجودة بالمخطوطة، والشعر في الآثار الأدبية يشبّه بالحيات لتلويه ودورانه، وبهذه الكلمة يتم التشبيه، ولا يعقل المعنى بغيرها، كما يستقيم الوزن بها، ولكن المحقق لم يراع معنى، ولم يقم وزناً، فكان صنيعه هذا من أعجب الأعاجيب!

والبيت الثاني جاء في المخطوطة (يداوي قلبه إن يدم) ويدم من الدوام، وبه يفهم الشطر الثاني (يرجى لفان دوا) إذ الأصل دوام فحصل الاكتفاء بحذف الميم، وهو موضع الاستشهاد، فبالله كيف ينقل لفظ (يدم) إلى (ندم) وما وضع الندامة هنا، وهي بعيدة عن المعنى كل البعد. ثم ما العلاقة بينها وبين ما بعدها في قول الشاعر: «قلت وهل يرجى لفان دوا»!؟

(ب) جاء في صفحات المخطوطة ص (23) قول القائل:

وجاوبوا العذال عمن غدا من دمعة لا يستطيع الجواب

فذكره المحقق هكذا، في ص (113):

وجــاويــوا الــعــزال عــم غــدا من دمعة لا يستطيع الجواب

فـالخطأ أولاً حين جعل (العذال) جمع عاذل (العزال) وكأنها جمع عازل! وأخطأ ثانياً حين جعل (عمن) الموصولة التي تدل على الحبيب، وعم لا تدل على شيء، وإنما يفسد بها السياق، لأن الضمير حينئذ في قول الشاعر: (دمعة) لا يعود على مذكور.

(جـ) جاء في الصفحات المرفقة من المخطوطة هذان البيتان، في ص (23):

قم منشداً في الجمع شعري الذي نظمته اشكو الجفا والملا – ل

وقـل إذا اسـتـحـلاه نواقـهـم هذا لعمر الله سحر حلا – ل

فسطرهما المحقق على نمط الارتجال في هذا العمل هكذا:

قم منشداً في الجمع شعري ندى نظمته اشكو الجفا والملا – ل

وقـل إذا اسـتـمـلاه ذواقـهـم هـذا لـعـمـر الـلـه كـلام حـلال

وواضح أن كلمة (ندى) في البيت الأول تفسد المعنى، ثم مـ علاقتها بما بعدها من قول الشاعر: (نظمته أشكو الجفـ والملال؟).

إنها صلة الموصول لقوله.. الذي في البيت الصحيح، فكيف نستبدل الفاسد بالصحيح؟.

وعجيبة العجائب في البيت الثاني.. أن يحذف المحقق كلمة «سحر» ويكتب مكانها (كلام)، كأنه لا وزن ولا عروض! ودعك من المعنى!! أما جعل كلمة استحلاه، استملاه فمما لا أدري له أدنى مبرر! أنقول إن المعنى في بطن المحقق!! أم هو التشويه الطباعي.. الذي يغيب عنه المراجعة والتدقيق واليقظة؟.

(د) ورد في الصفحات المرفقة بالكتاب من المخطوطة قول الشاعر في ص (26):

رمت قراه فجلا طلعةً في طجرة ترقى بام القُرى

فسطرها المحقق هكذا في ص (115):

رمت قراءة فجلا طلعة في طرة ترقى بام القرا

وكأن من الجائز في الشعر أن تكون كلمة قراءة تنوب عن قراه دون أن يختل الوزن، تماماً كما نابت كلمة كلام عن كلمة سحر دون أن يضطرب البيت!! هذا من ناحية العروض فقط، أما من ناحية المعنى فإن القِرى هي المتعينة لتطابقها مع البيت التالي بعده:

ابصرت ليلاً ونهاراً معاً   يا قوم ما احسن هذا القِرى

وأمثال هذه السقطات قد وجدت في الأوراق الملحقة، فماذا يكون الأمر لو كانت المخطوطة جميعها لدينا، إننا سنجد حينئذ ما يدهش ويروع!

وقد كثرت الفهارس وتنوعت حتى شغلت قرابة ثمانين صفحة! وكان في قراءة النص ما يلهي المحقق من عمل آلي يقوم به الطلبة على أتم وجه!. وأقول على أتم وجه لأن المحقق قد أخطأ في هذه البدهيات!. ومن طرائفه في هذا المنحى أنه في ص (159) جمع أرقام الصفحات الخاصة بمجد الدين بن مكانس وأخيه فخر الدين بن مكانس في حيز واحد، وكأنهما شخص لا شخصان، إذ كلاهما ابن مكانس!! أليس هذا ابتكاراً في الاختصار؟!

وكثيراً ما أخذت أسائل نفسي: أيدرك المحقق الفاضل خطأه الفادح حين يبدل ويغير في النص، سواء كان شعراً استشهد به النواجي المؤلف، أو نصاً من نصوص المؤلف نفسه.. التي سجلها في كتابه؟! حتى وقفت على قوله في مقدمة كتابه، ص (9).

«حاولت جهدي أن أتبين معنى الكلمات الساقطة، وأضع بدلاً منها بحيث لا تفقد العبارة معناها وفائدتها أو تركها عند عجزي عن معرفة معناها الأصيل».

وقفت على هذا القول الخطير، فرأيت المحقق يبيح لنفسه أن يضع عبارة من عنده في المتن.. بدل الكلمة التي لا يحسن قراءتها في المخطوط! وكل مبتدئ يعرف أن النص لا يجوز التصرف فيه بتغيير أو حذف! وكل ما يفتح الله به على المحقق من احتمال يكتبه في الهامش فيقول: في الأصل كذا، ولا أفهم مرماها وأظنها كذا، وإذا وجدت عبارة غامضة لا تترك إطلاقاً، بل تكتب كما هي في المتن، ويشير المحقق في الهامش إلى غموضها، وليت شعري أيكون عجز الدكتور محمود حسن أبو ناجي الشيباني عن معرفة الكلمة دافعاً له إلى تركها نهائياً!؟ ألا يعلم أن من القراء من سيرى فيها غير رأيه! وهل عجزه عن الفهم إقرار بعجز جميع المحققين، فليس لهم أن يستدركوا عليه شيئاً؟ إن للنشر العلمي كتباً ذائعة نشرها أئمة الباحثين، وأعلام المحققين من أساتذة العرب وفي طليعتهم الأستاذ الكبير عبدالسلام هارون رحمه الله، فلماذا لم يفكر المحقق في الانتفاع

بما كتبه هؤلاء الأعلام، مادام قد وجد في نفسه دافعاً للنشر العلمي! وهل وجود هذا الدافع وحده كاف للسبح في خضم زاخر، دون أن يملك الباحث ساعدين قويين يجتاز بهما غمار الموج في جيشانه الهادر؟ إنه ألقى بنفسه في البحر الهائج دون دراية فابتلعته الأمواج! ولا يظن الأخ المحقق أنني أتحيفه بالباطل، ولعلي لو رجعت إلى ما نشره من التحقيقات الأخرى في الكتب الثمانية.. فقد أجدها لا تخرج عن هذا الخبط الحائر، وإذا أراد أن أتعقبه في كل كتاب، فهذا مما يسهل، ولكني هنا لا أعمد إلى الإساءة لأكشف كل مستور، ولكني أدق الجرس لأنبه الغافل كي يستيقظ، وليس عليّ جناح أن أرفع صوتي بملء فمي مردداً قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

* * *

مراثي حافظ إبراهيم في مرآة النقد المعاصر (*)

الحديث عن حافظ إبراهيم وأحمد شوقي من الكثرة بحيث تتعذر الإحاطة به؛ وهذا مصدر الحيرة أحياناً، لأن بعض ما يقال في هذا النطاق من التناقض والاختلاف؛ بحيث يترك الباحث في خضم من الأفكار، ولا يرسو على الشاطئ إلا بعد جهد جاهد.. وفصل المقال بين شاعرية شوقي وشاعرية حافظ كاد يحسمه الأستاذ أحمد حسن الزيات، في مقال جيّد نشره قديماً عن الشاعرين الكبيرين ؛ واعاد نشره في كتابه " في أصول الأدب «ص 179»، من الطبعة الثالثة، حيث قال من خلال عنوان – العبقرية والقريحة أو شوقي وحافظ –: «شوقي شاعر العبقرية؛ وحافظ شاعر القريحة ، والقريحة ملكة يمتلك بها صاحبها الإبانة والأناقة والسهولة والطبعية والدقة.. أما العبقرية فضرب

(*) نشر هذا البحث في ملحق الأربعاء بتاريخ 2 صفر 1430هـ الموافق 28 يناير 22009.

من الإلهام؛ يستمر استمراراً تجديدياً، فتتلازم أحياناً وتنفك أحياناً.. ومن أخص صفاتها الأصالة والإبداع والخلق.. فالرجل العبقري إذاً يعلو ويسفل تبعاً لقيام العبقرية به، أو انعكاسها عنه؛ وهو يخشب الشعر غالباً ، فيرسله من فيض الخاطر كما يجيء دون تنقيح له؛ ولا تأنق فيه، وهو في عظام الأمور سياق، وفي محاضرها متخلّف؛ لأن الجليل الرفيع يوقظ خاطره ويحفز طبعه.. والقريحة كما نرى توجد الصورة؛ والعبقرية توجد المخلوق، ذو القريحة يقول ما يقول الناس، ولكنه يصوّره بقوة ويؤديه دقة؛ وينسقه بذوق ، ويهذبه بفن؛ وذو العبقرية على نقيضه ينظر ويُشعر ويقدر على طريقته الخاصة، فإذا وضع خطة أو رسم صورة أخرجها على طراز فذ»..

إن مقال الأستاذ الزيات صريح في تفضيل منحى شوقي؛ وهو ما أجمع عليه الكثيرون من النقاد؛ ولكن شوقي قد ابتلي بنفر من كبار النقاد، منهم الدكتور طه حسين والأستاذان الكبيران العقاد والمازني؛ يخصونه بالنقد الجارح، وقد يدفعهم ذلك إلى تفضيل حافظ: وليس هذا بحق؛ ذلك أن الواقع المشهود ينطق بتفوق شوقي.. ولقد لجأ بعضهم؛ وأخص منهم الدكتور طه

حسين بعرض الأغراض الشعرية لدى الشاعرين، ثم حكم لحافظ بأنه في الرثاء أجود من شوقي، وقد كتب ذلك في مقالات عدة، نشرها في كتابه «حافظ وشوقي».. وفي بعضها قال: «أما أنا فلا أستطيع أن أقول إن أحد الشاعرين خير من صاحبه على الإطلاق، ولكن شوقي لم يبلغ مبلغ حافظ من الرثاء، ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله».. ثم يفرد بحثاً ضافياً عن الرثاء في شعر حافظ، يعلن فيه انفراد حافظ بالتفوق في الرثاء، فيقول: «من شعرائنا في هذه الأيام من يرثون فيحسنون الرثاء؛ ويجيدون في وصف الفقيد الراحل وتعديد خلاله ومآثره، ويتفننون في وصف الحزن عليه والأسى لفراقه؛ والحكم البالغة، ويجمعون من هذا كله ما يحسن وقعه في القلوب؛ وما يلذّ الأسماع والعقول معاً، ولكنهم لا يثرون على ذلك كله ما في النفوس من عواطف الحزن الكامنة؛ ولا يذرفون من العيون هذه الدموع الغزيرة كما يفعل حافظ، لأن أكثر هؤلاء يرثون، ولكن من غير حزن، صادق، ويندبون لكن من غير لوعة محرقة.. أما حافظ فكان يرثي لأنه يحزن، وكان يحزن لأنه يحب، وكان يحب لأن الله قد وهبه نفساً راضية مؤثرة؛ لم يبرأ من شيء قط كما برئت من الأثرة ؛ وكما برئت من الضغينة والحقد».. ثم

استشهد الدكتور بروائع لحافظ قالها في مراثي الأستاذ الإمام محمد عبده والزعيم مصطفى كامل، وقاسم أمين؛ ليدل على تفوق حافظ في الرثاء على شعراء عصره، ومنهم شوقي.. ولكن هل هذا هو الواقع؟ إن ما قاله حافظ في الرثاء، وما قاله شوقي في هذا المعرض ينتهي إلى تقرير ما أكده الأستاذ الزيات، من أن شوقي شاعر العبقرية، وشوقي شاعر القريحة!

وكان الأستاذ أحمد أمين أكثر إنصافاً من الدكتور طه حسين؛ حين جعل الرثاء من أهم أغراض الشعر عند حافظ ولكنه لم يميزه عن غيره كما فعل الدكتور طه حسين؛ بل قال في حيدة وإنصاف ، ففي ص – 32 – من مقدمته لديوان حافظ: «إنه أجاد في الرثاء كل الإجادة وأحسن كل الإحسان، وسبب ذلك أنه استطاع في كثير من الأحيان أن ينقل الرثاء من مسألة فردية إلى مسألة اجتماعية ، فموت الأستاذ الشيخ محمد عبده نكبة على مصر وعلى العالم الإسلامي، وموت مصطفى كامل كارثة على مصر وعلى الوطنية الحقة، فهو يتسلل في حذق ومهارة بعد تصوير الفقيد صورة كاملة إلى المسائل الاجتماعية العامة، وبذلك يجلس حافظ على عرشه.. وشيء آخر هو أن الموت كان عند

حافظ وسيلة من وسائل شكوى الزمان والحنق عليه؛ والغيظ منه، فالزمان قد فعل بحافظ الأفاعيل؛ ورماه بالبأس والفقر؛ ورمى أمته بالتفرق والتواكل والاحتلال، ورمى العالم الإسلامي بالغرب يمتص دمه، ويسومه سوء العذاب، فما هو إلا أن يموت ميّت من أصدقائه حتى ينغر جرحه ويتفجر ألمه، وثالثاً أنه رحمه الله كان شديد الخوف من الموت؛ دعاه ذلك إلى أن ينعي نفسه ويتألم كثيراً لشيخوخته، ويتوهم المرض في كل عضو من أعضائه، فإذا مات قرين له أو صديق أو نديم، راعه ذلك لأن موته إنذار بموت حافظ، وما أشد وقع ذلك على نفسه».

ولا ننتظر من النقاد على اختلاف نظراتهم الفكرية أن يجمعوا على رأي واحد في مرثيات حافظ إبراهيم، بل لا ننتظر من ناقد واحد أن يستمر على رأيه في فكرته النقدية؛ لأن التطور الفكري يبيح لصاحبه أن ينتقل من رأي إلى رأي وفق ما يرسو عليه تفكيره من اتجاه؛ إذ من مزالق النقد في مجال الموازنة بين شوقي وحافظ أن يعمد ناقد إلى قصيدة جيدة لأحدهما فيقارنها بقصيدة هابطة للآخر، بدعوى أن القصيدتين قيلتا في موضوع واحد.. وقد غفل الكاتب عن شيء هام؛ هو أن شعور أحد

الشاعرين قد يكون قوياً تجاه المرثي لعلاقة شخصية أو تقدير أدبي خاص، على حين يكون الشاعر الآخر قد قام بواجب رسمي، إذ يدعى لإعداد قصيدة الرثاء، لتقال في حفل عام، وأن من واجبه الأدبي أن يكون في طليعة رجال المناسبة، فقال ما قال سداً للفراغ، ومن هنا تشل كفة الموازنة إذا حصرت النطاق في ظلال هاتين القصيدتين وحدهما.. وأضرب المثل لذلك بقصيدتي شوقي وحافظ في رثاء المنفلوطي؛ فقد حاز شوقي على الإبداع في رثاء الكاتب الكبير؛ أما حافظ فاكتفى بخطرات عامة تختلج في قلب كل إنسان يعرف المنفلوطي من خلال الإبداع الأدبي؛ وهنا كان شوقي متسابقاً في ساحته.. ونحن نعلم أن المنفلوطي رحمه الله قد انتقل إلى جوار ربه يوم اعتدى بعض الآثمين على زعيم الأمة سعد زغلول بقذيفة نارية، فهاج الشعب المصري هياجاً صارخاً لهذه الجريمة النكراء.. وانتشرت المظاهرات استنكاراً لهذه الجريمة حتى ملأت عواصم المديريات؛ وجاء شوقي معبراً عن ذلك حين قال في افتتاح مرثية للمنفلوطي:

اخترت يوم الهول يوم وداع ... ونعاك في عصف الرياح الناعي

هتف النعاة ضحى فاوصد دونهم ... جرح الرئيس منافذ الأسماع

من مات في فزع القيامة لم يجد قدماً تشيِّع أو حفاوة ساعي
ما ضر لو وقفت ركابك ساعة كيف الوقوف إذا أهاب الداعي
خلِّ الجنائز عنك، لا تحفل بها ليس الغرور لميِّت بمتاع

فإذا قارنا هذا المطلع المتميز بقول حافظ إبراهيم:

رحم الله صاحب النظرات غاب عنا في أحرج الأوقات
متّ والناس عن مصابك في شغـ ـل بجرح الرئيس حامي الحمات
شغلوا عن أديبهم بتجهم فلم يسمعوا نداء النعاة

وأنا واجدون الفكرة واحدة؛ ولكن الأسلوب الشعري يرقى بشوقي إلى الأوج؛ على حين نجد أسلوب حافظ يمثل ما يجول في خاطر الكثيرين، دون أن تكون للشاعر ريشة مصورة تتحدث عن عصف الرياح، وفزع القيامة، وصمم الأسماع، وحالات المظاهر الكاذبة في حفلات التشييع الرسمي... فإذا تركت المطلع إلى ما بعده فإننا نجد للشاعرين جوهما المختلفين، حتى يكون اختيار القصيدتين وحدهما مجالاً لتقدير شاعرية الرجلين ظلماً فادحاً، والأجدر أن نختار قصيدتين جيدتين للشاعرين لتكونا موضع الموازنة، وهذا ما فعله الأديب الكبير محمد خلف الله في رثاء إسماعيل صبري موازنة بقصيدة شوقي في الموضوع نفسه،

فتحدث عنهما حديثاً واعياً يكشف الاتجاه الشعري لدى الشاعرين كشفاً يعتمد على الحقائق الناطقة في النصين الأدبيين المتوازنين، وقد بدأ شوقي بالحكمة، في رثاء إسماعيل صبري ممزوجة بالشعور الأخوي ابتداءً، تجلى في قوله:

أجلٌ وإن طال الزمان موافي — أخلى يديك من الخليل الوافي
داع إلى حق أهاب بخاشع — لبس النذير على هدى وعفاف
ذهب الشباب فلم يكن رزئي به — دون المصاب بصفوة الألاّف
ما أنت يا دنيا؟ أرؤيا نائم — أم ليل عرس أم بساط سلاف؟
نعماؤك الريحان، إلا أنه — مسّت حواشيه نقيع زعاف

وأنتقل من العام إلى الخاص في قوله:

ذهب الذبيح السمح مثل سميّه — طهر المكفّن، طيب الألفاف
كم بات يذبح صدره لشكاته — أتراه يحسبها من الأضياف
نزلت على سحر السماح ونحره — وتقلبت في أكرم الأكناف
ما كان أقسى قلبها من علة — علقت بأرحم حبّة وشغاف

ومن أجمل ما اتجه إليه شوقي، هو الموازنة بين حياة النعيم التي عاشها صبري في الدنيا، ثم المثوى الأخير في ظلام القبور؛ وهي موازنة تستدرُّ الدمع الساخن من الآماق؛ حين يقول:

قاضي القضاة جرت عليه قضيّة — للموت، ليس لها من استئناف
ومُنادم الأملاك تحت قبابهم — أمسى يناديه نناب فيافي
في منزل دارت على الصيد العلا — فيه الرحى ومشت على الأرداف
وأزيل من حسن الوجوه وعزها — ما كان يُعبد من وراء سجاف

ولا أرى أروع من صنع البلى في الإنسان كما صوره شوقي في هذه الأبيات؛ وأبيات مثلها تجاوزت عنها تخلصاً من الإطالة.. ومضى شوقي في ذكرياته مع صاحبه بما لا يصدر إلا من مثله؛ وكان حزين الرنة، عميق الشجي، حين قال في وصف «النعش»، وهو الآلة الحدباء:

يا راكب الحدباء، خل زمامها — ليس السبيل على الدليل بخافي

أجل؛ أجل، ليس السبيل على الدليل بخاف، على هذه الآلة السائرة إلى المصير المحتوم:

لا في الجياد، ولا النياق، وإنما — خلقت بغير حوافر وخفاف
تنتاب بالركبان منزلة الهدى — وتؤم دار الحق والإنصاف

هذا شوقي؛ أما حافظ، فقد قال كذلك في رثاء إسماعيل صبري - والقصيدة من عيون الشعر -؛ كما أن قصيدة شوقي من عيون شعره؛ وقد بدأها بقوله:

نعاك النُّعاة وحُم القدر ... ولم يغن عنا وعنك الحذر

فأمسيت تذكر في الغابرين ... وإن قلّ مثلك فيمن غبر

أهنّي الثرى أم أعز الورى ... لقد فاز هذا وهذا خسر

أأول يوم لعهد الربيع ... تجف الرياض ويذوي الزهر

يقول فيرخص در النحور ... ويُغلي جُمان بنات الفكر

إن هذا الشعر سلس جميل؛ وهو من أقوى ما قال حافظ في القصيدة، وكان ناقداً بارعاً حين قال عن صبري:

يسوق القصار فيأبى العثار ... وكم من مطيل ممل عثر

قصار وحسب النهى أنها ... لها معجزات قصار السور

فقد عرف بمقطوعاته التي لا تتجاوز الأبيات الستة ، وهو بذلك لا يُعد من الفحول؛ ولكن حافظ اعتذر له بأنه يأبى العثار؛ وهو اعتذار أخوي لا ينهض في مجال النقد.. ومن عيون قصيدة حافظ قوله عن شعر صبري:

وشعرك كالماء في صفوه ... على صفحتيه تراءى الصور

عيون القصائد مثل العيون ... وشعرك فيهن مثل الحَوَر

وفي مجال الموازنة المعتدلة، أذكر هذين النصين، فقد

اشتملا على فكرة واحدة، هي أن شوقي وحافظ معاً قد تتلمذا على فكر صبري؛ وأنهما كانا ينهجان نهجه، فشوقي عبر عن ذلك بقول:

ايام أمرح في غبارك ناشئاً نهج المهاري على غبار (حصاف)
اتعلم الغايات كيف ترام في مضمار فضل أو مجال

و«خصاف» مهر مشهور، كانت العرب تجري المهار خلفه لتتعلم من سبقه.. أما حافظ، فقد ترك الخيال إلى الحقيقة حيث قال:

وقد كنت أغشاه في داره وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعري على سمع لطيف يحس نبو الوتر
فيصقل لفظي صقل الجمان ويكسوه رقة أهل الحضر
كذلك كان عليه السلام إماماً لكل أديب شعر

ومضى حافظ على هذا المنهج السلس؛ الذي تقرأ فيه الفكرة العذبة، والأسلوب الرقيق؛ ولكنك لا ترى الوثبة الفكرية التي تتجلى في مثل قول شوقي:

يا راكب الحدباء، خل زمامها ليس السبيل على الدليل

ومن أجمل ما قال حافظ:

خضم الحياة بعيد النجا ة فطوبى لراكبه إن عبر

ولابد للقارئ الكريم أن يرجع للقصيدتين في الديوانين الكبيرين، إذا فاتني من روائع القول فلم أجد سعة في سرده.. وقد يكون فيما تركت ما هو أروع مما ذكرت؛ والأذواق تختلف بين شخص وآخر؛ بل قد تختلف لدى الشخص الواحد بمرور الزمن؛ وكم رجعنا إلى نص أدبي كنا ننكره من قبل ؛ فرأيناه في صورة لم تكن له من قبل.

ولعلي بعد هذا التمهيد أرجع إلى حصيلة النقد؛ في المقال النقدي الرائع الذي كتبه الأستاذ محمد خلف الله، موازناً بين القصيدتين؛ فقد تكلم عنهما كلاماً صادقاً دقيقاً، دون أن يستشهد بالشعر منهما ؛ وهو ما دعاني إلى الاستشهاد بالشعر ، ليكون نقد الأستاذ الكبير محمد خلف الله بارز الضوء قوي الشعاع ؛ فقد كتب مقالاً هادفاً نقدياً في مجلة «الكتاب»، بالعدد الصادر في شهر أكتوبر، سنة 1947، السنة الثانية ، وهو خاص بذكرى شوقي وحافظ، بعنوان «أضواء»، قال فيه: «أول ما يطالعك من مراثي حافظ، أنها رثاء بالمعنى الإنساني البسيط؛ حزن على

المرثي، يختلف قوة وضعفاً حسب صلة الشاعر به في حياته؛ وحسب أثر الفقيد في الوطنية والإصلاح أو غيرهما من الشؤون العامة؛ وتركيز على جوانب حياة المرثي وخلاله وفضائله وأعماله، وبكاء من الشاعر لنفسه، ولذكرياته وأحبابه الراحلين ؛ وشجاً يتجدد كلما خطف الموت خليلاً أو زعيماً أو وطنياً صالحاً؛ وأقوى ما يكون هذا الطابع حين يرثي الشاعر عظيماً دينياً أو سياسياً اتصل به أو تتلمذ عليه، أو اغترف من بره وعطفه.. فإذا رثى الشيخ محمد عبده مثلاً عرض عليك الإمام في روائع آثاره ومواقفه، وصور لك فجيعة العلم والدين والبر والتقوى فيه، وأسى على منزل الإمام في عين شمس، ذلك المنزل الذي أظل حافظاً، وأرغم حساده، وكان مثابة أرزاق، ومهبط حكمة، ومطلع أنوار، وكنز عظات».. إلى أن قال ببعض التصرف: ومما يتصل بهذه الناحية في رثاء حافظ إرساله نفسه على سجيتها في الحزن وتصويره هول الفاجعة، واستثارته الجوانب المؤثرة في الموقف... وهكذا تغمرك مراثي حافظ في جو من الحزن الشامل الصادق، والصلات الشخصية بين الناس، وما كان لهم في حياتهم من شؤون».. هذا عن حافظ، أما عن شوقي فقد قال الناقد الكبير: «أما مراثي شوقي فهي فيض من خاطر الشاعر الفيلسوف الذي

أطل من برجه على الدنيا، فرأى مطيتها الحدباء تسير بالذاهبين إلى دار الحق، وترسلهم إلى مضاجعهم في التراب حيث يستوي الكبير والصغير والأمير والحقير.. وهي إلى جانب ذلك من وحي المعلم الاجتماعي الذي يدعو إلى إصلاح خلقي أو ينقد ظاهرة سياسية، أو يؤيد منزعاً من منازع الأدب، أو يصور أحداثاً حاضرة في الحكم والاجتماع، فالمرثي في قصيدة شوقي كثيراً ما يكون وسيلة لا غاية، والجوانب البارزة في حياة ذلك المرثي كثيراً ما تكون مجرد عناصر يبني عليها شوقي ما شاءت براعته من تصوير للحياة واستلهام للتاريخ».. ثم يقول الناقد بعد كلام جيد في هذا النطاق: «وليس للبكاء ولا استثارة الحزن مكان في مراثي شوقي، بل ربما ذهب مع هذه النزعة إلى غايتها، تاركاً الحزن والأسى حتى في أعز الناس عليه ، فهو لا تذهب نفسه أسىً على الراحلين، ولا يستعيد بالفاجعة الجديدة فاجعة حديثة كما يفعل حافظ... وشوقي لا يتحدث عن نفسه في معرض الشجا والرجاء، ولا يندب حظاً بائساً أو شباباً زائلاً، وهو إذا تحدث فإنما يتحدث نافياً عن نفسه تهمة الزلفى إلى عظيم، أو معرّضاً بناقد يثير الغبار حول مسلك الشاعر في الرثاء والمديح».

وبعد هذا الاستعراض؛ فإني أقف عند رأيين متناقضين حول قصيدة رثاء قالها حافظ في رجل كبير كان صاحب فضل كبير عليه في الحياة؛ إذ نزعه من حياة البطالة إلى الوظيفة المريحة في دار الكتب في مكان قيادي تتطلع إليه الأنظار؛ كما قرر بعض مؤلفات الشاعر في مكتبات وزارة المعارف، ونال منه الشاعر مبلغاً كبيراً يحسد عليه؛ ثم أخذ من بعض مؤلفات الشاعر لقاء ثمن كبير، وظل الشاعر يحظى بعطفه حتى فارق الوزارة، وبقي حافظ ينعم بحياته المادية في حال لم ينلها زملاؤه الكبار من أمثال الشعراء خيل مطران وأحمد محرم وأحمد الكاشف.. هذا الرجل الكبير هو معالي أحمد حشمت باشا؛ وقد لاقت قصيدة حافظ في الوزير الجواد إعجاباً كببراً من الدكتور زكي مبارك؛ فكتب عنها مقالاً جيداً ، قال فيه: «ولنذكر أولاً أن الشاعر لم يجد بهذه القصيدة إلا وهو موجع حزين، وهو في هذا الحزن يشعر القارئ أنه صادق اللوعة، مفجوع الفؤاد، ويندر أن تجد نفساً تصدق صدق حافظ في بكاء الذاهبين من الأصدقاء إلى عالم البقاء، فالشاعر يقول في المطلع:

حبس اللسان واطلق الدمعا ناع اهم بنعيك السمعا

ثم يقول بعد أبيات:

لك منّة قد طوّقت عنقي ... ما إن أريد لطوقها نزعاً
مات الإمام وكان لي كنفاً ... ومضيت أنت وكنت لي درعاً
فيشمت الحساد في رجل ... امست مناه واصبحت صرعى
ولتحمل الأيام حملتها ... غاض المعين واجدب المرعى

وبعد أن عرض زكي مبارك لبعض ما قاله الشاعر من مآثر الراحل، وقيامه بوزارة عارف، وحبه للغة العربية ، استشهد بقول حافظ ساكباً آلامه ومجابهة الحياة له بعد فقد النصير:

قد ضقت ذرعاً بالحياة ومن ... يفقد أحبته يضق ذرعا
وغدوت في بلد تلفني ... فيه الشرور ولا ارى دفعا
كم من صديق لي يحاسنني ... وكأن تحت ثيابه أفعى
يسعى فيخفي لين ملمه ... عني مسارب حية تسعى
كم حاولت هدّي معاولهم ... وأبى الإله فؤادي رفعا
اصبحت فرداً لا يناصرني ... غير البيان واصبحوا جمعا
ومناهمو ان يحطموا بيدي ... قلما اثار عليهم النقْعا
ولرب حر عابه فقر ... لا يصلحون لنعله شسعا

وحديث زكي مبارك عن هذه القصيدة؛ نشر في كتاب

«حافظ إبراهيم»، الذي بعثته السيدة كريمة زكي مبارك، ونشرته المكتبة الثقافية سنة 1978.. وإذا كان زكي مبارك قد قابل رثاء مدحت باشا بالتقريظ؛ فإن ناقداً آخر هو الأستاذ محمود مصطفى قد قابله بالنقد العاصف؛ فكتب عدة صفحات تهجمية((ابدأها بتعداد فضل أحمد حشمت على حافظ ؛ وأفاض في ذلك بما هو معروف لا ينكره أحد، ثم اتجه إلى القول بأن حافظ إبراهيم يخيّل إليه وسواسه أن له أعداء يكيدون له ويدسون عليه ويتربصون به الدوائر، وأن شوقي يريد أن يقطع عيشه ويؤجر الكتاب ليسبوه.. وتلك مقدمة لا داعي لها؛ إذ هي لا تتمشى مع الحقيقة في شيء؛ وقد بدأ بقوله إن مطلع قصيدة حافظ:

حبس اللسان وأطلق الدمعا ناع أهم بنعيك السمعا

مسروق من قول أبي تمام: «أهم بك الناعي وإن كاد أسمعا»؛ ثم يجيء بعده قول حافظ:

كم منّة قد طوقت عنقي ما إن أريق لطوقها نزعا

وهو في رأي الناقد قول ليس فيه من جليل المعنى ما يجعله أهلاً لأن يلي المطلع ؛ ولو أن حافظاً يريد إعلاءً لقدر المرثي لجعل

هذه المن له على مصر أو القضاء أو التعليم، أما حافظ فالناقد نفسه يستطيع أن يكون ذا منّة عليه.. وهذا نقد متهافت، لأن الشاعر يريد أن يعترف بفضل الرجل عليه؛ فأي شيء في ذلك؟ ثم يقول الناقد في قول حافظ:

فليشمت الحساد في رجل   امست مناه واصبحت مرعى

لقد كان يكفي أن يقول: «أمست أو أصبحت، أما التكرار فلا داعي له، لأن أمسي وأصبحت هنا بمعنى صارت».. ولعلي أقول: إن قول حافظ «أصبحت فرداً لا يناصرني غير البيان وأصبحوا جمعاً».. فقد تهكم به الناقد، وقال: لم نكن نظن أن مثل الأديب يحتاج إلى ما يحتاجه شيخ القبيلة إلى العصبية والولاء والجاه ؛ ليوقع الرعب عند الأهالي فيظلمهم.. وقول حافظ:

قد ضقت ذرعاً بالحياة ومن   يفقد احبته يضق ذرعاً

يفيد في رأي الناقد أنه أراد أن يوهم الناس أنه ظل مقيماً على الوفاء لحشمت باشا ، متردداً عليه في شيخوخته ، فحين فقده فقد الجاه.. والحق أنه كان في شغل عنه إلى غيره ممن يرجو نفعهم ".. ولا أطيل في ذكر باقي النقدات ؛ ولكني أتعرض لما قال الأستاذ محمود مصطفى ، لأقرر أن الأذواق تختلف إلى

حد التناقض ؛ وهذا شيء سائر في الحقل الأدبي.. وبعد : فهل جئت بجديد في هذا البحث ، أو أنني أكدت ما قيل من قبل ؛ لأفتح باب الموازنة الأدبية بين الشعراء من جديد؟!

* * *

على هامش الإلياذة الإسلامية(*)

قول على هامش الإلياذة الإسلامية، لأن الحديث عن الإلياذة في صميمها يحتاج إلى وقوف قد يطول يُظهر روائع الفن الخالد في أبياتها.. أما حديث الهامش فشجون تتلاقى وتتقلب حول هذه الملحمة الرقيقة.. والحق أن الإلياذة قد ظُلمت مرتين، مرة في حياة ناظمها الكبير الأستاذ أحمد محرّم، إذ قرع الأبواب مثنى وثلاث ورباع، رجاء أن تجد من يتكرم بنشرها، فلم يجد مستمعاً في وقت كانت فيه دواوين الشعر الهابطة ترى الرواج الزائد عند الناشر والقارئ، أما الظلم الثاني فهو السكوت الأليم عن تعداد مآثرها الفنية بعد أن أذن الله ووفق بعض المخلصين إلى طباعتها، وأصبحت متداولة بين القراء، وأنا أتساءل عن هذا السكوت ما مبعثه؟ وما مرماه؟ إن الشاعر الكبير أحمد محرم كاد من الذيوع والجهارة في عصره بحيث يُقرن بشوقي وحافظ

(*) نشر هذا البحث في ملحق الأربعاء بتاريخ 3/28، 1430/4/5هـ.

ومطران، بل إنه يمتاز عنهم جميعاً بقصائده الإسلامية التي تتكرر كل عام في مواسم الهجرة والإسراء وذكرى بدر وفتح مكة: وغير ذلك من المناسبات الإسلامية.. ولكل قصيدة طريقتها الجديدة في تناوله الأحداث وتصوير المعاني دون تكرار يُحسه القارئ، ولعل القارئ يود أن يعلم بعض ما يجب أن يقال عن هذه الملحمة، فقد يُسارع إلى مطالعتها إن لم يكن قد حظي بها من قبل.. وأبدأ عن الدافع إلى نظمها وكيف قدر للشاعر الكبير أن يعد الناس بتأليفها، وأقول:

في منتصف الثلاثينات من القرن الماضي احتفلت إيران احتفالاً رائعاً بذكرى الفردوسي شاعر الشاهنامة، وهي ملحمة طويلة تذكر مجد الفرس في عصورهم السعيدة، وتتحدث عن الكسرويين وحروبهم بما يرفع قيمة الأجداد في نظر الأحفاد، وقد ترجمت الشاهنامة إلى العربية والأردية وشاع حديثها بين الأفراد..

ولكن شاعراً هندياً هو الأستاذ «حفيظ»، قد هاله أن يحتفل الفرس بتاريخ قديم لا يوجد من شعراء الإسلام من يحتفل بتاريخ محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أقوى تأثيراً، وأشد أثراً من تواريخ الفارسية القديمة، فأعلن أنه سينظم بالأردية ملحمة

إسلامية تسجل روائع الدعوة الإسلامية في عهد الرسول، وقد سجل إعلانه في مجلة الضياء، ونشرت مجلة الفتح المصرية ما اعتزم عليه الشاعر الكبير "حفيظ"، وقرأ الشاعر محمر محرم ما كان من أمر زميله الشاعر الهندي، ثم جاءته خطابات تدعو إلى أن يبدأ بنشر إليانذة إسلامية العربي، فهو الشاعر المرجّى في هذا الشأن بعد رحيل شوقي.. وصادفت هذه الخطابات صدى جميلاً في نفس الشاعر الكبير أحمد محرم، فسارع بإعلان عزيمته المهيئة لتحقيق هذا الرجاء، وظهرت مجلة الفتح تعلن استجابة محرم، إذ نشرت قصيدة له، قال فيها:

صوت تردد في الآفاق يهتف بي ... لأسري هاتف إن لم يجب أدبي
اجل هو الخطب إن امسى اوائلنا ... في الهالكين، وهم منا على كثب

إلى أن قال:

قال الوشاة وفى للفرس شاعرهم ... ما وفى شاعر الإسلام العرب
مهلاً فإني لقومي إن التمسوا ... مستودع الود من نفسي لذو حدب
اكبر للشاعر الهندي غضبته ... للحق ينصفه من خصمه الشغب
حلو «الضياء» حسان الهنود ولي ... حق له إن قضاه أجر محتسب
تلك التحية ازجيها على يده ... إليه اعتدها من افضل القرب

للشاعر الفارسيّ العذر إن نزعت — به النوازع تغشى موطن الكذب
أثني على قومه يبغي له شرفاً — يرجو عمارته بالمنطق الخرب
ما كنت باللائمين الباني لأمته — فليبن من شاء، ليس النوم كالدأب

ومنذ ذلك الحين، قد خلص أحمد محرم للإلياذة الإسلامية، وخلصت له، فأخذ ينظم روائع السيرة النبوية في قصائد رنانة.. وإذا كان الفردوسي قد نظم الشاهنامة في ثلاثين عاماً، فإن الشاعر أحمد محرم قد نظم الإلياذة في أقل من خمسة أعوام، وهذا يدل على أنه شغل كل وقته في إبداع هذه الملحمة الخالدة، وانتهى منها تقدم بها على أمل كبير لوزارة المعارف تارة ولمجمع اللغة العربية تارة أخرى، وللأزهر الشريف مرة ثالثة كي يجد من يعينه على نشر الباقي، مع أنه أذاع في الصحف الأدبية كالرسالة والأزهر والفتح قصائد مما نظم، فأعطى القارئ صورة صادقة لهذا الإبداع الإسلامي الخالص، ومع هذا كله، فقد صمّت الآذان عن تلبية رجاء الشاعر، وما هو بالمنكور في أدبه، وليس المجهول في إبداعه، وقد مات وهو يحمل ألماً دفيناً لما لقيته الإلياذة من إهمال، حتى احتفلت محافظة البحيرة بعد قرابة عشرين عاماً من رحيله بذكراه، باعتباره أكبر

شاعر في إقليم البحيرة.. وهنا ظهر من يدعو إلى نشر الإلياذة، وألقيت كلمات شتى في الاحتفال تدعو إلى ذلك، فسارع محافظ البحيرة مشكوراً إلى تلبية هذا الرجاء، وظهرت الإلياذة في حجمها البارز، لتطالع الناس بهذا النتاج الإسلامي..

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فإن الإهمال الذي أصاب الإلياذة في حياة الشاعر الكبير هو نفسه الإهمال الذي أصابه في عيشه البائس طول عمره، فلم يجد مرتزقاً يكفل له من العيش ما يغنيه شر الفاقة، وكان كثير التعفف، فلم يمد يده إلى أحد، ولكنه اضطر إلى أن يصرخ في أعماقه يعلن شجونه، حين قال في قصيدته: «وجودي»:

ظمئت وفي فمي الأدب المصفى ... وضعت وفي يدي الكنز المثمن
لربي ما صنعت وعند قومي ... ديوني حين تلتمس الديون
أقول فيفزع الشعراء صوتي ... وما أنا في بني قومي ظنين
أمن أدبي تظل الطير تبكي ... فما أدبي أشدو أم أنين

مع أن كثيراً من نقاد الأدب الحديث حين يوازن بين الشعراء في مطلع القرن العشرين يجعل محرماً تالياً لشوقي، أي أنه قبل حافظ، وهذا حق لا مرية فيه، وقد طبعا ديوانا حافظ

ومحرم، وهما الوثيقتان اللتان تعطيان الحكم الدقيق! على أن الذي أعجب له كثيراً، هو موقف الدكتور محمد حسين هيكل وزير المعارف في عهد محرم من الإلياذة، إذ كان المظنون به وهو مؤلف حياة محمد، أن يرحب بنشر الإلياذة، وأن يُصدر أمره بطبعها، كما أصدر الأستاذ زكي العرابي باشا أمراً بطبع ديوان حافظ إبراهيم حين كان وزيراً للمعارف من قبله، لاسيما أن أحمد محرم كان من أنصار حزب الأحرار الدستوريين الذي ينتمي إليه، وله في رئيسه محمد محمود باشا قصائد ممتازة، كما أنه كان ينشر كثيراً من قصائده في جريدة السياسة التي يشرف عليها الدكتور هيكل.. ولعل هذا ما ترك في نفس محرم أثراً أليماً إزاء هيكل، فقد نشر الأستاذ حسنين محمود حسنين من أدباء الإسكندرية بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين الشاعر محرم، يقول في إحداها، ص «14»: «لا أدري هل يقرأ الصديق هيكل باشا ما يكتب في قضيته «الإلياذة الإسلامية» أم هو مشغول بأعمال المنصب وشؤونه، ولكن أعلم أن ذلك العار «إهمال الإلياذة»، هو الذي جعلني أحتمل هذه المعاملة، فأصبر ثم أصبر لبقاء تلك الوديعة المهملة في وزارة المعارف من أوائل الصيف الماضي إلى اليوم، وقد قال الوزير الأديب غير مرة إن اللجنة

التي عهد إليها بأمر النظر في تلك الوديعة، لاتزال تبحث وتنظر، وليس لهذه القالة سوء أحد معنيين، فإما أن يكون في كتابي من الطلاسم والمعميات ما تحار فيه العقول وتعجز عن حلّه الألباب، وإما أن تكون اللجنة التي يعينها الوزير ويعتمد عليها في مثل هذا الشأن في حاجة قصوى وفقر شديد إلى هذه العقول والألباب.. ومن شأن الروح الذي حفزني إلى التغني بأمجاد العروبة والإسلام في الإلياذة الإسلامية أن يحفزني في كل وقت إلى تحطيم هذه الأصنام التي تقدم في جاهلية هذا العصر لتطفئ نور الله في الأرض وترك معاقل الإسلام»..

إنها لصرخة مدوّية حقاً.. وقد كان على الدكتور هيكل أن يقف من الشاعر الكبير غير هذا الموقف، وليس في الأمر جاهلية كما ذكر محرم، ولكنه الترفع والاستعلاء، وعلى من؟ على أحمد محرم.. وننتهي إلى حديث الإلياذة فنقول:

إن الشاعر الكبير جمع بين صفتي الشاعر والمؤرخ، وكان الظن به أن يغلب روح الشاعر على روح المؤرخ، ليصل بقرائه إلى أعلى درجة من التأثير الوجداني، ولكن طبيعة الحقائق التاريخية الفذة في حياة الرسول الأعظم جعلته في بعض المواقف ينسى

روح الشاعر ليسبح في تنسيق الأحداث وفق طبعها التاريخي، فيظن القارئ حينئذ أنه يقرأ تاريخاً، وهو لم يقرأ الإلياذة إلا ليستشف معاني التاريخ من معدن الشعر الأصيل، وهذا ما وقع لأمير الشعراء أحمد شوقي حين نظم قصائده في كتابه «ممالك العرب والإسلام» حيث من ثم انتقل سريعاً إلى حرم التاريخ، وقد يكون الإعجاب بالبطولات الإسلامية مدعاة التغلغل في تتويج مواقعها التاريخية باعتبارها وحدها كافية لبعث الوهج العاطفي في نفس القارئ، ولكن الإلياذة في صميمها شعر قبل أن تكون تاريخاً، وقد بدأ الشاعر محرم الإلياذة وروح الشاعر متقمصة تقمصاً تاماً، فهي ترسل من إيحائها الساطع ما ينضح القارئ بالأريج الشعري، فهو يتحدث عن مطالع النور في مبدأ البعثة النبوية الكريمة، فيقول:

املأ الأرض يا محمد نوراً واغمر الناس حكمة والدهورا
حجبتك الغيوب سراً تجلى يكشف الحجب كلها والستورا
غب سيل الفساد في كل واد فتدفق عليه حتى يفورا
جئت ترمي عبابه بعباب راح يصوي سيوله والبحورا
زاخر يشمل البسيطة مداً ويعم السبع الطباق هديرا

كيف تجري جميل صنعك دنيا   كنت بعثاً لها، وكنت نشورا
ولدتك الكواكب الزهر فجراً   هاشمي السنا وصبحاً منيرا
يصدع الغيهب المجلل بالو   حي الملقّى، ويكشف الديجورا
خرّت العرب من مشارفها العليا   تــوالـــي هــويّـهــا والحـدورا

فهذه المقدمة الرائعة تصور النور المبين الذي أشرق من السماء سراً تجلى ليغمر الناس حكمة والدهور قصوراً، يحمل من الرقائق الشعرية ما يملأ النفس روعة، إذ يتصور القارئ الفساد وقد عبّ سهله في كل واد، فجاء الإسلام يرمي عبابه بعباب ينقذ العالم الغريق عباب زاخر يغطي البسيطة مداً، ويعم السبع الطباق هديراً.. أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد ولدته الكواكب الزهر فجراً هاشمي السنا وصبحاً منير يصدع الغياهب ويكشف الدياجير في منطق يرضي القادر عجزاً، ويرمي العبقري بالقصور..

ولعمري لو واصل الشاعر إبداعه في هذه الأعراق الشفافة الصافية لكانت إلياذته من أروع ما قيل في الأدب العربي، ولكنه وقع تحت تأثير كتاب «السّيرة النبوية لابن هشام»، فرأى أن يسير وراء الأحداث حدثاً حدثاً ليصور مواقفها.. وكان عليه وهو

شاعر ملهم، أن يتخيّر من الأحداث أروعها تأثيراً، وأقواها نفاذاً، فهول ليس أستاذ تاريخ، ولكنه شاعر يرسل نفثاته الشعرية ليرتفع بالقارئ إلى الأوج الفسيح.. إن الفردوسي قد تتبع قارئه ملاً لا ينكره الناقد، لأن الفردوسي ينقل عن الأساطير لا عن الحقائق، وفي الأساطير من الخيال ما يعوّض جمود الحقائق.. وما كان لمحرم أن يحذو حذو الفردوسي في سرد الأحداث دون أن يختار منها الرائع الطروب، وهي بحمد الله مليئة بكل رائع جذاب.. لقد كان الرجوع إلى سيرة ابن هشام واختيارها مصدراً للحقائق النبوية مما جعل هذه الحقائق في بعض الأحيان تتلى وكأنها نثر لا شعر؛ وهذا ما حدا بالدكتور شوقي ضيف أن ينقد الإلياذة في اتجاهها التاريخي المحض، وهو نقد ظالم، لأن الإلياذة لم تكن كلها من هذا الطراز، ففيها من نفحات الشاعرية ووهج العواطف ما يبعدها عن حياض النثر إلى سبحات الشعر الرفيع، بل إن القصيدة الأولى التي سبق الاستشهاد ببعض أبياتها قد تضمنت من روائع الإلهام ما ارتفع بها إلى مستوى الإبداع الفني الراجح، وللقارئ أن يطالع الشاعر عن مكة حين هم الرسول عليه السلام بالرحيل مهاجراً إلى المدينة المنورة:

يوم ضجت جبال مكة ذعـراً وتمـنت هـضابـها أن تمـورا
تــتـرى أسـمــاً وتمـسـكـهـا تمنعها من ورائه أن تسيرا
هي لولاك لارتمت لقذف الصخر وتـزجــي هـبـاءهـا المنثــورا
هاجها من جوى الفراق وحر الو جد، ما هـاج بيتك المأمورا
كـــاد يهـفـو فـزدته منـك رو حاً، فانثنى راجح الجلال وقورا

هكذا هو منظر مكة حين هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم، فأحست بروح اللوعة تأكل صدرها أسفاً لفراق نبيها الكريم، فهي تتنزى أساً، وهمت جبالها وهضابها أن تمور، ولولا مكانة الرسول لديها لارتمت تقذف الصخر، وترمي بالهباء العاصف فيملأ الجفون!

هذا هو منظر الرحيل، أما منظر الاستقبال بالمدينة، فإنه على النقيض من، هذا المنظر الجازع الهلوع، إذ أقبلت ديار المدينة مرحبة مشتاقة تحمل من الخواطر ما تحمل فرحاً بالوافد السعيد، والقوم قد عرفوا أن الرسول قادم في الطريق يتطلعون إلى الفجاج، وقد كان الانتظار، وهفت الأرواح إلى اللقاء! لقد كان محرم أكثر إبداعاً حين قال في وصف اللقاء الحميد مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم:

اقبل، فتلك ديار يثرب تقبل   يكفيك من أشواقها ما تحمل

حال التلوّم فالقلوب خوافق   يهفو إليك بها الحنين الأطول

القوم منها فارقت مكة أعين   تأبى الكرى، وجوانح تتململ

خفّ الرجال إليك، يهتف جمعهم   وقلوبهم مرفا أخف وأعجل

هي في ركابك، ما بها من حاجة   إلا إليك، وما لها متحوّل

هجرت منازلها بيثرب وانتحب   أخرى بمكة دورها ما تؤهل

وفدان، هذا من ورائك يرتمي   عجلا، وهذا من أمامك ينسل

لقد وفق الشاعر حين صوّر مكة وقد خلت دورها حزينة تدلف وراء الراحل أسية أسفة، وصوّر المدينة وقد هجرت منازلها وتقدمت لاستقبال الوافد الكريم:

وفدان هذا من ورائك يرتمي   عجلا، وهذا من أمامك ينسل

وكان محرم في القصائد الأولى من الإلياذة شاعراً أي شاعر، لأن اجتماع الإيمان في قلبه والشاعرية في روحه قد جعلا من شعره روحاً وريحاناً، ولو أنه لم يتقيد بالتسلسل التاريخي واكتفى بالأحداث البارزة وحدها، واطمأن إلى صياغة ما يمليه إيمانه الشاعر لأبدع كثيراً كثيراً، ولما وجد من يصف بعض القصائد بالنظم، مع أنها لا تقف عند حد النظم، ولنتأمل ما

جاء في قصيدة الاستقبال بالمدينة بعد الأبيات السابقة، لنستمع قول الشاعر عن ديار يثرب:

ما للديـار تهزهـا نشواتها؟ أهي الأناشيد الحسان ترقد
رقّت نظارتها، وطاب أريجها وترددت أنفاسـها تتسلسل
فكأنما في كل مغني روضة وكـأنما فـي كـل دار بلبـل
هن العذارى المؤمنات أقمنه عيداً تحيّيه الملائك من عل
في موكب لله أشـرق نوره فيه، وقام جلاله يتمثـل
يمشي به الروح الأمين مسلماً حبتين بفم النبي مقـبّل

وتتوالى الأبواب عن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وغزوة بدر الكبرى وشهدائها الأبطال، وعن أُحُد ومقتل حمزة إلى أن تنتهي الإلياذة بالوفود والسرايا، ويا له من تاريخ رائع يرتع في شعر قوي رصين..

وقد يكون من الأوفق أن نشير إلى نماذج لم يصلصل فيها الشعر صلصلته المعهود في أكثر صفحات الديوان، وهي النماذج التي غلب السرد على النسق الشعري غلبة لم تنزل بالشعر عن مستواه، إذ إن محرماً ظل عالي النبرة في كل ما نظم، ولكن شعراً أقوى من شعر، وتخليقاً أرفع من تحليق! فقد ألمّ الشاعر

بموقف عيينة بن حصن سيد بني غطفان حين همّ أن يستجيب لدعوة يهود خيبر ومناصرتهم على جيش المدينة الزاحف، على أن يأخذ ثمار خيبر، وقد هموا بالخروج فعلاً، ولكنهم سمعوا من ورائهم هوناً يجلجل كالرعد، فدبّ في نفوسهم الرعب فارتدوا على أدرابهم ناكصين.. وحين انتهت المعركة بانتصار المسلمين، حاول عيينة أن يظفر بشيء من غنائم رسول الله، فرجع يقول له: لقد امتنعت عن مناصرة اليهود لأجلك، فأين نصيبي من الغنيمة؟ فقال له الرسول كذبت لم ترجع إلا بعد أن سمعت دويّ الرعد، أو قال ما يشبه ذلك، فرجع عيينة خائباً.. وقد شرح محرم هذا الموقف المخزي لعيينة وقومه، فقال:

اما تدع العمامة يا ابن حصن	وتسلكها معبّدة سويه
أطعمتك اليهود فرحت تبغي	ثمار النخل، ويالك من بليّه
لبئس الأجر أجرك من أناس	يرون الحق منزلة دنيّه
اهبت بقومك انطلقوا ورائي	لتلك سرية تتلو سريه
وقلت أنترك الحلفاء نهداً	ونحن أولوا السيوف المشرفيّه
رويدك يا عيينة اي خطب	أصابك والحديث وما القضيه؟
وما الصوت المريد يا ابن حصن	وراءك في منازلك القصيه

رجعت بجندك المهزوم رعباً فمرحى، ما الهزيمة كالمنيّة
لو أنك جئت خيبر وهي ظمأى سقت من الردى كأساً رويّه

إن هذا شعر يصور موقف عيينة، ولكن روح المؤرخ أقوى من روح الشاعر، على أنه مع ذلك لم يفقد صياغته البيانية ولا موسيقاه الهادئة، فإذا لم يرق إلى الأوج المعهود، فإنه لم ينزل إلى السفح، وهيهات والشاعر محرم!

وأختم الحديث بما قاله الكاتب الكبير محب الدين الخطيب في مقدمة الإلياذة التي سماها ديوان مجد الإسلام بقوله: «إن ديوان مجد الإسلام أعظم ما ظهر للآن مجموعاً في كتاب واحد من ومضات هذه الأمجاد، وستتمتع به نفوس من محبي الأدب الرفيع أزماناً وأزماناً، إلى أن يوجد الشاعر الذي يكشف سر الله في اختيار العربية لغة تنزيله، والعربية بيئة لأكمل رسله».

إن ما كتبته عن الإلياذة ليس تحليلاً دقيقاً لها، ولكنه بمثابة دافع لجذب القراء إلى قراءتها ومعاودة قراءتها، فهي تاريخ مجد وعنوان أقوم رسالة سماوية خاتمة نزلت على خير وأكرم الخلق صلى الله عليه وسلم، وهذا الشعر نفحة من نفحات الرسول العظيم.

بين الرصافي والشبيبي(*)!

حين مات جميل صدقي الزهاوي في بغداد؛ في يوم الأحد أول مارس 1936 احتفلت بغداد حكومة وشعباً بتشجيع جنازته، ورأت أن تتقدم الجناة مركبة يجلس فيها الشاعران الكبيران معروف الرصافي ومحمد رضا الشبيبي؛ وهما أكبر شاعرين في العراق؛ ليعطيا معنى الوفاء الأدبي لزميليهما الراحل الكبير؛ كما ألقيت على القبر كلمات مؤثرة.. فذكر الدكتور عبدالوهاب عزام رحمه الله، وكان أستاذاً ببغداد حينئذ في كلماته «ستتلقى مصر والبلاد العربية نعي الزهاوي كما تلقى العراق والبلاد العربية نعي شوقي فتجاوبت بلاد العرب بالرثاء وتتبادل العزاء».

أريد بذلك أن أقول إن الرصافي والشبيبي كانا علمين بارزين في ميدان الشعر بالعراق، وقد كانا بعد الزهاوي أشهر

(*) ألقي هذا البحث في مركز حمد الجاسر الثقافي بتاريخ 18 محرم 1430هـ الموافق 15 يناير 2009م، ونشر بملحق الأربعاء بدءاً من تاريخ 21 صفر 1430هـ.

من أن يشار إليه بالبنان، ولكن الرصافي امتاز بدوي صاخب عن صاحبه؛ لأنه أثار أفكاراً جامحة أزعجت فريقاً من المحافظين فهبوا في وجهه لائمين؛ واتصل الدوي بعد حياته تأييداً لبعض مواقفه، وتفنيداً للبعض الآخر، حتى أصبح الرجل بما ألّف شعراً ونثراً، وبما ألف عنه بعد رحيله أشهر من أن نشير إلى ملخص ترجمته.. أما زميله العازف عن الدوي، فقد اشتهر في دوائر الخاصة لا العامة، لأن وقاره الديني ومركزه العلمي كانا عاملين على تواضع شهرته بالنسبة لصاحبه.. ثم أجنح إلى الأستاذ خير الدين الزركلي لأقرأ بعض ما قال عن الشبيبي في الجزء السادس من الأعلام: «محمد رضا الشبيبي أديب شاعر من أعضاء المجامع العلمية، في مصر ودمشق وبغداد.. ونسبته إلى شبيب بن صقر البطائحي من بني أسد.. ولد بالنجف سنة 1306هـ - 1889م؛ وبها نشأ وتعلم.. وبعد الحرب العالمية الأولى سافر إلى الحجاز حاجاً؛ ومر بدمشق فأقام بها إلى سنة 1920، وشارك في الثورة العراقية.. وبعد تأسيس المملكة في العراق؛ أقام ببغداد؛ وتولى وزارة المعارف مرات؛ أولها سنة 1924، وانتخب رئيساً لمجلس النواب، ثم رئيساً لمجلس الأعيان سنة 1937، وبعد ثورة 1958في العراق انقطع لرئاسة المجمع العلمي

الشبيبي؛ وأصول ألفاظ اللهجة العراقية؛ التربية في الإسلام؛ ومؤرخ العراق ابن القوطي جزءان منه؛ ورحلة في بادية السماوة؛ وتراثنا الفلسفي؛ وأدب المغاربة والأندلسيين؛ والمأنوس من لغة القاموس».. ومن هذه النبذة القصيرة نعرف قدر محمد رضا الشبيبي شاعراً وسياسياً وباحثاً ودارساً.. ولعل الذي لم يجعل صيته الشعري يمتد إلى بلاد العروبة جميعها، بالنسبة للزهاوي والرصافي؛ أنه كان مصلحاً دينياً رائداً؛ يلتزم المأثور من أصول العقيدة وقواعد الدين ويدافع عنهما في هدوء العالم وتواضع الحسيب النسيب.. أما صاحباه فلم يتركا مجالاً للدوي الصاخب إلا دخلاه؛ وقد بقيت آثار الرجال الكبار بين أيدي القراء، تنبئ عن معدن كل منهما ومكانته في محراب التاريخ.

وكانت المعارك النقدية في بغداد تدور حول شطحات الزهاوي والرصافي، والشبيبي بعيد عنهما؛ لا يرى أن يكتب عن رفيقيه بما يعتقد؛ وإن كانت مجالسه الأدبية في النجف تفصح عن رأيه ويتناقله الطلاب، دون أن يكتب أثراً بيده.. غير أن سكوت الشبيبي لم يطل، فقد أتيحت له فرصة واسعة للحديث عن الرصافي من خلال مقدمة نقدية شائقة كتبها لمؤلف أدبي هو

الدكتور بدوي أحمد طبانة، وكان أستاذاً للأدب العربي بدار المعلمين العليا ببغداد؛ وعرف من أخبار الرصافي وآثاره الأدبية ما دفعه إلى كتابة مؤلف متميز عنه؛ كان هو الأول في بابه، لأن المؤلفات النقدية عن الرصافي قد تتابعت بعده مقتفية أثره، وتلك محمدة للدكتور بدوي طبانة كانت ذات أثر في حياته الأدبية الحميدة.. ولقد رأى الأستاذ بدوي طبانة أن يتقدم بكتابه قبل الطبع للأستاذ الجليل محمد رضا الشبيبي كي يصدر رأيه فيه، وهي مناسبة أدبية أتاحت للشبيبي أن يتحدث عن الرصافي بإفاضة.. وقد قال عنه بعد مقدمة عن الحالة الأدبية بعامة في بغداد، مبتدئاً بتقرير رأي منصف دقيق يدل عن حيادية، لا كما زعم الزاعمون، من أنه جاوز الحيدة والإنصاف إلى الميل الخاص.. قال الشبيبي، في ص (5) من مقدمة الطبعة الثانية للكتاب:

«وهذا الشاعر الرصافي خليق بالدرس، وتجريد كتاب خاص به يتكفل بنقد شعره وأدبه والبحث عن حياته، بل لا يستكثر تجريد أكثر من كتاب واحد في سيرته وحياته؛ إذ هو في مقدمة أولئك الشعراء الماضين إحساساً بما عاناه الشرق

والشعوب العربية المستظلة براية الهلال من آلام، وما حاك في صدورها من آمال.. وقد أجاد في التعبير والتصوير؛ ناقلاً ما شهده جيله من المآسي إلى الأجيال القادمة؛ فلقد ولد وعاش في الفترة المذكورة، ولابس مجرياتها وأحداثها، إذ أدرك ثورة شباب الترك على الطغاة من سلاطين بني عثمان؟ بل كان له ضلع في دعوتهم إلى إذكاء تلك الثورة.. وقد اتصل بزمرة من القادة الذين حالفهم الظفر في قلب نظام الحكم البالي في بلاد الدولة".. وبعد إفاضة واسعة في تاريخ الرصافي السياسي في أثناء الحكم العثماني وبعده، متعرّضاً أيضاً إلى زميله الزهاوي؛ إذ شارك الرصافي في حملته على الاستعمار التركي، بدأ في نقده؛ ولكن في حذر شديد، بل في إنصاف عادل، يتجلى في قوله، في ص 8 وما بعدها: "غير أن الناظر في ديوانه يجد إلى جانب ذلك أقوالاً تدعو إلى الرفق في مقاضاته والتأني في مؤاخذته.. ومن هذه الأقوال ما يدل على الإيمان واليقين، وتنزيه الباري جل جلاله؛ فضلاً عن الإقرار بوحدانيته؛ وبين أيدينا وصية للرصافي هي آخر ما وجد مكتوباً بخطه قبيل وفاته؛ وقد شهد فيها أنه ميّت على دين الفطرة؛ فأي جدوى لنا في غمزه والطعن فيه من هذه الناحية"..

«أما الإسراف في المجون ومقارفة المعاصي فلهما في الشريعة حكم آخر لا يخفى؛ وليس من شأننا التطرق إلى هذه الجهة؛ ولم نكتب هذه الكلمة للخوض في هذا الموضوع.. وعلى هذا لنا أن نعد الرصافي ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، أو قل السيئة بالحسنة في أدبه، وقد رضي لنفسه تخطي الحدود، ولم يعرف ليناً وهوادة في نقده وسخريته وهجوه المقذع؛ فكان كالريح إذا هاجت عاتية نكباء، أتت على ما مرت به من رطب ويابس، أو هو كالحجر الصلد في اندفاعه من شواهق الفتن تهشيماً لما يقع فوقه، وتحطيماً لما يقف في طريقه».. ثم قال الشبيبي: وشعره الطافح بالعبث والمجون؛ قلما سما به على مستوى الحياة المادية، ولا بدع فهو من الأدباء الذين يجنحون بأدبهم إلى الواقع ويخاطبون العقول، ولا شأن لهم بمخاطبة القلوب ولا بمناجاة المثل العليا.. وليس من الحكمة فيما أرى نسج من ينسجون في الآداب الرفيعة والفنون السامية على هذا المنوال، فالحكمة هي الاعتدال والاقتصاد في كل شيء؛ وتجنب الإفراط والتفريط؛ وخير المذاهب الأدبية توسط ذويها من السبح في عالم الأوهام والأخيلة الباطلة؛ وبين التمرغ في حمأة المادة؛ وقد انفرد الرصافي بطريقته هذه عن معاصريه من فحول

الشعراء، ولم يُعن بمذهبه شاعر فحل من شعراء الديار المصرية أو السورية، كإسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وغير هؤلاء، إذ كانوا إلى القصد والاعتدال في مذاهبهم الأدبية المذكورة».

ثم بيّن أن الرصافي قد عاش في بيئة كثيرة الزلزال، متوالية الهزات، تهز قلالها العروش.. أما القوم - يريد شعراء مصر وسورية - فقدر لهم أن يعيشوا في بيئة أخرى لا شك أنها تختلف عن البيئة السابقة.

وقد شاء الشبيبي أن يقرر منحاه الفكري؛ فأكد أن الرصافي كان يعتمد على العقل المطلق كما يراه عقلاً مطلقاً؛ ولكن هل يجوز لنا التعويل على أحكام هذه العقول القاصرة في محيط الحياة الوجدانية، وكم ضل العقليون والعمليون في هذه الفجاج الواسعة؛ مؤكداً أن الرصافي بالنسبة للشعراء المعاصرين في مصر وسورية، قد ذهب إلى مخاطبة العقل وحده أكثر من ملاحاة العاطفة والوجدان؛ ومن هذه الناحية كانت له الشطحات؛ فهو من خلط الحسنات بضدها في أدبه، وقد أصبح في ذمة التاريخ؛ وسوف يمخض الزمن آراءه ويحكم عليها بالقول

الصريح.. ولم يمر حديث الشبيبي عن الرصافي مروراً عابراً؛ بل أحدث ضجة صاخبة في العراق ومصر، إذ نهض نفر من عشاق الرصافي لرد ما خالفوه من رأي الشبيبي مع الاحترام المقدر لشخصيته؛ فنحن نراهم مع خصوم الرصافي يشتدون في اللهجة النقدية إلى درجة الإسفاف في بعض ما يقال؛ أما الشبيبي بالذات فقد رأوا له من المكانة الدينية والأدبية ما دفعهم إلى النقد بالتي هي أحسن؛ وجميلاً ما فعلوه؛ فليت الناقدين جميعاً يسلكون هذا المسلك الحميد في كل ما يتناولونه من نقدات؛ إذاً لأصبح الناقد ذا رسالة توجيهية حميدة، ونقابل القراء رأيه بارتياح، واثقين بموضوعيته الجادة؛ وكان على هؤلاء الذين التزموا بالحيدة في نقد الشبيبي أن يلتفتوا إلى شيء واحد غاب عن أكثرهم؛ هو أن الشبيبي رجل دين أولاً قبل أن يكون شاعراً كبيراً؛ وأن مركزه الديني قد أوحى إليه بما يعتبرونه خطأ.. ورجل الدين إن نقد لابد أن يكون ملتزماً؛ نعرف ذلك عند السابقين من أمثال الباقلاني والشريف المرتضى وابن قتيبة؛ ولا نعرفه لدى الجاحظ، وهو أشهر من سار مع حريته إلى أبعد حد، حتى هاجمه ابن قتيبة هجوماً صارخاً، كان التجني فيه أكثر من

الإنصاف؛ فالشبيبي لا يطعن في إخلاصه النقدي، ولكنه التحفظ والالتزام.

ولا يفوتني أن أشير إلى كتابين هامين كتبهما الأستاذ مصطفى علي الناقد العراقي خاصين بالرصافي وهو صديقه الأثير الذي تولى الدفاع عن آثاره حياً، وقد ألقى محتواهما على طلاب معهد الدراسات العربية بالقاهرة؛ وتولت إدارة المعهد طبعهما؛ شأنهما في ذلك شأن جميع المحاضرات التي ألقاها الأساتذة على الطلاب؛ هذان الكتابان قد نقضا كل ما قاله الشبيبي دفاعاً عن الرصافي؛ ولكن المؤلف الصديق كان محامياً في دفاعه؛ ولم يكن قاضياً؛ بمعنى أنه التزم جانب الدفاع عن الرصافي؛ ولم ينصف الشبيبي في بعض ما اتجه إليه من أمور لا خلاف عليها لدى الرأي المحايد؛ ولن أتعرض هنا إلى ما كتبه الأستاذ الناقد مصطفى علي، فذلك يتطلب وقوفاً طويلاً، ويكفي أن أشير إليه لأدفع من يريد الاستقصاء إلى مراجعة ذلك، فهو حافل بالاستشهاد الشعري والتحليل النقدي على نحو مفيد.

وإذا كنت قد تركت ما قاله الأستاذ مصطفى علي لتشعب مناحيه وانفساح مواده؛ فإني سأشير هنا الى نقدين موجزين

كتبهما الأستاذان مهدي القزاز وناصر الحاتي من أدباء العراق ونشرا في مجلة الثقافة المصرية الرصينة، فعبر أحدهما عن الوجهة المقابلة لآراء الشبيبي تعبيراً نزيهاً هادفاً؛ وأبدأ بالأستاذ الحاتي، حيث قال في مجلة الثقافة بالعدد «428» الصادر بتاريخ 1947/3/11: «يرى العلامة الشبيبي أن ما يرى من الآراء الغريبة في شعر الرصافي مرده إلى التأثر ببعض الأتراك الغلاة المتأثرين بالثورة الفرنسية وكان هؤلاء يبيتون للإسلام ما يبيتونه ويتآمرون على نظم الحياة الروحية والثقافة الإسلامية».. وفي هذا القول من الغلو ما فيه؛ لأن الرصافي لم يزد عن أن عبر عن آلام بغداد في زمانه، وما مر بها من أتراح، وما قاسته من أهوال، فكان يندب ماضيها الداثر وعزها الغابر؛ ويهيب بأبنائها أن يأخذوا بأسباب النهوض، وكانت وسيلته في ذلك الدعوة إلى التحلل من الجمود ونبذ التقاليد البالية في الدين، ولم تكن هذه الدعوة تروق نفراً من الأغرار، فما كان منهم إلا أن أهاجوا الناس باسم الدين، وغدت دعوة الرصافي إلى الأخذ بأسباب النهوض كتثقيف أبناء البلاد، والدعوة إلى سفور المرأة والتحلل من التعصب المذهبي، واعتبار المساواة بين الناس خروجاً على الدين، وتبييتاً لمحق تراث السلف الصالح».

والحق أن الرصافي لو اقتصر على الدعوة إلى النهوض والتحلل من التعصب المذهبي والدعوة إلى سفور المرأة، ما وجد هذه الثورة، فقد قام الكثيرون من المصلحين بالدعوة إلى هذه الأشياء؛ دون أن يرموا بالكفر والخروج عن الدين؛ ولكن الرصافي تورط فيها لأنها لم تكن ناتجة عن دراسة عقلية؛ ولكنها كانت شذوذاً فكرياً بغيضاً، فمن ذلك قوله:

ولست من الذين يرون خيراً بإخفاء الحقيقة في الخفاء
ولا ممن يرى الأديان قامت بوحي منزل للأنبياء
ولكن هنّ وضع وابتداع من العقلاء أرباب الدهاء
ولست من الأولى وهموا وقالوا بأن الروح تعرج في السماء
لأن الأرض تسبح في فضاء وما تلك السماء سوى الفضاء

ويقول الدكتور بدوي طبانة في كتابه «معروف الرصافي – حياته وبيئته وشعره»، تعليقا على هذه الأبيات في ص «92»: «وما أظن إنكاراً للدين وكفراً به وضح هذا الوضوح، ولا أجد صراحة في إعلان هذا الإنكار والكفر أصرح من هذا الإعلان! فماذا كان الرصافي ينتظر من رجال الدين، بل ما كان ينتظر من الناس خاصتهم وعامتهم، علماؤهم وجهالهم، إذا قرؤوا هذا الشعر

الذي ينكر الأديان، ويكفر بالوحي والنبوات، ويجعل الأنبياء جماعة من العقلاء الدهاة، سخروا من عقول الناس، فأبدعوا هذه العقائد".

وقد أبدع الدكتور بدوي طبانة في تخريج هذا الاتجاه، وهو بعد من أنصار الرصافي في تفوقه الشعري وإبداعه الفني، ولكن التفوق الشعري شيء، والكفر بالله وبالأديان شيء آخر.. وإذاً فالعلاّمة الشبيبي كان على حق فيما أخذه على الرصافي من الشذوذ الديني واتباع ملاحدة الأتراك في دعواهم إلى العلمانية التي تنكر الأديان.

ولنا بعد أن نرفض ما قاله الأستاذ ناصر الحاني: «ما أجد مبرراً لقول الشبيبي «إن الرصافي خلط الحسنة بالسيئة في أدبه ورضي لنفسه تخطي الحدود؛ وما إخال مدعياً يستطيع أن يوقفنا على نصوص شعرية أو نثرية تكون دليلاً على جبر الرصافي بالخروج على الدين أو انتقاص تراث الأجداد والآباء»».. نرفض هذا القول، لأن الرصافي قد جهر بالكفر الصراح نثراً وشعراً؛ وما طبع في كتبه الأخيرة أكبر شاهد على ذلك؛ ولعله ندم على ذلك حين أقر في وصيته بأنه ملتزم بشريعة الإسلام،

وهنا أقول: إنه رجع في وصيته إلى الصواب؛ ولا نلوم الشبيبي حين قال إنه خلط الحسنة بالسيئة!

أما الأستاذ مهدي القزاز، فقد قال في مقاله بالثقافة، بالعدد «432» تاريخ «1947/4/8»: «إن مقدمة الشبيبي تعد خير ما كتب عن حياة هذا الشاعر؛ وأصدق ما قيل فيه؛ وكان معاليه صريحاً في حق الأدب والشعر، وفي حق الشاعر أيضاً حين قال عنه: "وشعر الرصافي طافح بالعبث والمجون، قلما سما به عن مستوى الحياة المادية، ولا بدع فهو من الأدباء الذين يجنحون بأدبهم إلى الواقع، ويخاطبون به العقول، ولا شأن لهم فيه بمخاطبة القلوب ولا بمناجاة المثل العليا».. وهنا نشأ الاختلاف بين معالي الشبيبي والمؤلف، لأن الشبيبي جرد شعر الرصافي من العاطفة والانتقاضات النفسية التي تهز الشاعر، فتوحي إليه ليقول الشعر فيصور به وجدانه وألوان أحاسيسه؛ في حين أن الدكتور طبانة أضفى على شعر الرصافي من العاطفة والحس والخيال والوجدان والعبقرية ما لم نلمسه في هذا الشعر مهما تعمقنا فيه ودرسناه؛ فكان حال الشبيبي صادقاً ومحقاً في رأيه، لأن شعر الرصافي في أكثره إن لم يكن جميعه يجنح فيه إلى

الواقع؛ وليس فيه من حرارة الوجدان والخيال إلا النزر اليسير، ولعل مرد هذا ناتج من حياة الرصافي في البيئات التي عاش فيها ثائراً ومصلحاً ومنفياً وفقيراً ينشد المعونة فلا يجدها، لولا بقية من أصدقاء كانوا يمدونه بين آونة وأخرى ببعض المساعدات المالية تعينه على الحياة».

ولعل مفهوم العاطفة التي جرد منها شعر الرصافي يختلف عن مفهوم العاطفة التي أكدها الدكتور بدوي طبانة ومن أيده في اتجاهه، لأن مفهوم العاطفة عند الشبيبي يمثل التعلق بالمثل العليا والهتاف بأظهر معاني العفاف والنبل والحياء؛ وهو ما نجده ماثلاً في شعر الشبيبي؛ ولكن العاطفة تشمل الانحدار والارتقاء والغزل العفيف والغزل الهابط وكل ما يحس به الإنسان، فالشاعر ذو عاطفة؛ ولكن ما نوع العاطفة؟ هي عند الشبيبي الشرف ونبل الاتجاه وتصوير المثل العليا؛ وعند الناس جميعاً - إلا ما ندر - هي ما يحسه الإنسان هابطاً أو مرتفعاً؛ ماجناً أو ملتزماً؛ فالجهة كما يقول المناطقة مُنفكة تماماً بين تعريف وتعريف.

وإذا كان الشبيبي قد انتقد الرصافي بما يراه في اتجاهه

الحسي؛ فإن أكثر الذين تحدثوا قد ارتفعوا به إلى مستوى العظام من الشعراء، بل إن الأستاذ طه الراوي فضله على شوقي؛ فكان ذلك اندفاعاً مع عاطفة خاصة به نحو الرصافي! ولي أن أعرض بعض الآراء الأدبية الخاصة بالشاعر الكبير؛ لنعلم أن الأذواق تختلف وتقترب؛ وأن الأكثرية من النقاد؛ كانوا يرتفعون بالرصافي إلى مستوى عال، وهو جدير بهذا المستوى، إذ كان أحد أعلام الشعر العربي في العصر الحديث، لا في العراق وحده، بل في سائر الأقطار العربية.. وأبدأ بالأستاذ عبدالقادر المغربي، نائب رئيس المجمع العلمي بدمشق؛ وصاحب المؤلفات الذائعة في اللغة والأدب والأخلاق، فقد كتب مقدمة ديوان الرصافي في طبعته الثانية؛ وصاحب المقدمة في أكثر أحواله ينظر إلى من قدم كتابه بعين التقدير، ويتجافى عما يراه من الهنات، وقد قال في المقدمة عن الشاعر إنه يمتاز بالسهولة وحسن الديباجة؛ وقرنه بالبحتري إذ كان ينتقي الكلمات ويرتبها بحسب المعنى، ويفصّلها على قدرها، فلا تقديم ولا تأخير، ولا حشو ولا تعقيد، ولا استعارات بعيدة ولا كتابات غامضة؛ وقد بلغ من السهولة إلى حد يمكن القارئ من أن يحول القصيدة إلى مقالة نثرية؛ وبعد أن شبه الرصافي بالبحتري في سهولة الألفاظ

وقرب المأخذ، شبهه بأبي الطيب المتنبي؛ إذ إنه في رأيه، قد ماثله في استخراج المعاني الدقيقة، وضمّن شعره كثيراً من الألفاظ والحكم، وله باع طويل في قضايا العلم والفلسفة والتاريخ.

قلت إن الرجل يكتب مقدمة ديوان لصديقه؛ فلم يكن غير معجب مقرّظ، وليس عليه في ذلك إذ اكتفى بما يشعر به، وهو صادق بينه وبين نفسه.. أما الأستاذ أحمد حسن الزيات، فقد خص الرصافي بمقال افتتاحي من حلقتين، كتبه بالرسالة عقب رحيله.. وقد قال فيه، نقلاً عن «وحي الرسالة» ص – 26 – من الجزء الثالث: «كان الرصافي – أحسن الله إليه – لسان العراق الصادق، ينقل عن شعوره، ويترجم عن أمانيه، ويحدو لركب المجاهد، في سبيل استقلاله وعزته، الحداء الحماسي المطرب؛ ويصور خلجات نفسه، ووساوس أحلامه، بالشعر الصريح المعجب.. وظل هو والزهاوي، وشوقي وحافظ ومطران، حقبة من الدهر يؤلفون الأوتار الخمسة لقيثارة الشعر العربي الخالص، ولكل وتر درجته في الرنين والجهارة والأثر.. والرصافي أشبه بحافظ من الزهاوي بشوقي؛ وإن شئت فقل إن الرصافي وحافظ كانا الوترين الرابع والخامس من القيثارة؛ صوت عريض فخم؛

وذبذبة ضيّقة محدودة».. ثم قال الزيات عن حافظ والرصافي: «إنهما كانا يتقاربان في جوانب من ضيق الثقافة، وقلة الاطلاع وهيمنة الحياة.. ولكن الرصافي كان يمتاز على نظرائه جميعاً بالصراحة الجريئة، والاستهتار البالغ.. كان يعيش ليومه، وينطلق على هواه، ويستجيب لغريزته، فيفعل ما يشاء، ويقول ما يعتقد، ويطلب ما يشتهي، ثم لا يبالي أن يقع ذلك كله من رأي غيره».. والأستاذ الزيات عمل مدرساً في العراق في دار المعلمين العليا ببغداد قبل أن ينشئ «مجلة الرسالة»، وفي الافتتاحية الثانية في الرسالة، وذكر أنه وصديق زارا الرصافي في بغداد، وصور حياته كما كان يحياها، وقال في آخر الافتتاحية الآخرة التي كان عنوانها: «الرصافي وأغا خان»: «حظك يا معروف هو حظ الأديب منذ كان في الناس أدباء وفي الأرض أدب! يموت أمثالك شرقاً بالبؤس، كما يموت أمثال آغا خان غرقاً في النعمة».. وفي آخر الافتتاحية الأولى قال الزيات: «أما عقيدته فالأمر فيها لله لا للناس؛ وأما شاعريته، فالحكم عليها للناقد لا للمؤرخ..».

أما الأستاذ محمد كرد علي؛ فقد أفرد في كتابه "المعاصرون" فصلاً ضافياً عن الرصافي، تحدث فيه عن حياته

واتجاهه السياسي بإفاضة، واسترسل في الاستشهاد بطائفة من شعره في شتى الأغراض التي عالجها، ثم قال 467:

«وقيل إن للرصافي أشعاراً بذيئة في المجون بز فيها على ابن الحجاج «الشاعر العباسي الذي عاش في عصر الدولة البويهية»، وغيره من شعراء الخلاعة الأقدمين، وقد طرحه ولم يدونه فأحسن، لأنه يضر بالعقول والتربية، وربما كان مما قاله في ثورة الشباب، فتحامى عن نشره لما قدر من مضرته.. وإذا كان الرصافي جرؤ على استعمال حريته في الحكم على الأديان، وعلى النظم الاجتماعية، فإنه لا يملك حرية إفساد الأخلاق، وتحبيب المجون إلى الناس، وهم غير محتاجين إلى شعره في هذا الباب.. والرصافي قد أجاد كل الإجادة في تنوع موضوعات شعره، لولا هذه الأماديح التي دار عليها موضوع الشعر العربي منذ عرف، وشعره سهل جزل، تتشربه حتى نفوس من لم يدرسوا الأدب كثيراً؛ وهو في شعره يسير مع أكبر الشعراء إن لم يفقهم؛ وكأنه في شعره ينثره».. هذا بعض ما قاله الأستاذ كرد علي؛ وقد أتفق مع زميله الأستاذ عبدالقادر المغربي، في أن الرصافي أقرب إلى النثر في شعره! ولا أدري! أتلك ميزة

للرصافي أم هي محل نقد، لأن الشاعر يهوي بشعره حين يجعله قريباً من النثر.. فما ظنك به لو جعله نثراً خالصاً؟ الحق أن الرصافي - في رأيي - كان يرعى جانب السهولة، ولكنه لم يكن ناثراً في شعره.. ولو صدق ذلك في وصف قصائده؛ لكان موضع نقد صريح!

وقد فعل الدكتور عبدالوارث الحداد في كتابه القيم: «معروف الرصافي بين الأصالة والمعاصرة»، فقال في ص «386»: «آراء للنقاد تتعلق بشعر الرصافي؛ وفي بعضها مبالغة، كقول الأستاذ طه الراوي: إن الرصافي شاعر العرب الأكبر في هذا العصر، الذي لا يوازن به شاعر آخر، لا في مصر ولا في غير مصر.. وكقول الأستاذ منير القاضي، رئيس المجمع العلمي بالعراق: إن الرصافي شاعر العرب الأوحد في عصره، بل شاعر العروبة الأوحد في وقته، إذ هو المجلي بين جميع شعراء عصره؛ ومكانته بينهم مكانة المتنبي في شعراء عصره».

ولكل ناقد أن يقول ما يشاء، وفق ما يهتدي إليه تفكيره.. وأخال الأستاذ أحمد حسن الزيات؛ كان صادقاً كل الصدق، حين جعل أوتار الشعر المعاصر خمسة: «شوقي وحافظ ومطران

والزهاوي والرصافي».. وجعل حافظ والرصافي في المرتبتين الأخيرتين، بمعنى أن شوقي ومطران والزهاوي قد سبقوهما في الإبداع الشعري؛ وهذا ما أميل إليه.. ودواوين الشعراء الخمسة بيننا، ولمن شاء أن يعارض، فليدرس هذه الدواوين دراسة محايدة؛ وليأت بالحكم مثل ما يراه بعد الفحص الدقيق.

أيها الأعزة: لعلكم تلاحظون أني لم أستشهد بشعر الرصافي في هذا الحديث، لأن الحديث لم يكن خاصاً بدراسة شعر الرصافي، ولكنه خاص بآراء بعض النقاد من معاصريه، وقد استشهدت بآراء الكبار من رجال الأدب في عصر الرصافي.. أما من جاءوا بعدهم من نقاد الشباب، فقد وقع بينهم خلاف فيمن كان يحتل الزعامة الشعرية في العراق: أهو الزهاوي أم الرصافي؟ ولكل باحث أدلته وبراهينه، وهو ميدان فسيح، تتسابق فيه الأقلام الناقدة، فتترك صدى بعيداً لدى القراء؟

* * *

ولـدت والحـرب(*)

أكبر الظن، أن الشاعرة الشابة (سوزان عليوان)، حين نقرأ شعرها التشاؤمي والباكي، أنها تتحدث وتصور حال وطنها الجريح، الذي اصطلحت عليه كوارث منذ اجتاحته إسرائيل قبل عقدين، ثم توالت عليه أحداث دامية، زلزلت استقراره وحولته إلى دمار.. بلد جميل يشبه الوردة الحمراء اليانعة العبقة.. إن ذلك الدمار الذي توالى على لبنان حوّله إلى جحيم وقلق لا قبل له به، ومن أجل ذلك انعكس على الشعر الغض لتلك الفتاة المثقفة التي تتقن ثلاث لغات هي: الفرنسية والانجليزية والاسبانية، عدا لغتها العربية التي تعشقها أكثر من غيرها، فتتحدث وتكتب بها.. هذه الفتاة الشاعرة التي فتحت عينيها على الحمم وجريان الدماء والاجتياح الصهيوني مرتين واحتلال أرضه والبطش بالآمنين فيه وترويعهم جواً وبراً وبحراً.. وحق لها أن تبكي هذا الوطن

(*) نشر بملحق الأربعاء بتاريخ 1429/5/30هـ الموافق 2008/6/4هـ.

الجميل الحر، وأن يكون ما تذرف من أحزان رثاءً دامياً، لأن الكوارث لم تتوقف، وكأن مصير لبنان انتقام، فلا يستقر ولا يهدأ ولا اطمئنان للحياة فيه، حسد في جماله ومناخه وحريته وبهائه، وكأن حاله توائم قول أمير الشعراء :

احــرام عــلــى بــلابلــه الــدو ح حلال للطير من كل جنس

إذاً حق لها أن تردد، وهي القائلة:

وحدي انا الغريبة / لا اشبه احداً

ونقرأ لها نعي طفولتها، وفجرها الشاحب، لذلك فهي في ترحال متصل، لأنها لا استقرار لها، مادام وطنها محاصراً، لا استقرار فيه ولا أمن ولا أمان، والوطن غال، حتى إن شوقي تنازعه نفسه إليه، إذا كان في الخلد، وحق لمنتمن أن يقول ذلك، لكن هذا الرماد، وهذا الشحوب والأحزان والآلام.. فإلى متى هذا القلق الدامي؟

الغربة مريرة في حياة ذي الحس المرهف، فهي آلام متدفقة لا تهدأ، لا يستقر فيها لا المال ولا الجاه، لأنها قلق لا راحة فيها ولا اطمئنان، ولا حياة بمعناها الحقيقي..

إن هذا الشعور المتدفق بالأحزان، يجعل صاحبه لا يعرف

إلى الاستقرار سبيلا، فالحياة إذاً لم تكن آمنة فإنها تتحول إلى جحيم لا يطاق، غير أن التنفس عبر تعبير متدفق، وعبر ترحال لا هدوء فيه، يجمله صبر جميل، يركن إليه المبتلى بإحن الحياة وكربها ولأوائها الذي لا هوادة فيه.. وكأني بالشاعرة القلقة لسان حالها يردد قول البحتري:

حضرت رحلي الهموم فوجهت   إلى ابيض المدائن عنسي

***

في صباح ندي، وفي جوار كريم، وفي حنان وسكينة، حلقت مع (سوزان) فلامست المفتاح الذي فقد بابه، وكنت أظن أن الباب فقد مفتاحه، فالصور للمصباح الكفيف، يعلق المفتاح بأهداب السحاب الماطر؛ لتدركه رحمة الله من الغيث الهاطل الذي يحيي الأرض بعد موتها، فتصبح سندساً يبهر العيون التي أعشاها القحط على وجه أرض الناس، فاحترقت من الحروب وأصبحت يباباً.. وكانت زينة في أعين من يغشاها من بعيد، لأنه وجد فيها النماء والحياة والحرية والجمال، ولكن الإنسان كفور، إذا استغنى تكبر، وإذا نال الجاه والمجد والقوى والسلطة طغى، فأحرق الأرض والنسل واجتاح الفضاء المخضر حريق لا يبقي

ولا يذر، فهجرها أهلوها، وبعد عنها محبوها، فأصبحت كأن لم تكن جنة الدنيا.. فيها كل ما يخطر على بال الحالمين. ويزهي مرتديها الذين ألفوا فيها الحب والحرية والمناخ الذي نداه هوى، وبحره سحر، وأرزه ظلال العاشقين.. وحين جف الزمان تاه أولئك الحالمون، لأنهم لم يغش هواهم حلم في أرض جرداء لا بحر فيها ولا هواء ولا حلم، ولا ما كانت تبصر العين من نعماء، وتعيش في هوى كان المنى للذين أحرقهم لهيب الصحراء، فأصبحت العاطفة تضج فيما حولها، ذلك أنها لم تألف الهجر، وكانت تهرب من الجفاف والقحط إلى نسمات الندى الذي يسكن الهوى في نفوس ضاقت بلهيب الحياة القابعة في الضنك والردى...

والـ (مفتاح الذي فقد بابه)، عليه أن يطرق أبواب الفضاء الواسعة ففيها أبواب كثر نديه، لعلها تكون العوض.. وأقول ذلك لما جاء في عنوان (كوكب أحمر).. فإن فوق الأرض فضاء رحب، لعله يصلح لحياة وارفة الظلال والنماء، ويقرّب هذا الكوكب بكواكب كثيرة جميلة لامعة تتراقص وتتناجى، بعيداً عن كواكب أخرى أكبر من الأرض بكثير ، لأن فيها متيهة تصعب فيها حياة

من كان على الأرض يسير الهوينى، بين بحر وأرض مخضرة.. إن السفر قسوته غربة عن الأوطان، ولذلك يلفه القلق الذي يقتل الحلم ويذيب الهوى، ولا تغنى جنانه وأنهاره وسحبه الريّة، وبذخه وزخرفه عن تربة الهوى، فنسماتها وعبق تلك التربة امتزجت بأنفاس المزيج الإنساني فهي بعض كرويات الدماء التي هي النماء والأنفاس المترددة في حركة الحياة..

***

إن عناوين كلمات الشاعرة المجنحة، بوح نفس حزينة شبه يائسة، تعيش حياتها ولا تعيشها، والنفوس المحلقة في كون الله الذي لا نعرف مداه، إن نفوساً غير مترفة، ملتاعة حساسيتها عالية جداً، تعيش بعيداً عن أرض الناس الملأى بالمظالم والأحقاد والطرد والقتل، حياة نكر ويأس، يتعب فيها من كان له حس محلّق، يعلو بعيداً في كون خالقه، لأنه سئم الظلم والمكر والأذى والكراهية، فتعب في حياة تضج بالبأس واليأس، حياة حقيرة مظلمة راكدة ترهقها قترة، وقلق لا حدود له ولا نهاية له أسوأ من حياة الغاب، التي يفترس فيها القوى الضعيف.. وأي حياة هذه

التي يضيع فيها الحق ويهيمن فيها الباطل، ويطغى فيها البهتان؟!

وحين حدثتني ابنتي عن الفتاة الشاعرة ابنة الأرض، وأن لها دواوين احتفى بها الكاتبون وأشادوا بخيالها وتحليقها، تطلعت أن أقرأ هوى الأرز وغناء الوروار وبريق وجه الثلج الذي يغطي بعض البقاع، وزرقة بحر بيروت، وثراء ثقافة لبنان. تطلعت إلى نغم مثل أنغام شاعر الجندول المحلّق، يتغنى بالجمال وكون الله جميلاً في كان وبحيرة كومو وفينيسيا.. لكني رأيت فيما قرأت شجناً وبكاءً صامتاً ويأساً وكرباً.. وتساءلت: أين أخيلة أو تصوير حياة ترفة وارفة الظلال، فلم أجدها.. وحين رجعت بالتأمل إلى عمر الشاعرة الممتد في سعادة إن شاء الله ، أدركت أنها ولدت في أتون الحرب ، وسط الحرائق والقتل والقصف الناري المدمر الذي لا يبقي ولا يذر، فقدرت.. واعتذرت..

وأفتح بعض النوافذ، فأرى حراك الحياة الدائب ، ثم أعود إلى ذلك المصباح، فأرى بصيصاً من ضوء مسلط على كلمات تردد تحت عنوان «حنان بمرارة الحنين»:

من نافذة صغيرة بيضاء
لإطارها لون يوم مهمل في المطر
اطل على غربة يديك
بحكايات عن مشربيات قديمة
حفر خشبها الهواء
لوحتها الشمس بسكر محروق
كان ذلك في مدينة سكنتني
بحاراتها
وبيوتها

وأتأمل، إذ تقول:

«**لو كنت أعلم أن اليوم عيد ميلادك**
لقدمت قلبي قطعة حلوى».

إنه النسق نفسه في رؤى الشاعرة المحلقة والإيقاع الشجي، في مسار كلمات نجاء تصور، تئن وتحاور نفسها، تتلاقى ولا تتنافر، كم أتمنى أن تطوى صفحات تلك الأيام القاتمة

، وتأتي أخرى ربيعية مشرئبة بكثير من الأحلام المتراقصة العبقة في أنفاسها وأحاسيسها وإيقاعها، فالحياة حلوة، إذا تحولت النظرات والأحاسيس إلى أمل كبير، فوق الألم واليأس والخوف، ولكن إلى رجاء، وأكرر «الأمل»، وعذوبة الأيام والساعات ذات المذاق الحاني.. لنتفاءل كثيراً ونطوي بعض الصفحات الرمادية، بأخرى حالمة، فيها اشراقة ولذيذ حلم ومنىً، لنجرب ، ثم نتحدث بأمل وآمال، ونردد مع القائل: «ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل». فالحياة حلوة لمن يحياها..

وأنتقل إلى لون لعله أو بعضه فيه شيء مما نطمح أن نقرأ في «لنتخيل المشهد» بعنوان «كواكب ونجوم من قمح»:

بالعدل الذي لا تعرفه سوى أصابع عاشق

يوزع كعكاته الدافئة

على أطفال الشوارع

على شبابيك النائمين، دون عشاء أو أمل

فقط

لأنه يحبها
من احب إنساناً
احب الناس جميعاً.

إن الذي يقرأ الشاعرة، يطول به التأمل، ويطول وقوفه مع تلك الإيقاعات القلقة المؤلمة والمحزنة وحتى الباكية.. ترى: هل من أمل أن تبتسم الأيام على فجر وهّاج يلّفه نسيم باسم عذب، ويبشر بيوم بل بأيام فيها أحلام ملأى بالسعادة والحب والهوى الجميل، لأنه جميل في معناه ورؤاه وإيقاعه لأنه عذب اسمه ومعناه، ومن يقاربه ويحس به ويدانيه ويعيشه من قرب، ويمتزج فيه بفورة عارمة.. فطوبى للحالمين المتفائلين، ولعل غداً بهيجاً يلامس الشاعرة بنسائم هي بهجة ، وهي ملامح فيها سنابل خضر على أرض خصيبة فوّاحة الشذى، تبعث في النفس معاني من عبقها ، فهي حب ونماء وآمال لا حدود لها.

* * *

العواد في ذاكرة التاريخ(*)

عرفت أستاذنا وأديبنا الكبير محمد حسن عواد – رحمه الله – قبل خمسة عقود، وأكبر الظن أن سبيل ذلك كان أستاذي الكريم الفاضل محمود عارف – رطب الله ثراه – الذى عرفته قبل معرفتي للعواد بنحو عامين.

وكان الأستاذ العواد يومئذ يشغل رئاسة الغرفة التجارية بجدة، وأعتقد أن معالي الأستاذ محمد عبدالله رضا الذي كان وزيراً للتجارة في أول حكومة للملك سعود بن عبدالعزيز رحمه الله، هو الذي وضعه فى الغرفة، تعاطفًا وعونًا لأديب بارز، حقيق بأن يكون فى عمل مناسب، يدر عليه دخلاً يعيش منه.. والغرفة يومئذ كانت مسؤولياتها متواضعة محدودة، علاقتها بالتجار اشتراكات بسيطة سنوية، ومكتبها كان فى الدور الارضي، من مقر

(*) مشاركة في ملتقى قراءة النص، بنادي جدة الأدبي الثقافي، المنعقد بتاريخ 22 صفر 1428هـ/2007م.

العين العزيزية، القائم حتى اليوم بجانب مدرسة الفلاح فى حي المظلوم.

وتوطدت علاقتي بالأستاذ العواد عبر الأيام، فرأيت فيه رجلاً قويًّا صلبًا يعتد برأيه، ووجدت فيه صفات كثيرة من خصال أديب العربية الكبير عباس محمود العقاد.. أدركت ذلك لاحقًا، بعد أن قرأت العقاد، ورأيته في مصر، وحضرت ندوته التي تعقد كل يوم جمعة أسبوعيًا.. والعواد رجل أبيٌّ شجاع، صريح، عنيد، قوي.. تابعت بعض معاركه الأدبية فى صحيفة البلاد السعودية، فرأيت رجلاً مشاكسًا صلبًا، لا يهاب، ولا يخاف، ولا يتراجع، وهذه الخصال رأيتها فى العقاد. حتى في الشعر، فإن الرجلين - العقاد والعواد - يخضعانه للعقل، وتأثير العاطفة فيه غير بارزة ولا قوية.. وليس صحيحاً أن العواد ليس شاعرًا، كما قال مرة الناقد الدكتور حسن الهويمل، فرأي كهذا لا يمكن أن يكون حكمًا من خلال كلمات يطلقها صاحبها، وإنما الأصل فى ذلك، أن يكون عبر دراسة عامة، يقول فيها كاتب آراءه من خلال أدلة وبراهين واعتبارات ذات مرجعيات وقيمة فى موازين النقد الذي يعوّل عليه..

وساءني، بل وساء الكثير من الأدباء، ذلك الهجاء المقذع، الذي دار بين الأديبين والشاعرين: حمزة شحاتة ومحمد حسن عواد، وحفلت به صحيفة البلاد السعودية، فما كان ينبغي أن ينحط التهاجي حتى يصل إلى الأعْراض والمحارم والسوء الذي لا حدود له، وقاتل الله الغضب ومرارة التحدى والكبرياء، التي تقود إلى مسلك غير إنساني باسم الأدب والشعر، وما ذلك من الأدب فى شيء.. وأنا لم أطلع على ذاك القذى، ولكني سمعت مَنْ عاصره يتحدث عنه بألم ومرارة، وسمعت أن بعض الأدباء المعاصرين لتلك المرحلة يحتفظ بهذا التهاجي، ومنهم الشيخ عبدالقدوس الأنصاري صاحب مجلة المنهل، رحمه الله.

ومرت الأيام وكبر الرجلان وأدركتهم مرحلة الشيخوخة والضعف، وهما بعيد، أحدهما عن الآخر، ويحدثنا الأديب الشاعر الأستاذ «محمد صالح باخطمة» فى مشاركته عن حمزة شحاتة، عبر ملتقى: «قراءة النص»، فى حلقته السادسة، فى هذا النادي الذي يحتفي بالرواد ورموز الأدب البارزين.. الأستاذ باخطمة كان قنصلاً قبل عقود للسعودية بمصر، والأستاذ شحاتة بحكم إقامته فى الكنانة، كانت له روابط وثيقة بالأستاذ

باخطمة.. وحَدَثَ أن الأستاذ شحاتة كان في مكتب القنصل، وكان الأستاذ العواد في مصر يعالج عينيه، والأخ محمد صالح باخطمة من برِّه لأدباء بلاده الكبار، يلتقي بهم ويحتفي ويسعى إليهم، خاصة إبَّان عمله في السفارة بمصر، فزار الأستاذ العواد حيث يقيم، ثم جاء الأستاذ العواد إلى القنصلية لرد التحية ورد الجميل، وكان كما قال الراوي مُغَطى العينين يصاحبه دليله، وكان الأستاذ شحاتة عند صديقه، وقد ضعف بصره فلا يرى إلا عبر مسافة قصيرة.. وسنحت الفرصة عند المضيف اللبق الذكي، ليكون واسطة بر للصلح بين الأديبين المتخاصمين سنين، فعرض على شحاتة والعواد، كل على حدة: هل يمانعان في التلاقي؟ فكان الترحيب والفرحة كما قيل، وتعانقا وأعلن كل من الرجلين لصاحبه أنه أستاذه ومحل تقديره.. وهذا الموقف له أمثال، وهي لحظات إنسانية غالية جميلة، ذلك أن التصافي بر وحال كريمة وسعادة بين متخاصمين في توافه الحياة وأوضارها، حين ينزغ الشيطان بين اثنين أو أكثر، فيكون النكر؛ وتكون القطيعة، لاسيما حين تمتد بها الأيام، فتولد كراهية وحياة عابسة كريهة.. وإني أُكْبِر ذلك التوفيق والمناسبة التي ساقت لقاء الأديبين الكبيرين، وحصافة الشاعر الأديب، الذي غنم تلك المناسبة العابرة ليزيل

مكاره ونكرًا، وما كان ينبغي أن يطول زمن القطيعة بعد أن أفرغ كل من المتخاصمين ما في كنانته من جور وأذى وأسًى وفجائع بين مواطنين بارزين في الأدب، ليكون ما كان، وليته لم يكن!

كانت بين الرجلين قطيعة منكرة مريرة، حقبة طويلة من الزمن، وتوارثت الأجيال الأدبية أحاديث تلك الأهاجي، تناقلها جيل عن جيل إلى اليوم بالسماع والرواية، وهم لو قرأوها لزادت حالهم مرارة ونكراً لاسيما الغُير، ولحزنوا حزنًا لا حدود له..

ويتحدث الأستاذ باخطمة، أن والده - رحمه الله - وكان من رجال الأمن البارزين، كان إذا التقى بأحد الرجلين في أم القرى يقول له: إذا لم تكف عن هذا النزيف المهلك، فسوف أخذك إلى السجن.. ونجد شيئًا من شعر العواد، الذي انداح في تلك المعركة، في ديوانه: «يد الفن تحطم الأصنام»، وهو شطر من تلك الأهاجي، وإن لم يأت فيه ذكر صريح لاسم شحاتة.. وقد كان يساند الأستاذ حمزة كل من أحمد قنديل ومحمد علي مغربي، أما العواد فكان بجانبه الأستاذان محمود عارف وعبدالسلام الساسي، وهي مساندة معنوية فقط..

ويقول العواد في خواطره المصرحة، الذى كتبه وعمره لم يتجاوز العشرين سنة:

- «أمامنا الوطن بحاجاته المادية والمعنوية وما يتطلبه الشعر فيها.
- أمامنا العادات والأخلاق بما فيها من فساد يتطلب النقد.
- أمامنا الحرية بأنواعها، وما يجب من تمكينها فى النفوس.
- أمامنا الشرق الكسول الخامل، وما يجب من تنشيطه.
- أمامنا الطبيعة بظاهرها وباطنها، ووحيها للعقل والقلب.
- أمامنا العرب بحالتهم السياسية، وواجب الشعر في هذا المجال.
- أمامنا الغرب باختراعاته ومدهشاته.
- إذاً فمالنا نرجع إلى الوراء حتى فى الأدب؟ والأدب هو أول الطريق جناية جناها على أفكارنا وأقلامنا الأولون، فطأطأنا لها الرؤوس.
- كفى يا أدباء الحجاز، ألاتزالون مقلدين حجريين إلى الممات؟ وأقسم لولا حركة عصرية فى الأدب، تقوم الآن فى الحجاز،

بهمة لفيف من أحرار الأدب العصري الحديث، لما عرف العالم شيئاً في الحجاز، يدعى الأدب الصحيح».

فى وقت مبكر، شرع الأستاذ محمد حسن عواد فى دعوته الإصلاحية وتحمل فى سبيلها الكثير من العناء، وجاهد للمشاركة بالدعوة إلى النهوض بالوطن وأهله فى شتى سبل الحياة، وبث رأيه فى قضايا الأمة العربية، لاسيما التي كانت تحت نير الاستعمار والاحتلال، مثل الجزائر وفلسطين وغيرهما، وحول النهوض بالوطن وأهله فى شؤون السياسة والاجتماع والتعليم والثقافة، نراه يقول:

صاح حي الرقي، حي السلاما حي داع الونام، حي الوناما
حي عصر النهوض، حي التعالي حي بالمجد امة تتسامى

ويقول العواد: «اعملوا للبلاد»، ويدعو قادة وطنه إلى النهوض بالوطن، فقال: «اعملوا لبلادكم كما تعمل كل الأمم فى داخل بلادها وخارجها أعمالاً مختلفة الألوان، ولكنها متحدة الغاية، فالعمل السياسي، والعمل الصناعي، والعمل العلمي، والعمل الأدبي، كلها فى الأمم الشاعرة خطوط مستقيمة..

اعرفوا قيمة الوطن كما تعرفها الأمم.. وجهوا النظر الأقصى إلى التعليم، وأوجدوا تعليمًا منظمًا ساميًا، يضمن سد حاجات البلاد بكفاءة أبنائها».. هذه الدعوة إلى النهضة، جاءت في وقت مبكر، لأن أديبنا وعى ذلك منذ حداثة سِنِّه، وعبر تطلعه، ومطالعاته فى نهضة الشعوب خاصة فى الغرب.. إنه طموح رائد بان، طموح متوهج الفكر ونفس عالية.. وهو فى بعض ما كتب، يدعو مواطنيه إلى تأكيد القول بالعمل، انطلاقاً من قول الحق: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون**﴾، وقول من لا ينطق عن الهوى، ﷺ: «لا قول إلا بعمل»، قال العواد: «لا نريد ثرثرة الأفراد باللغو، والدفاع عن النفس من طرق ملتوية حمقاء، هي طريق التعريض بالغير».

كما كان يدعو إلى وحدة الأمة العربية، وهي تربطها وشائج قوية من العقيدة واللغة والأرومة، فقال فى ديوانه الأفق الملتهب:

أحب الجزيرة والموطنا

ومستقبل العرب أن يعلنا

أحب الحجاز

أحب العراق، أحب الشآم ومصر

ولبنان والأردنا،

أهوى عُمان، إلى حضرموت، وأهوى فلسطينا

أحب بلادي بأسمائها، وألقابها وتقاسيمها

وأعشقها دون تلك الحدود

لعدنان تنسب أو يعرب

وتغدو وقد ضمها الاتحاد

عزائم من مهج العاملين

لها قوة من وراء الصفوف

تحث خطاها لتقديمها

وأديبنا الكبير من أوائل من دعا في بلادنا إلى تعليم المرأة، وأن تكون في محاذاة الرجال، لطلب العلم والعمل، بما يتوافق مع خصائصها بعامة، تشارك في بناء الوطن بفعالية وأيد.. ويخاطب المجتمع النسائي بقوله: «فكرن كيف تخدمن بلادكن ليزداد رصيدها من الحضارة، طالبن قومكن وأباءكن برفع مستوى

النساء.. إن حقوقكن فى العيش توصي بحقوقكن فى التقدم، فمن الواجب إذاً أن تكون لَكُنَّ مثل هذه الألسنة الناطقة، لتنطق ألسنتكن بما يدور فى قلوبكن من الخير، من هذا الخير الكبير، تنلن الحياة فى الوطن العزيز.. أنتن أمهات المستقبل.. وهذا الوطن أُمُّكُنَّ الأولى الكبيرة الشاملة.. لا ندعوكن إلى التبرج، ولكن ندعوكن إلى الانطلاق فى ميدان الكفاح الشريف..

ولتكن هذه أولى الخطوات المباركة إلى خلق مجتمع رشيد يحطم الجهل والفقر والذل والظلام، اعملن حسناً، ﴿**فإن الله أعَد للمحسنات منكن أجرًا عظيماً**﴾.

قلن للرجال بدون تهيب

نحن نريد تقدماً، لا تمرداً[1]

إن كتاب خواطر مصرحة لأديبنا الكبير، ثورة على الجهل والتخلف.

وعن التطور يقول العواد:

التطور هو الدورة الدموية فى جسم الحياة الاجتماعية،

وعلى أساسه تفتحت الحياة عن أروع معطياتها، بل عن كل ما فيها من المعطيات، فالفكر إذا لم يتطور لا يستطيع أن ينتج، والشعور إذا لم يتطور لا يتمكن من ارتشاف جمال الحياة، والعمل - بكل صنوفه وأشكاله - إذا لم يتطور لا يصل إلى القمة، وربما لا يصل إلى النجح السليم[2].

* * *

فلسفة الحياة العصرية

نجد تحت هذا العنوان – وهجًا –، فى قول الكاتب: «عش حرًا، كن مفكرًا، اعمل لتعيش، اترك التقعر وحُبَّ الظهور الكاذب، ميّز ما تراه، اندفع إلى التقدم»، ثم يقول: «هذه هي دساتير الحياة العصرية، التي يريدها هذا الفكر الانساني العالي»(3) وقال الدكتور إبراهيم بن فوزان الفوزان فى كتابه: الأدب الحجازي الحديث عن الأستاذ الرائد محمد حسن عواد، رحمه الله:

- يعتبر بحق زعيم مرحلة الثورة التجديدية فى الأدب الحجازي.
- أديب جريء، عرفه الأدب الحجازي فى نقده وعطائه.
- ثار على المنهج الاتباعي القديم فى الشعر.
- دعا واستعمل الشعر المرسل والحر والمنثور فى الحجاز.
- نقد المناهج التعليمية التقليدية.

● رفض أي أثر لايتمشى مع حاجة العصر، ودعا إلى الانفتاح على ثقافة العالم فى سائر الفنون.

هذا هو العواد المصلح الاجتماعي، وأحد دعاة التنوير والبناء والرقي الحياتي، كان رائداً فى دعوته الإصلاحية، فى وطن غال، خليق بالنهضة والحياة الكريمة، جاهد بقلمه ولسانه نحو مستقبل وضاء فى منزل الوحي، والمصلحون في كل زمان ومكان، دعاة بناء ونهضة وطموح، لما يوصل إلى الارتقاء بالقضاء على الجهل والمرض والفقر، لتكون أمته كما قال قائلهم: «علو فى الحياة وفى الممات».

وما قاله الدكتور الفوزان عن أديبنا الكبير، قاله الأستاذ عبدالرحيم أبو بكر فى كتابه «الشعر الحديث فى الحجاز» وقاله أستاذنا الرائد عبدالله عبدالجبار، وكذلك الدكتور محمد صالح الشنطي، والأستاذة أمنة عبدالحميد عقاد، في أطروحتها - رسالة ماجستير - عنوانها: محمد حسن عواد شاعرًا، وكذلك كل من كتب عن أديبنا البارز، رحمه الله ..

ويجنح الكاتب بخياله إلى مدى بعيد، ولكنه في الحياة

الجادة المتطورة لا يعتبر ولا يسمى بعيدًا، فالفتاة التي في الثامنة عشرة من عمرها «تشغل وظيفة رئيسة معمل للزجاج بجدة الجديدة، تكتب لشقيقها ببلدة - الوئام - التي تبعد عن مكة 160كم، «فتحدثه عن الأجداد الذين كانوا يعيشون في سنتي 1340-1350هـ» ويحلق العواد بخياله الخصيب، إلى رقي المواطن والمواطنة في وطنيهما، فيعلن احتفاء بـ «عادلة» مؤسسة المرصد العربي - بجزيرة المعارف - وكذلك تكريم النوابغ بمبالغ من الجنيهات العربية، وتحدّث الفتاة أخاها بأنها استأجرت طائرة إلى حدود نجد الشرقية؛ لحضور حفل تكريم الشاب النابغة «أحمد وداد - مخترع الآلة الحديثة؛ لتصفية المزروعات وطحنها - ويمضي في الحديث الشائق من أخبار جدة، أن حالة الجو هادئة جداً، وقد استعملت آلة المهندس العربي - حسن عبدالقدير - لتبريد الهواء، فكان النسيم جميلاً، وذلك في شهر أغسطس قلب الصيف والحرارة.. وترسو الباخرة النفوذ في ميناء التقدم بجدة، وعليها 5000 أوروبي، من فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وأسبانيا وسويسرا، 12000 أمريكي و3000 هندي، وكلهم من السواح، أتوا للتنزه في مدينة - الحياة الجميلة

- وهي المصطاف الوحيد لأعيان الأثرياء من كل الأمم، وقد محت معنوية الطائف التي لا تبعد عنها سوى 20 كم».. وهكذا رأينا سبح خيال كاتبنا المبدع عبر سنين قادمة، وما سيتحقق فيها من رقي وتطور في حياة البشرية، في الحديث عن بلادنا وأيامها المتجددة الحفيلة بالرقي الحضاري، ويجنح خيال الكاتب وتأملاته وتصوراته بعيداً، فرأى - كما أشار في خواطره - الحجاز بعد 500 سنة، قد تحقق بعضه ما تخيله قبل خمسة قرون، وإذا كان في الحياة بقية، ويومها حين تأخذ الأرض زخرفها وتتزين ويظن أهلها أنهم قادرون عليها، كما نقرأ في سورة يونس قول الحق: ﴿**حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أونهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس**﴾.. ويقول العواد: لماذا لا نفهم أن مرارة النقد أجمل من حلاوة العيش».

- «أليس من العدل أن نحتقر الشعب الذي يحتكر الحرية لنفسه ويستعبد باسمها الناس.. اللهم إن المدنية مدنية القرن العشرين، ليست إلا همجية بكل معاني الكلمة»، ص 82 خواطر مصرحة.

- الجمود فى الفكر كالتطرف فيه، كلاهما داء عضال بعقلية الإنسان، فليكن الإنسان حرًا مفكرًا، ولكن ليكن قبل ذلك عاقلاً بصيرًا فالحق دائمًا بين التفريط والإفراط» ص 94، كما تخيله كاتب قبل ثمانين سنة من تاريخ هذه الوريقات التى رسمت الاحتفاء بصاحب التأملات المبصرة الراقية لغد مشرق جميل لمن يعيشه بجديده وتطور الحياة فيه، إلى ما هو أبعد من الخيال، وكما قيل، فالليالي حبالى، وعطاؤهن كل عجيب وغريب، فسبحان الخلاّق العظيم.

* * *

العواد في موازين الآخرين

(1)

قال الأستاذ الناقد عبدالله عبدالجبار عن الأستاذ محمد حسن عواد: «وإذا أمعنا النظر فى شعر العواد، ألفينا أكثره شعراً ذهنيًا، يغلب عليه التأمل الذاتي، والنزوع الفلسفي، ولا تكاد تجد فيه عاطفة أو إحساسًا عميقًا إلا فى النادر، وهو فى هذا يشبه أستاذه العقاد»، وقال: «ولكن شيئًا هامًا تفتقده فى شاعريته، وهذا الشيء هو وهج الشعر وجمال موسيقاه، هو الكهرباء التى تهزنا»[4].. ولعل هذا التوجه فى شعر أديبنا الكبير، هو ما جعل الدكتور حسن الهويمل يسقط اسم العواد من الشعراء، فقد قال مشافهة: إن العواد ليس شاعرًا.. لكن هذا الحكم المتعجّل ينقصه الدليل.. وعندي أن شعر العواد كله ليس

خاضعًا لمنحى الذهنية والنزوع إلى الفلسفة، ذلك أننا واجدون فيه بوارق تنزع إلى التصوير الجميل الماتع، ذي المعاني الجديدة التي تخاطب العاطفة الإنسانية والمعاني المتسقة، التى تنبع من حركة الحياة والجمال فيها، والرؤى المنداحة فى جماليات الكون وما فيه من بديع صنع الله.. وبقراءة كتاب أستاذنا عبدالجبار الذي يحمل العنوان نفسه، إلا أنه يختص بالنثر، وهو مخطوطة مرت عقود على كتابتها؛ وقد طبعتها عام 1423هـ، قال المؤلف: «محمد حسن عواد الذي يدعو إلى حرية عصرية تحارب الأوهام والخزعبلات، حرية فى الألسنة والأقلام والضمائر والأفكار، والحقائق، ولكنها حرية معتدلة، لا تفريط فيها.. وباختصار نكون أحرارًا معتدلين منصفين، لا أحرارًا متطرفين، فإن الاعتدال هو روح التوازن فى كل شيء، والتطرف قبيح جداً بالعقلاء»[5].. هذه الآراء المتطورة ساقها العواد وهو فى عقده الثاني من عمره، وقد كانت رؤاه المتجددة بعيدة المرامي.. كما أعلن أن أحسن وسيلة لتربية العقل هي التفكير بحرية، وعدم قبول الأشياء على علاتها».. هذا المنطلق جاء في – خواطر مصرحة – للعواد، ص 95..

(2)

وحول ممارسة العواد النقدية، تقول أمنة عبدالحميد العقاد في قراءة العواد لديوان البسمات الملونة «للشاعر الأستاذ حسن عبدالله القرشي: «والعواد هنا ناقد وجداني، يعتمد على التأثر الذاتي أكثر من اعتماده على المقاييس الموضوعية، مثل قوله: أرى شعرًا عاطفيًا بحتًا ذا وتر واحد مطّرد، تنعدم بين ثناياه النزعة العقلية»(6).

ولا عيب عندي أن يتخفف الشعر العاطفي من الهيمنة العقلية، لأنه سيجمد، أو يتحول إلى فلسفة حينئذ.. والنقد غير المنهجي الذي توقفت عنده الكاتبة من خلال قراءتها لما كتبه العواد عن بعض دواوين الشعر، مثل: القرشي وإبراهيم فودة، وسعد البواردي، مرد ذلك عندي، أن أديبنا العواد يعتمد على الذائقة، بجانب اهتمامه بالأوزان، والنقد الذاتي التفسيري، والجوانب اللغوية، والنحوية، والبلاغية؛ لأنه لم يدرس النقد المنهجي الذي عرفه الدارسون في الجامعات على أيدي رواد كبار في العصر الحديث، فأتيح لهم أن يتلقوا دراسات عليا متطورة

من مدارس، عبر قراءات جديدة، وما جد من الدراسات الغربية فى القرن العشرين..

(3)

ونجد الدكتور محمد عبدالرحمن الشامخ، فى كتابه: «النثر الأدبي فى المملكة العربية السعودية»، يتوقف عند نثر العواد، ويركز على كتاب أديبنا الأول - خواطر مصرحة - فقال: «إن العواد كان رائداً من رواد الحركة الأدبية التجديدية فى هذه البلاد»، ويشير إلى ذلك الزمن المبكر لبدء النهضة الأدبية فى بلادنا، فيقول: «فإنه قد أصبح فى هذه الحقبة من أبرز هؤلاء الأدباء الناشئين المتحمسين.. ومما يمثل إنتاجه النقدي فى هذه المرحلة مقالة نشرها فى كتابه - خواطر مصرحة - بعنوان «البلاغة العربية»[7]؛ وقد أوضح فى هذه المقالة بأنه حاول جاهدًا منذ بدأ دراسة البلاغة فى مدرسته، أن يكتشف جوهرها، ويتلمسها فى التراث الأدبي لعصور اللغة العربية الأولى فلم يجدها.. ويعلق المؤلف على ذلك، بأن الشاب العواد، لم ينل ما يكفي من المرانة والدرس، حتى يصدر حكمًا بأنه لم يقف على

ما يبحث عنه فى شأن البلاغة، لاسيما فى أزمان العربية الأولى.. ويمضي الدكتور الشامخ فى هذه الوقفة مع العواد التي شغلت نحو ثماني صفحات من كتابه، فيقول: «ولكن إعجابه الشديد بمفاهيم الأدب الحديث قد أعطاه من الجرأة ما جعله يأخذ على عاتقه تلك المهمة العظمى، مهمة تقويم الخصائص الفنية فى تراث الأدب العربي. ولا عجب بعد هذا إن أتت رحلته السريعة خلال القرون مجرد تأكيد لتحيزه لمفاهيم الأدب المعاصر».

ويستعرض الشامخ ما ذهب إليه العواد فى تصوراته، عبر كتب التراث، وهو يبحث عن البلاغة، فيقدم نماذج لكتب قديمة باختياره، مثل: جواهر الأدب، مولد البرزنجي، البردة والهمزية، وما أسماه كتب الأشياخ، والمقامات، كتب السعد والجرجاني، وشعر المولدين، والمعلقات، فى الجرائد، التي وصفها بأنها خروق بالية وأديم ممزق، فتوقف عن البحث، وحين عاد إليه مرة أخرى، نراه يقول: «فوجدتها رعدًا يقصف من نبرات القرآن، ومقالات بعض كتاب سورية، فهززت يدي وصافحتها، ووجدتها وردًا ذابلاً فى مقالات بعض كتاب مصر، ووجدتها فى شعر المتنبي ينبوعاً يحاول الانفجار فلايستطيع.. ثم وجدها فى مترجمات

فولتير وموليير وشكسبير وبايرون وجوته، فقلت: واهاً لمجد شعراء الغرب.

لعل العصرنة دفعت الشاب العواد إلى الانبهار بالأدب المعاصر عند اللبنانين فى المهجر، وفى الأدب الغربي المنقول إلى العربية.. ولعله رأى أن سرعة تطلعه إلى أدب متحرك جذاب فى أسلوبه ولغته وطرحه وأفكاره، ما دفعه إلى الحكم على الأدب القديم بأنه لا يماشي مزاجه، وبالتالى فلا يعجبه، وهو قد وقف وأشار إلى بعض المؤلفات الهزيلة فضرب بها المثل، ولعله معذور، فإن سِنَّه الغضة وتطلعه السريع إلى الجمز صرفه إلى الأدب الحديث المتلألئ، غير أن هذا لا يغني أي دارس عن تراثه العربي ومخزونه العميق الفاعل؛ لأنه عدة من لا عدة له، لكن سرعة التكيّف مع الحياة وطموح شباب متعجّل، أثقله أن يعمق درس تراث أمته.. غير أن أديبنا حين نضج أصبح بجانب توجهه الى الآداب الجديدة، ربما صرفه بعض الوقت عن التراث العربي الزاخر بالكنوز والمعرفة والقوة والعمق..

ويتوقف الدكتور الشامخ عبر هذه الدراسة، عند صدور صحيفة – صوت الحجاز – وما حفلت به من نقدات شبان

متحفزين للجدل والعراك، فيشير إلى نقد العواد للقصة القصيرة التي كتبها الأستاذ الأديب عبدالقدوس الأنصاري بعنوان: «مرهم التناسي»، فتصدى لها بالنقد على منهاجه في العنف. وهذا العنف استمر معه طوال حياته لم يتخل عنه، وكان مرد هذا النقد غضب الأستاذ الأنصاري والمقربين منه، وكما يقول الشامخ: إن نقد العواد لهذه القصة أفرز حربًا كلامية امتد بها الزمن وعنفاً عمقها، وقد جنح العواد إلى هجوم وتعابير قاسية مؤلمة، فوصف أولئك المتصدين إليه بقوله: «ورأى الناس على صفحات صوت الحجاز أوحالاً من أقذار الذهن الكليل ليس من كرامة النفس، ولا من كرامة الفكر أن نتنزل إلى الإجابة عنها»، ويعلن الدكتور الشامخ أن العواد في نقده التهكمي اللاذع متأثر بما صنعه ميخائيل نعيمة، حين هاجم الشعراء المقلدين.

وتصدى يوسف ياسين الذي كان رئيس تحرير صحيفة أم القرى يومئذ - إلى كتابة عشر مقالات، انتقد فيها كتاب خواطر مصرحة إبان صدوره، وكان يوقع تلك المقالات باسم - قارئ - وجنوح يوسف ياسين إلى عدم إعلان اسمه دليل على عنف حال تلك المرحلة، وقسوة المتصدرين للنقد والعراك من شبان تتدفق

الدماء الفوارة فى أوداجهم وشرايينهم ، وأمام من يتصدى فى الساحة للنزال، يجد قوى لا قِبَل له بها من القسوة والقوة والعنف.. ووقفات العواد وتصديه لما أسماهم - المتشاعرين - فنقرأ فى خواطره: «أواه كل هذه أيها المتشاعرون صديد فكري، وقيء لو أنفق العمر أجمعه فى مثلها لما وصل الناظم إلى الشعر.. الشعر جميل، أما أمثال هذه المقيئات فاعلموا أنكم على بعد 987000 كيلو متر من الشعر». ويذكر الشامخ أن نقد العواد: «قد اتسم بالمغالاة والتحدي، ولم يسلم هو نفسه بما عاب به خصومه من تعصب وضيق أفق».. وأكد الدكتور الشامخ أن إنتاج العواد الأدبي، قد أصبح بعد مرحلة الشباب أكثر أصالة وعمقاً.

(4)

ونقرأ فى كتاب عبدالرحيم أبي بكر، قوله: «وقد كان نقد العواد «لديوان البسمات الملوّنة»، نقدًا شاملاً بنّاءً هادفًا، يبين المحاسن ويشيد بها، ويشير إلى بعض المآخذ وينبه إليها».. وعلى جانب آخر، نجد الكاتب يجنح إلى موضوع التجديد فى الحجاز،

فيقول: «وهذا المثل هو الجهد الذي قام به الأستاذ محمد حسن عواد في إبّان النهضة، والأستاذ العواد يعتبر من الشعراء النقاد، بل الرواد في هذا المجال بين جيله، وقد أعطى تيار التجديد منذ شبابه كل ما يستطيع من جهد صادق موفق، وكتب في ذلك مقالات وشعرًا حققا له مركز الريادة».. ثم يشير الكاتب إلى ما حفل به كتاب العواد الأول - خواطر مصرحة - وكذلك كتابه - تأملات في الأدب والحياة - وذلك في اهتمامه بالتجديد في الأدب، وقد أشرت آنفاً إلى أن أديبنا في مطلع حياته الأدبية وفورة شبابه، كان مهتمًا بالتجديد، وأنه رفض الكثير من الأدب القديم رغم أن فيه كنوزاً، هي مرجعية قوية، وقيمة لا غنى عنها لأي كاتب ودارس للأدب العربي، غير أن الأدب المعاصر في المهجر ونحوه جذب أديبنا إليه بقوة، وشغله أكثر من غيره ربما لبريقه وجدته، وأنه أدب حركي ليس فيه جمود ولا حشو لا خير فيه.. ويقف الأستاذ عبدالرحيم أبو بكر عند هجمة العواد على الشعراء المقلدين في خواطره المصرحة، في مقال له بعنوان «أيها المتشاعرون»، فيحمل على الذين يقلدون أساليب القدماء في التخميس، والتشطير، والتشجير، ونحوها من تلك الزخارف..

ولعل بعض أولئك الشعراء المقلدين معذورون، لأنهم وُجِدوا فى زمن راكد مجدب، لم يتح لهم الوصول إلى التجديد، وإلى نهضة أدبية تدفع بهم إلى الإتقان والتجديد، لأن ثقافتهم ضحلة ضيّقة، عمادها بعض الركيك من كتب القدماء، ولم يحن بعد انفتاح بلادهم على الثقافة الجديدة فى الوطن العربي، الذى أتيح له أن يدخل فجر النهضة، والكتاب الجيّد عزيز ونادر فى بلادهم يومئذ، والتعليم فى أول سُلَّمِه، وليس هناك سوى مدرستي الفلاح فى جدة ومكة والصولوتية قبلهما فى مكة، وبعد ذلك العلوم الشرعية فى المدينة المنورة، وإمكانات هذه المدارس لاشك أنها محدودة جداً فى قبول الطلاب الذين يسعون إلى تعليم متطور، ينهض بهم فى حياتهم ومستقبلهم.

وفى وقفة على بعض آراء العواد فى التجديد التي اهتم بها الأستاذ عبدالرحيم؛ كتاب العواد - تأملات فى الأدب والحياة - الذى كتب مقالاته مابين 1932 و1936م، فيقول: «فواجب فى نظرنا أن يتحد الشعر والفلسفة، وبعبارة أجلى، أن يكون شعر الثقافة الحديثة في العصر الحاضر فلسفياً عميقاً جذابًا، إذ ما قيمة الفكر الثاقب المتسلط على أعماق المسائل الإنسانية

مهما تباينت ألقابها، إذا كان هذا الفكر لا يصنع شيئًا قيمًا فى اكتشاف مجهول من عالم المجهولات»(8).

وهكذا دأب العواد فى حملته على الركود ودعوته إلى التجديد بكل السبل، كما فى مقالته «القذاذة فى الشاعرية»، ومعنى القذاذة لغويًا – الشيء ما قدَّ منه سقط –.. وهكذا يمضي العواد فى مطلع حياته الأدبية وشبابه الفوار المتحفز، يحمل باللائمة العارمة على أدب التقليد والمديح فى الشعر، وكذلك الأدب الكاسد كما أسماه، وحتى ترديد الأمثال القديمة، وقومه يقرؤون ويسمعون أن غيرهم من الأمم العربية والغربية قد نهضت بالعلم، وأن الشباب فى الحجاز يتلبسه الخمول والجمود، وهذه الحياة الراكدة لا تليق، ولا توائم تطلع الطامحين، وهم خليقون أن يشاركوا فى نهضة بلادهم إلى السمو، وإلى الرقي المدني والحضاري، وأنهم ليسوا أقل من الشعوب التي نهضت بحياتها فبرزت فى دنياها من خلال كدحها وعملها وطموحها وتطلعاتها الجاهدة.. ولا يشك مخلص واع فى هذا التوجه الذى رنا إليه الطليعة من الشباب الحجازي فى عصر العواد ولداته: الأستاذ محمد سرور الصبان وعبدالوهاب آشي ومحمد سعيد

عبدالمقصود وأضرابهم من الشباب الطامحين، وغير الطامحين لا خير فيهم كما يقول أمير الشعراء..

ونتابع مع الدارس عبدالرحيم أبى بكر فى وقفاته على أدب العواد فى صدر حياته، فيقول: «ويخيل إليَّ أن العواد بنزعته وأسلوبه فى كتاباته النقدية ودعوته إلى التجديد، كان يمثل (مدرسة الديوان) المصرية فى الحجاز، وبخاصة دور العقاد، ولا يبعد أنه كان يتأثره، ففي بعض تعبيراته يلحظ القارئ أفكار العقاد النقدية»، وأنا مع الكاتب فيما ذهب إليه، لاسيما وأن الأستاذ محمد سرور الصبان - رحمه الله - دعم تيار التجديد الذى رفع لواءه العواد فى خواطره المصرحة، فقدم لتلك الخواطر وأشاد بها ونشرها فى البيئة الأدبية، وأن تلك الخواطر مهّدت كثيرًا لما تلاها من إنتاج شعري متجدد، إذ حملت فى دعوتها آراء مستحدثة، ونظرات فى النقد والأدب والحياة، وجهرت ببعض المفاهيم الجديدة التي كانت نتيجة استيعاب، وحقاً فإن ما قدمه الكاتب، هو كما أسماه من بواكير الرواد.. وهذا كله نتاج لتمرد الشاعر الكاتب محمد حسن عواد رحمه الله، ليذيب الجليد ويوقظ النوّام السادرين الخاملين، ويقول لكل واحد منهم: «انهض

فقد طلع الصباح ولاح محمّر الأديم»، والعواد ومن حوله من الطليعة المتحفزة، لم يعهم إيقاظ الرقود، فانتصرت صيحتهم فى مجتمعهم الذي فتح أعينه على فجر جديد، عدته العلم والعمل والإخلاص للوطن، والسعي الجاد نحو حياة كريمة – تبعث الميت فى البلى – كما قال شاعر النيل، فأخطر شيء فى الحياة الدنيا – ميّت الأحياء – كما قال أبو الطيب.

(5)

وتقول السيدة نجاة العواد، ابنة الأديب الرائد، فيما نشر لها من حديث فى مجلة اقرأ فى الحلقة الثالثة بالعدد – 320 – الصادر بتاريخ 1401/6/26هـ، 1981/4/30م عن أبيها أنه: «كان ينادي بتحرير فكر المرأة، وكان يقول لها: «يجب أن يكون لك رأيك المستقل، إذا رأيت أن فكرك ورأيك يخالف المطروح أمامك، فلابد أن تقولي رأيك».. وفي الزواج لا يرى العواد أن زوج المرأة يلغي شخصيتها، وكان يطالب المرأة بأن تشارك برأيها فى كل أمور الحياة، فذلك أجدى للأسرة والمجتمع، لأن الحياة الزوجية شركة بين اثنين».

العـواد . . وهـؤلاء

هذا العنوان لكتاب شارك فيه نـحو خمسة عشر كاتبًا، بدءًا بثروت أباظة وانتهاءً بمـحمد علي قدس، وأشرف على جمـع مادته وطباعته محمد سعيد باعشن، وتجاوزت صفحاته الأربعمائة، والكتاب خال من التاريخ، لكنني رأيت في آخره رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية - 87 - وهذا يعني أنه طبع في عام 1987م، وقد طبع بمطابع دار الوزان للطباعة والنشر في القاهرة - المعادي -، وتلك الكلمات من كاتبيها ثناء وتمجيد للأديب الكبير محمد حسن عواد - رحمه الله - وإن وقفتي ستتركز على نقد للأخ الدكتور عبدالله الغذامي شغل عدة صفحات، بدءًا من 122 إلى 142، وعنوان بحث الدكتور الغذامي: «آراء العواد العروضية، دراسة ونقد»، وفي الصفحة الأخيرة لهذا البحث صورة زنكوغرافية لهذه الدراسة باللغة الإنجليزية عن آراء العواد

العروضية، وعنوان كتاب الأستاذ العواد «الطريق إلى موسيقا الشعر الخارجية»..

يقول الدكتور الغذامي: «لعل أكبر مشكلة فى الكتاب، أن صاحبه لم يفصل فى قضايا العروض التفصيل كله – ولم يوجز الإيجاز كله، وقال: «إنه قصد تبسيط علم العروض، إلا أنه لم يبسط التبسيط كله، ولم يلتزم الالتزام العلمي كله، أي أنه – وبشكل قاطع وواضح - لم يحدد لنفسه منهجاً يسلكه فى كتابه» .. ويقدر الناقد أن مؤلف هذا الكتاب لم يكتبه دفعة واحدة، وإنما كتبه منجّمًا، وربما عبر فترات متباعدة، مما جعل منهجه فى الكتابة يختلف بين جزء وأخر.

ويرى الدكتور الغذامي أن توجه العواد إلى تبسيط قواعد العروض «أوقعه فى افتراضات خاطئة في هذا العلم، مثل محاولته تغيير وزن البحر المنسرح، وكذلك المقتضب، إذ قدم تفعيلات لهذين البحرين لا يمكن تطبيقها عليهما، وقد أثبتنا ذلك بمقارنته بأمثلة من العواد نفسه».. محاولة المؤلف – تعديل تفاعيل بحر المنسرح.. ويبدي الناقد أنه حاور «اقتراحات العواد

باستبدال التفاعيل الخليلية بأشكال هندسية، أو تقديم جمل ذات مدلول لغوي بدلاً من التفعيلات، ثم قضية استخدام نظام المقطع للشعر».. ويؤكد الناقد أن العواد في استخدام نظام المقطع كميزان للشعر «ناقل لا مبتكر، وأن محاولته تنقصها الدراسة والتمحيص مما جعلها تقصر عن بلوغ حد الابتكار، ولكنها تلقي الضوء على تجربته كشاعر لا كناقد».. ويرى الناقد أن مشروع العواد في التبسيط: «أوقعه في أخطاء لم يتنبه إليها، وربما كان مردها التسرع إلى الأخذ بالفكرة قبل دراستها وتمحيصها».. لكن الدكتور الغذامي لا يبخس أديبنا جهده، فنجده يقول: «وليس للمرء إلا أن يقدر للعواد فتح الاجتهاد في تنويع موسيقى الشعر وفي محاولته فك القيد في تجريب ما تنتجه الأوزان العربية من أشكال عروضية مختلفة» وقال الكاتب في آخر المطاف: «والعواد يعد أحد رواد التجديد والداعية له منذ مطلع حياته، وكتابه - خواطر مصرحة - شاهد على ذلك».. ويشير الناقد إلى محاولة الكاتب في التبسيط قد أخطأ حسبما حوّل بحر إلى آخر، فنجد ذلك فيما رسمه الناقد الغذامي في نقده:

من :

مستفعلن مفعولات مستفعلن   مستفعلن مفعولات مستفعلن

إلى:

مستفعـلن فاعـلـن مفاعلــتن   مستفعـلن فاعـلن مفـاعلــتن

خلال محاولة العواد تغيير وزن بحري - المنسرح والمقتضب - كما أشرت آنفًا، نرى الدكتور الغذامي يقول في ذلك: «وكان حريًا بالعواد أن يغفل هذين البحرين مادام التبسيط هدفه، لاسيما وإن كاتباً حداثياً - كإبراهيم أنيس - قد أغفلهما إيمانًا منه بتوجه «الأخفش» وقال: «ولسنا نجد شاعرًا أتى بعد - الأخفش - فكتب فيهما شعراً.. فالتحديث فى أمرهما إثقال على دارسي هذا العلم دون جدوى».. وهذه الدراسة المتخصصة التي قدمها الدكتور الغذامي من خلال قراءته لكتاب الأستاذ العواد: «الطريق إلى موسيقا الشعر الخارجية».. سرني أن أجدها فى كتاب يضم الإشادة والثناء على رجل خليق بذلك..

* * *

وأجد فى صفحتي كتاب «العـواد وهؤلاء»، تحت رقم – 3 – رؤية معاصرة حديثة لا تحمل اسـم كاتبها، فنقرأ فيما عرض، وهو كما ذيل فى الصفحة الأولى منه، أنه قد نشر فى مجلة – اقرأ – بالعدد (477) الصادر بتاريخ 1404/9/21هـ.. نقرأ ما قاله كاتب تلك السطور: «حين قرأت مقالة الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار في جريدة الندوة، التي ينتقد فيها شعر شاعرنا الراحل الكبير محمد حسن عواد، ومقارنته بشعر الأستاذ محمد حسن فقي.. غرابة هذا النقد، أنه جاء بعد موت العواد.. والأغرب منه التشكيك الذي جاء فيه للانتقاص من إيمان الأستاذ العواد الذي هو بين يدي الله» .. وفى تضاعيف تلك السطور نقرأ فيها: «معظمنا يعلم سر الخلاف الذي كان قائمًا بين الأستاذين العواد والعطار .. ويذكر المهتمون بالحركة الأدبية المعارك التي دارت بينهما والتي آثر الأستاذ العطار الصمت فى آخرها.. ويبدو أنه وجد الفرصة الآن ليقول رأيه بحرية في العواد بعد وفاته، وأعتقد أن وجه الخلاف بينهما، عدة قضايا، كان أبرزها نقد العواد لديوان العطار «الهوى والشباب» وكشف سر خطير نشره العواد فى «الأضواء»[9]، والذي كان أحد أطرافه الشاعر المصري فوزي

العنتيل، كان هذا كفيلاً بإيجاد فجوة في العلاقات واختلاف الرأي بين الأستاذين العواد والعطار».. ولعلي في حل اليوم أن أنبش فى القبور، حول ديوان العطار المشار إليه أنفًا وما قيل فيه في هذا الكتاب الذي جمع ما حواه محمد سعيد باعشن رحمه الله.. أن هذا الديوان حوله شكوك في نسبته إلى الأستاذ العطار، وأن كلامًا قد نشر في صحيفتي الأضواء والرائد، يبين الاتهام وما إليه، وصرفت النظر عن العودة إلى تينك الصحيفتين، ابتعاداً عن الوقوع فيما أكره اليوم لغياب صاحبه أو أصحابه، وكذلك قضية التثبت من الاتهام، والى الله ترجع الأمور.

* * *

آراء العواد والآخرون

ونقرأ في كتاب العواد وهؤلاء - ص «246»، عن العواد وتشجيع المرأة السعودية، وأنه خاض في جدال دفاعًا عن أدب المرأة.. ومن ذلك مناصرته للشاعرة ثريا قابل ودفاعه عنها إلى حد يشبه الغلو، حين قال: إنها أشعر من شوقي، وأشعر من الشريف الرضي، بعد إصدار ديوانها «الأوزان الباكية».. ولا ننسى نزاله للكاتب الناقد الأستاذ عبدالعزيز الربيع في صحيفة المدينة.. وقد فتشت عن مقالات الأستاذ الربيع في كتاباته في الصحف، التي جمعها مشكورًا الأستاذ محمد صالح البليهشي، عضو مجلس إدارة نادي المدينة المنورة الأدبي بالأمس فلم أجدها، وسألت الأخ البليهشي عن ذلك، فقال: إنه لم يصل إليها.. وأستاذنا العواد مثل أديب العربية الكبير عباس محمود العقاد في عنف الهجوم والملاحاة، والقسوة، إلى حد المبالغة التي

لا حدود لها، وكلا الرجلين يمارسان أساليب القوة غير المقبولة عند الملتزمين، فنقرأ في – العواد وهؤلاء –: ومن أبرز معاركه مع هؤلاء الأدباء، معركته مع الناقد الراحل عبدالعزيز الربيع والشاعر الأستاذ حسن عبدالله القرشي، بالغ العواد في مديحه للشاعرة ثريا وأغدق عليها بالكثير من النعوت والصفات، منها: «خنساء الجزيرة»، و«ساجان السعودية» – وغيرهما.

وأذكـر من خلال قراءاتي لردود العـواد ودفاعه عن الشاعرة، جنوحه إلى ما يشبه التبكيت في غير محله، حين يصف الربيع بأنه: معلم صبيان، والعواد نفسه كان معلم صبيان في مدرسة الفلاح بجدة التي تخرج فيها وإن كان لم يزد عن عامين دراسيين كما أقدر، والحجاج بن يوسف كان معلم صبيان في الطائف، قبل أن يلتحق بركب بني أمية، حتى أصبح أمير الرافدين، وتعليم الصبيان ليس سبة، ولكنه وظيفة شريفة، يكفي نعتها – بمعلم – ورحم الله شوقي القائل: «قم للمعلم وفّه التبجيلا»، ولا ننكر أن العواد في كتاباته كان دائمًا يتطلع إلى الغد ولا ينظر إلى الوراء، ويدعو إلى الإعداد والاستعداد له عبر حياته، وهو مواطن غيور، محب لهذا الوطن، وهو شجاع قوي،

كان ذا صوت بعيد متمرّد، وكان ذا موهبة مبكرة، حفزته للبروز والتحدي، بعزيمة لا تعرف التراجع، ولا التخاذل، ولا الهزيمة.

(6)

في مقدمة كتاب خواطر مصرحة، التي كتبها الأستاذ عبدالوهاب آشي - رحمه الله - وهي مقدمة ضافية رائعة من روح الخواطر نفسها، قال الأستاذ الآشي: «فرأيت الأديب ذهب مذاهب شتى في خواطره، بين نظرات في الحياة الأدبية ودروس في الاجتماع ومواعظ لكبح جماح الأمة عن غوايتها، وهو في كلها حر الفكر، صريح الرأي، شديد اللهجة».. وقال كذلك: «وإن هذه الثورة الفكرية أو الأدبية عندي أنجح سعي وأسرع نتيجة لأولئك الذين يريدون أن يُحيُوا كوامن النفوس، ويحركوا جوامد الأفكار، وينطقوا صوامت الإحساس والوجدان».

(7)

في كتاب «شوقيات وشوكيات»، الذي جمع أطرافاً من مقالات الأديب المربي الناقد عبدالعزيز الربيع رحمه الله: بمجهود

محب صادق وفي، هو الأستاذ محمد صالح البليهشي، صدر هذا الجزء وغيره من إنتاج الربيع عن النادي الأدبي في المدينة المنورة، في طبعته الأولى عام 1420هـ، 1999م، نقرأ في ص – 218 – وما بعدها، ما كتبه الأستاذ الربيع بعنوان: «وللعواد مع المعلمين قضية».. بدأ الكاتب حديثه بقوله: «أيها السادة المعلمون.. ما أهون شأنكم.. وما أسخف عقولكم، وما أتفه أعمالكم.. أيها السادة، نعم أيها الأساتذة جميعاً ابتداءً من العاملين في الجامعات، وانتهاء بالعاملين في رياض الأطفال، لا يهم كم أنتم مخدوعون، حين تظنون أنفسكم شيئًا، وحين تتصورون أنكم تؤدون واجباً مقدساً، فلستم في الواقع إلا أناساً آليين.. إن الذي يجب أن تعلموه جيداً هو أنكم «قشر»، ولستم «لباباً، وعرض – ولستم – جوهراً – وقصديراً، ولستم – ذهباً»..

ويمضي الأستاذ الربيع في بث القضية التي بدأها بعنوانها، ومبتدأها، أن محرراً في إحدى صحفنا، يقدم باباً بعنوان «كل شيء».. وشرع هذا المحرر الشاب يسعى إلى فريق من أدبائنا، ليكتبوا له مقالات بعنوان – ذكريات معلم سابق – ويذكر الربيع أن نفراً من هؤلاء الأدباء استجاب لطلب المحرر،

منهم الأساتذة: «أحمد قنديل وضياء الدين رجب ومحمود عارف» - رحمهم الله - وكانت كتاباتهم كما يشير الربيع من الأدب الرفيع والخلق السامي، ومن هؤلاء الكتاب الأستاذ محمد حسن عواد رحمه الله. فقال الربيع: «وكان مقاله نشازاً بين هذه المقالات»، وكان عنوانه - المهنة التي كنت نشازاً فيها -.

ونقرأ مقاطع من حديث العواد حيال ما طلب إليه المشاركة فيه: «قال لي طلال إنه يريد مني أن أكتب عن ذكرياتي كمعلم سابق، كما كتب في ذلك أصدقاء لنا من الكتاب، فقلت له: يا بني إن مهنة التعليم بالنسبة لي كانت نشازًا في حياتي»، ويمضي العواد في حديثه: «كانت على غير رغبة مني في الاشتغال بهذا العمل، كانت مدتها المؤقتة قصيرة الأجل، وكانت في مدرستين مختلفتين، إحداهما شعبية - أهلية - والأخرى حكومية.. ولأنني كنت حدثًا يافعًا لم أنضج بعد، وكان الكثير ممن وُضعوا أمامي ليكونوا تلامذتي يكبرونني بالسن، وإن كان كثير منهم أيضًا يصغرونني، ولكن الجو الذي يحيط بالجميع كان غير قابل للتفاعل الآلي.. ولأن نفوري من هذه المهنة ومن هذا الجو الآلي، جعلني لا أهتم بواجبات التدريس أو التعليم، كما يراد، وبالطريقة

التي تراد. وأسأل الله الرحمة والغفران، لأن رجلين زجّا بي فى هذا المجال، وهما الفقيدان السيدان عبدالرؤوف جمجوم وكيل رئيس مدارس الفلاح، والحاج محمد علي زينل علي رضا رئيس هذه المدارس، فقد كانت السمة عندهما أن يحسنا إليّ بهذه الوظيفة، لأعول والدتي الأرملة وشقيقتي اليتيمة، وأن تستفيد المدرسة من ذكاء خيّل إليهما أنني أختص به بين طلبة القسم العلمي فى المدرسة.. ولست أنكر أن بين المعلمين قسماً يحمل فى رأسه فكرة مشروع الفضيلة، وحب العدالة العامة والوعي والحرية في التفكير والمعرفة المنتجة، ويحمل في قلبه رسالة خدمة الأمة عن طريق هذه الأمانة التي وضعها الله في أعماقه، وزادت بمقومات خلقية وفكرية تساعد على أدائها.. ولن يكون أفراد هذا القسم إلا فلاسفة ومفكرين أو فنانين عباقرة لهم القدرة، ولهم الاستعداد لهذا العطاء»..

إن بسط آراء العواد والتعليق عليها في كتاب الأستاذ الربيع أخذ أو شغل خمسًا وعشرين صفحة.. ورأيت الربيع يركز على كلمات بعينها - منها وصف المعلم بالآلية مثل قوله: «أما

المعلم الذي يمارس التدريس آلياً كمهنة يتقاضى عليها أجرًا فبعيد جدًا عن مستوى هذه الطبقة».

لقد نقلت كلام العواد كما وجدته في صفحات الربيع - كاملاً -، حتى يحيط القارئ بهذا الموضوع، الذي أرى أن الأستاذ الربيع قد بالغ في الإساءة إلى المعلمين بمحمل لم نجده فيما ألقى به العواد، فالرجل عمل مكرهًا في التدريس مدة لا تتجاوز سنتين دراسية، ولما لم يجد نفسه في تلك المهنة تركها.. وحين يفند العواد قضية المعلمين، فالحقيقة أن ليس كل من مارس مهنة التعليم هو جدير بهذه المهنة الشريفة، ولا أعدو الواقع حين أقول اليوم إن هذه المهنة كانت رسالة فأصبحت وظيفة.. وليس معنى ذلك التعميم في هذا الوصف، غير أن شرائح كثيرة وكبيرة توجهت إلى هذا المجال من أجل لقمة العيش، ونسمع من يقول إن قطاعًا من الناس من الجنسين حين فشلوا في الحياة العامة - أي الوظائف - جنحوا إلى التعليم.. وخلافات الأستاذ الربيع مع الأستاذ العواد - لاسيما في قضية ديوان شعر «ثريا قابل» ومبالغة العواد في الإشادة بهذا الشعر وكاتبته، أثار ذلك الجدل المتقد بين الكاتبين خصومة عارمة.

إذًا فإن السطور الأولى من حديث الربيع التي أوقد نارها، ليزج بالعواد في تحقيره للمعلم ليس حقًا، وقد رأينا أقوال العواد التي ساقها الربيع في هذه القضية.. ومن المؤلم أن اختلاف الرأي يفسد للود قضية، وليس صحيحاً أنه لا يفسد للود قضية كما يردد كثير من الناس.. أما نقد الربيع واعتراضه على آراء العواد في شعر «ثريا قابل»، فإن الحق مع الربيع، لأن هذه الشاعرة فى تجربتها الشعرية الأولى، لايمكن أن ترقى إلى شعر شوقي، ولا الشريف الرضي، ولا خناس، كما يلقب رسول الله ﷺ «الخنساء».. غير أن العناد والمكابرة يقودان إلى كثير من الأقاويل التي تتجاوز طبيعة العقل المدرك، وإلى المبالغة والمكابرة والإصرار على بث آراء مغلوطة.. وقد رأينا كثيرًا من هذه التجاوزات في العصر الحديث، فالمازني والعقاد وطه حسين وزكى مبارك ومن إليهم، بالغوا في توجهات خاطئة، ثم تراجع كثير منهم، ومعركة الرافعي مع العقاد مردها، توجه العقاد نحو التجديد والرافعي لا يريد أن يتجاوز الأدب القديم، وهكذا دواليك.

* * *

آراء العواد وردوده

قبل أن أسجل آراء أديبنا محمد حسن عواد وردوده على الآخرين، رأيت أن أجعل في صدرها أبياتًا من شعره وجدتها في كتاب - أدب الحجاز - الذي ضم في صفحاته كما قال جامعه الأستاذ محمد سرور الصبان أنه : «صفحة فكرية من أدب الناشئة الحجازية - شعرًا ونثرًا -» وقد صدرت الطبعة الأولى منه في 20 رمضان سنة 1344هـ.. يقول العواد في ص (32) تحت عنوان - حقائق في الوطنية والاجتماع -:

متى نرتقي المجد الصريح المخلدا ... ونكتب في التاريخ فخراً مؤيدا
متى نملك الشأو الرفيع جلالةً ... ونرمي إلى العلياء سهماً مسددا
أنبغي المعالي بالتقاعس ضلةً ... ونطلب عزاً في الخليقة رقّدا
أما وجلال المجد ما المجد مدرك ... بغير جهاد يجعل الشعب مسعدا

إلى أن يقول:

الا انجدونا ياشبيبة قومنا بآمال شعب مدّ للنجدة اليدا
الا اسعفونا بالحياة فإننا إليها عطاش نبتغي اليوم موردا

وددت أن أنقل نماذج من شعر أديبنا الكبير وخواطره، كقصيدته - فلسفة محب - في ديوانه «نحو كيان جديد»، التي مطلعها:

ياحبيبي، أراك بادي القطوب واقفاً، كالمتيم المسلوب
ترمق العابرين، منقبض النفـ ـس، وعيناك برقها كاللهيب

أو قصيدته - من الحجاز وإليه -، ففي تحيته للحجاز، يقول شاعرنا:

من هنا شع للحقيقة فجر من قديم، ومن هنا يتجدد
أدب نابه، يقدمه الشعب إلى الناس من بلاد «محمد»

ومنها:

سيّد العالمين، من رفع الفجر أمام الظلام حتى تبدد

وكذلك قصيدته، التي عنوانها، تحية العقاد، التي حيا بها كاتب العربية حينما زار الحجاز في عام 1365:

يا إمام البناة للأدب الحي بمصر وشاعر الأجيال

فتسامى إيماننا بك فنا ... نأ رفيع الذرى شديد المحال
قل، فإن الحياة قد أطلقـ ... ـت منك شعوراً يزين كل مقال

وكذلك قصيدته، إلى الدكتور طه حسين، حين زار بلادنا فى عام 1374هـ، 1955م، مع وفود من الوطن العربي، حيث عقد مؤتمر أدبي لبضعة أيام، وكان الأستاذ العميد يومها - رئيس اللجنة الثقافية - في جامعة الدول العربية، قال العواد فى تحية الأستاذ العميد، في الحفل الذي أقيم تكريمًا لهذه الوفود برئاسة الأستاذ العميد:

التحايا مظاهر الإجلال
والمزايا مقومات الرجال
من يحي الحجاز
من يكرم الثغر المدوي
من أثارت «أيامه» الغر أياماً حلت بين غرة وحجال
كاتب الشرق
حامل المشعل الوضاء للجيل
جاحظ الأجيال

حارس الفكر واليراع من الغفلة والمسخ والبلى والزوال

باعث العقل في افتقاد المعري

مبدع الفن بالأداء المثالي

ناشر العلم كالهواء وكالماء

فاعرفي يابلادي للرجل الأمثل، فضل النبوغ، فضل النضال

لعل هذه الأبيات تجزي كنماذج عابرة، لأنتقل بعد ذلك إلى أراء أديبنا الكبير من خلال بعض ما كتب، في المجلد الثاني من أعماله الكاملة.

يبدو أني سأعرض عن أراء العواد في خصومه، لأن في ذلك نبشًا للقبور، حين أسوق ما يمكن أن يُسمى عنفًا من خلال كتابات العواد وهجماته على من يخالفه في الرأي.. وقد أشرت آنفًا إلى شيء من ردود الفعل، فإذا استثنيت تلك الملاحاة التي كانت بينه وبين الشاعر الأديب الكبير حمزة شحاته – رحم الله الأديبين – فنجد في صحافتنا مثل – البلاد السعودية – نقدات بين العواد والعطار، وأذكر بالمناسبة أحد ردود العواد وعنوانه:

«العطار يخَرّف» ونظم العواد قصيدة قافيتها ألف ممدودة، وكانت قافية أحد أبياتها كلمة - سمحاء - فبادر العطار إلى تصحيح تلك الكلمة، وأن صحتها «سمحة» لغوياً: فنظم العواد بيتًا من الشعر بألفاظ أدبية قديمة ونشر ذلك في صحيفة البلاد السعودية، وكانت يومئذ الصحيفة البارزة، بل الأولى، ونسب البيت كما قال إلى شاعر قديم، لم يذكر له اسمًا، لكن العطار وهو يشبه العواد - مناكفاً - رفض ما أقدم عليه صاحبه، وقال: إنه وهم.

ونجد هجمات العواد على صاحب المنهل الأستاذ الرائد عبدالقدوس الأنصاري ، سواء نقد بعض إنتاج الأنصاري، أو ما كان ينشر في المنهل من آراء تخالف آراء العواد أو تنتقد بعض كتاباته، مثل النقد الذي مارسه الباحث والكاتب الكبير حمد الجاسر رحمه الله في نقده لكتاب العواد - محرر الرقيق - فرأيت في رد العواد العنيف على الأستاذ الجاسر، وهو أي الجاسر لم يكتب اسمه في نقده، فأخذ العواد يكيل له التجهيل.. والعجيب أن رد العواد لم يتعرض لما ألقى به الأستاذ الجاسر من نقد لكتاب محرر الرقيق، والتوجه نفسه الذي مارسه الأستاذ

العواد مع الأستاذ عبدالعزيز الربيع حول ديوان «الأوزان الباكية» للشاعرة «ثريا قابل»، والخطأ الذي يحسب على أديبنا العواد في تصديه لما لا يعجبه من كتابات الأدباء، أنه يبتعد عن جذر الموضوع الذي يلقي به صاحبه، وينصرف إلى أمور جانبية، كلها هجوم وتسفيه آراء.. والذي يريد أن يقف على أنموذج من ذلك، فإنه واجده في آخر كتاب - محرر الرقيق - من «310 -331»، في رد العواد على ما أسماه «المجهول المنهلي».. والحال هي هي في تناول هذا الرجل للآخرين ممن يتصدى لآرائه بأي مساس لمخالفتها.. ولأن مناسبة هذا التناول، هي تكريم الكاتب الشاعر الرائد محمد حسن عواد، أول رئيس لهذا النادي الذي عنى بأديبنا الكبير، فأقام ملتقاه - قراءة النص - السابع، لدراسة آثاره.. والناس تعودوا في الاحتفاء، أن لا يزجوا بالسوء لمن سعوا إلى المشاركة في درسه والحديث عنه، لاسيما بعد رحيله إلى الدار الآخرة، ويبقى درس آثاره للباحثين المهتمين بذلك، ليقولوا عمن يتناولون ما له وما عليه، أو كما قال الأستاذ العميد لدى استقباله للأديب الكبير توفيق الحكيم في مجمع الخالدين، قال الدكتور طه حسين في مستهل كلمة الترحيب والاستقبال:

«صديقي الأستاذ توفيق الحكيم، حسب الناس لك وحسبوا عليك».. وقد أمرنا ديننا بذكر محاسن موتانا، وفيما سواه فأمره إلى الله.. وفي ختام هذه الوقفة العجلى، فإني أشيد برفقاء الدرب في هذا النادي الأدبي الثقافي على تخصيص هذه الحلقة من قراءة النص، لأديب كبير، قدم الكثير من خلال كتاباته الإصلاحية، شعرًا ونثرًا، وكان في كل ذلك مخلصًا وفيًا صادقًا، وحقه على وطنه أن يكرمه ميتًا، إذ لم يتح له أن يكرم حيًا، ففي ذلك بعض رد الجميل والوفاء للأبناء البررة الموفين، والوفاء سمة الأمة ذات المروءة، وكذلك العرفان بالرموز من أبناء الوطن الغالي، والحمد لله على توفيقه وفضله.

* * *

الهوامش

(1) خواطر مصرحة، ص 114 .

(2) طريق التطور، ص 192، تأملات في الأدب والحياة .

(3) ص 57 من خواطر مصرحة .

(4) التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية، 1959، ص 292.

(5) التيارات الأدبية - النثر في المقالة - ص 26/25.

(6) ص 128، محمد حسن عواد شاعراً، رسالة ماجستير، طبعت سنة 1405-1985.

(7) وقفات الشامخ مع العواد، بدأت من ص 100-114 .

(8) الشعر الحديث في الحجاز، ص 276 إلى 293 .

(9) صحيفة كانت تصدر بجدة قبل نصف قرن .

* * *

أطروحة: «ثقافة التخلف»(*)!

كان يسعني أن أتجاهل أطروحة عثمان التي كتبها عنّي إذا كان مصيرها سيكون مثل الكثير من أمثالها في سراديب مخازن الكليات والجامعات.. لكنني قدّرت أن صاحبها قد يسعى بها يوماً ما إلى قناة أو وسيلة من وسائل النشر الكثيرة اليوم في بلادنا، وحينئذ سيجد من يقرأها اتهامات وإدانات كثيرة حسبها صاحبها عليَّ، وأكون أنا في الحياة الآخرة، لذلك بادرت إلى تصحيح ما رأيت من أخطاء شخصية تمثل حياتي الخاصة؛ وهي كثيرة نسبها إليَّ - عثمان - ؛ دون أي دليل يثبت ماقال..

وكنت أوثر لو أن جامعاتنا وكلياتنا عرضت الأطروحات التي تتحدث عن أشخاص أحياء، وددت أن يبعث بهذه الرسائل الجامعية إلى من يكتب عنهم، ليصححوا الأشياء المغلوطة التي كتبت عن حياتهم، وليس الآراء الدراسية عن إنتاجهم، فهذه

(*) نشرت عبر حلقات في المجلة الثقافية الصادرة عن مؤسسة الجزيرة للصحافة والنشر خلال عام 1429هـ الموافق 2008م.

تخضع لمقاييس واجتهادات الكاتب ونصح المشرف على الأطروحة وأمثالها، وعثمان لم ألتق به ولم يرني رغم أنه قريب هو في الرياض وأنا في جدة، وقد اتصل بي عثمان مرات معدودة يسألني وكنت أرد عليه في أمور يسيرة لا تكفي ليكتب عني مائتي صفحة فيها الكثير من التجاوزات التي سأمر بها لأبينها له ولقارئ هذا الرد التصحيحي.. وليس الهدف الدافع لي أن الرسالة كتبت عني ولم يعجبني ما حملت من نقد، إنما الدافع الحق تلك المغالطات التي لو وقفت عليها وهي تعنى بغيري وأعلم بحق جوراً فيما قرأت لسارعت إلى الكتابة رداً على من مارس أموراً ليس له فيها حق وذلك من باب الغيرة ورد المظالم والتجاوزات، ولاسيما في غياب من تعنيه.. ويبدو أن جامعاتنا وكلياتنا لا تقيم وزناً نحو بعث الأطروحات التي تكتب عن الأحياء ؛ ليصححوا الأشياء المتعلقة بحياتهم، أما النقد للآثار فيبقى كما كتب ؛ يتحمل مسؤوليته صاحب الرسالة ومايختص بالمشرف وهيئة التحكيم.. وأوشك أن أقول إن هيئة تحكيم رسالة عثمان والمشرف لم يقرأوها، وهم قريب مني يعرفون الكثير عن حياتي، لأن ما كتبه صاحبها فيه أخطاء سجلها عليَّ وليس لديه أي دليل، وهو قد رصد في مصادره ترجمة حياتي، وما قاله عني لم أقله

فيما كتبت ولم يأت به أحد سمع مني ما كتب عثمان، وهي أخطاء كاذبة أفتى بها قائلها، وهذه الرسالة الضعيفة وأمثالها تقبلها جامعاتنا وكلياتنا ليزيد ركام الهزال عبر قبول أطروحات تحسب على من أجازها، وجامعة الملك سعود عرفنا قوتها عبر إدارتها وكذلك هيئة التدريس فيها ؛ وسمعتها قوية بين جامعاتنا، والمفترض في الأطروحات الهزيلة أن ترد إلى أصحابها ليتقنوا الدرس ثم يقدموا ما يَشرفون به وما يحسب لمصدرها الذي تصدر عنه، ولا يحسب عليها ما لا قيمة له..

وأريد أن أعلن أن رسالة عثمان صدرت بتاريخ هـ 1423/7/22هـ - 2002/9/29م، وأفضل أخي الدكتور عبدالعزيز السبيل فبعث إليّ يومها بنسخة منها، وكنت يومئذ في معمعة قيامي بمسؤولية نادي جدة الأدبي الثقافي فلم أطلع عليها ووضعتها جانباً، وحين فرغت إليها ساءني ما فيها، حتى إني قدرت أنها لم تقرأ من المشرف وكذلك - لجنة الحكم -، وليس هذا اتهاماً ؛ غير أن الإفتراء الذي فيها يدفعني إلى ما قلت، وإنني أدلل على تلك الشواهد الكاذبة ؛ وقد فتشت عن درجة نجح صاحبها فلم أر شيئاً، فقدرت أنها في مستوى - المقبول - الذي لا يعوّل عليه، لكن صاحبها يفاخر بها على اعتبار أنه

درجة علمية من جامعة ذات تميز في مستواها العلمي، وكونها الجامعة الأولى في بلادنا، ظهرت منذ نصف قرن، وذلك كافٍ على مكانتها التاريخية ومستواها العلمي.. وإني أستأذن أخي الدكتور إبراهيم التركي في استعارة عنوان كتابه - ثقافة التخلف -، لأجعله عنوان هذا الحديث ..

في مقدمة الأطروحة قال عثمان عني في الصفحة الأولى: «درس ثم طرد وعمل ثم طرد»، وقال مرة أخرى في آخر سطر من الصفحة الأولىٰ في مقدمته: «وحين طرد من المدرسة ذهب يبحث عن معلم حتى استطاع الوقوف على قدمين هزيلتين».. ولست أدري من قال له ذلك أو: أين قرأ ما تفضل به عليّ؟.. وفي سيرتي الذاتية قلت كل شيء عن حياتي، فلو طردت من المدرسة أو من أي عمل مارسته لقلته بكل شجاعة وقلت أسبابه؛ وتترى الإساءات، بوصف قدمي بالهزيلتين! وصدق الحق القائل : «ولا يحيق المكر السيئ إلا باهله».. وإني أشهد القراء على افترائه ليكونوا والتاريخ شهوداً، وكفى بالله شهيداً..

وقال في ص: «7» «وكان يتخذ من قراءة القرآن مصدر دخل له ولأمه».. وأنا لم أقل ذلك في سيرتي الذاتية، وإنما قلت

إن شيخي الذي كان يحفظني الكتاب العزيز، حينما يطلب ورفاقه حفظة كتاب الله، وهذا أمر يحدث في الشهر أو الشهرين أو أكثر من ذلك، يحدث مرة فيصحبني معه رحمة بي لأقرأ جزءاً مما حفظت وبيدي الجزء، وبعد تناول الطعام في منزل المتوفى يعطي ذووه لكل قارئ دراهم.. فهل هذا يا أستاذ مصدر دخل؟ ومواقف كثيرة شبيهه بهذا سأتوقف عندها.. وهذا القول المرتجل الخاطئ ؛ يبعث على السخرية من صاحب أطروحة قيمتها كقيمة صاحبها..

ويركز عثمان على مصاحبتي للأستاذ محمود عارف رحمه الله، ويردد الوقفات عندها بلا دليل.. والحقيقة أن المدة التي صاحبت فيها أستاذي العارف كانت قصيرة جداً، كانت أياماً معدودة لم أكمل فيها الجزء الأول من نظرات المنفلوطي، قرأت مجموعة صفحات ثم توقفت القراءة وبدأت أعتمد على نفسي بعد الله.. أما صداقتي العميقة معه فقد امتدت حتى وفاته، والرجل كان من الندرة في الوفاء والمروءة والإيثار، لكن الاستاذ عثمان جمعان يركز عبر صفحات رسالته على تلك الصحبة الكريمة ويجعلها لدرس متصل حتى النهاية، وأنا أستطيع أن أسجل

أرقام رسالة عثمان من أولها إلى آخرها، التي يردد فيها ديمومة الدرس والتلقي، وحين أسجل عليه هذه المآخذ فإن هذه الأطروحة تصبح ليست بذات قيمة! وأن صاحبها يشبه سالق البيض، وأن درسه هذا هزيل، وسيظهر ذلك عبر وقفاتي المتتابعة، وما هكذا تكون قيمة الرسائل الجامعية التي يعتد بها، وقد قرأت أنماطاً منها كانت قيمة وذات قيمة، وأضرب مثلاً برسالة أخي سعيد السريحي عن أبي تمام وهي في مرحلة الماجستير وأمثالها في المستوى المتميز كثر، ذلك أن أصحابها متميزون وجادون وأساتذة..

وفي ص «17»، من الفصل الأول من الرسالة قال في السطر الثاني: «بعد وفاة أبيه قدم هو وأمه في موسم الحج إلى المملكة العربية السعودية»، وبين وفاة الوالد ومجئي ووالدتي عشر سنوات، وخلالها مارست حياة وأعمالاً شتى، وأقول ذلك لأدلل على جمز عثمان وقفزه بلا ريث ولا تسلسل، وهذا ما ينبغي أن لا يكون.. ولو كان الرجل دقيقاً وجاداً لاستفاد من – حكاية الفتى مفتاح –، فقد سجلت فيها كل شيء حسب تسلسل حياتي وحركاتها بما يشبه الدقة، وأنا امرؤ – غلبان –، شهادة دراستي

المخروقة كما قال الإصدار الأدبي لمؤسسة الجزيرة الصحافية، فتلك الدراسة المنتظمة ثلاثة عشر شهراً، ولو كانت حالي كحال السيد عثمان جمعان في طول مراحل الدراسة، اثنتي عشرة سنة في التعليم العام، وأربع سنوات في مرحلة البكالوريوس، ونحو أربع أو ثلاث سنوات في تحضير أطروحة الماجستير، عمر فتى يمكنه من الزواج.. لكني أرفض أن أكونه، لأني لم أر نبوغاً، ولا تميزاً، ولا ما يفيد أن رسالة الماجستير هذه تستحق أن تكون شيئاً ما، وأن تنسب إلى جامعة قوية متميزة ذات شأن.. وحين أفرغ من غربلة هذه الرسالة سيقف القارئ على ما يخجل من الأخطاء التي لا تغتفر، وقد أتيح لصاحبي كل وسائل العون من المصادر، والأخ عبدالله الزميل في النادي الأدبي الثقافي بجدة، كان يمد عثمان بكل ما يطلب من كتبي وما إليها.. ومن تقصير عثمان أنه لم يكلف خاطره بالسعي إليَّ لأرد على أسئلته وما يعنيه، لكنه لم يكن حريصاً على ذلك، وبالتالي لم يكن مهتماً ولا يريد أن يتعب نفسه مادام كل شيء بين يديه من خلال طلباته المتواصله.. وعرفت أصحاب الدراسات حراصاً على مقابلة من يكتبون عنهم ومحاورتهم في أدق الأشياء، والأستاذ عثمان استغنى مادام قد حصل على كل المصادر، غير أنه في المحصلة

أخفق ولم يوفق، وهو وحده يتحمل تبعة ما آل إليه في سعيه المحدود؛ لكنه سعي لا يستحق صاحبه أي شئ من القيمة ، ذلك أنه يشبه – طواحين الهواء – ..

ونرى تداخلاً أو سوء تركيز، ففي الصفحة نفسها – 17 – ، نقرأ قوله: " ثم التحق بالصف السادس من بداية العام الدراسي، بعد أن أكمل في مادة الإنشاء ونجح في الدور الثاني".. ولاحظت أن عثمان – لا يُجمّع – كما يقال، ولاحظوا قوله، وأنا أنقل من أطروحته وليس شيئاً من عندي.. الأستاذ قال إنني التحقت بالعام الدارس بالصف السادس بعد أن أكملت في مادة الإنشاء، وهذا يعني حسب فهم عثمان أن إكمالي كان وأنا في الصف الخامس، وقد قلت في سيرتي الذاتية إن الإكمال كان في الشهادة الابتدائية في السنة السادسة، كما قلت إن مقرر سنة خامسة درسته في الحرم النبوي الشريف؛ ثم التحقت بالسنة السادسة، ولم أقل إني امتحنت في مقرر السنة الخامسة.. وإني أشير إلى خطأ مازال يقع كل حين، وهو ما يسمى – الدور الثاني –، والصحيح أن يقال – الدور الآخِر –، بكسر الخاء، وسبق أن نبهت إلى ذلك في زاويتي – وعلامات –،

التي كانت تظهر في جريدة الجزيرة، لأن كلمة ثاني تعني أن هناك ثالثاً ورابعاً إلخ ؛ كما هي الحال في ربيع الآخر وجمادى الآخرة..

وقال الأستاذ عثمان لا فض فوه في ص – «18»: في الفترة التي عاشها في بداية حياته في جدة كان مشحوناً بضغوط نفسية كبيرة تتمثل في فقره".. وأقول فتح الله عليك يا عثمان ! من أخبرك بدائي أو أدوائي حفظك الله من كل سوء، وهل قرأت في قرطاس ما أفضلت به أم تطوعاً منك؟ يا أخي من واجب المسلم أن يتمنى لأخيه المسلم الخير والسعادة وليس شحنات من ضغوط نفسية، يسوقها من خياله ، وهي محسوبة عليه لأنها ظن كاذب وافتراء .. وقال في الصفحة عينها إنني لم أستطع مواصلة دراسة مسائية – لبعد عهدي عن الجو المدرسي –، وليس ذلك صحيحاً، وإنما الصحيح أنني لم أستطع ذلك بحكم الجانب المادي من جهة ثم إن عملي لا يتيح لي بذل مجهود ليلي أتعلم فيه، وقال الأستاذ صنع الله له في الصفحة ذاتها شاكراً له مواساتي وإن لم يفعل ولم يوفق، قال: «وربما شكل رسوبه في مادة الإنشاء انكساراً كبيراً في داخله»، وقال بعد ذلك

مباشرة بورك فيه: «وزاد من حدّة ذلك الإنكسار ضعفه في القراءة»؛ سلمت براجمك، فهل كنت تعايشني يومها حتى لو كنت لم تولد، وهل تطوع أحد بمدك بما وصفتني به أم هي نزعات شيطانية ووسوسات تأتي إليك عبر أحلام مزعجة؟ كل هذه الشظايا في الصفحة إياها.. وقال في ذيل تلك الصفحة : «إن الأستاذ محمود عارف كان أحد طلاب مدرسة الفلاح»، وأضيف إلى معلوماته، أن الأستاذ عارف كان أحد أعضاء هيئة التدريس في تلك المدرسة.. وكما قلت آنفاً إن عثمان يخلط الأمور بعضها ببعض، ويردد الإتيان باسم الأستاذ محمود عارف تباعاً ، فقال حفظه الله في ص «19» عندما سلم أبو مدين أمر تعليمه لمحمود عارف أرشده إلى نظرات المنفلوطي يقرؤها ويلخصها"، ثم قال مباشرة وهو يتحدث مجدداً عن إرشادي من قبل الأستاذ عارف لقراءة نظرات المنفلوطي، قال عثمان: «لكنها بالإضافة إلى ذلك أثرت في أبومدين بأمر بالغ الأهمية في مسيرته المعرفية فيما بعد حيث حددت اتجاهه المعرفي على الأدب النفعي».. وهذا حشو زائد ليملأ به جمعان صفحاته ، وكأنه حريص على قوله – المكرر يحلو –، وهل كل مكرر كذلك، لست أدري !؟.. لقد كنت أنشد الأسس في القراءة السليمة والمزيد من القاموس اللغوي، ذلك ما

كنت أسعى إليه، وأعيد القول إن مدة قراءتي للنظرات كانت قصيرة ، لكن بعد ذلك قرأت المنفلوطي في كتابه - العبرات - وبكيت حين قرأت فصلاً منه عنوانه «اليتيم».. ولو تواصل معي عثمان لقلت له الكثير، ولراجعت معه رسالته إلى ما يفيده ولا يهمني من ذلك إلا أن يكتب الصحيح الحق ، أولا يكتب عني ويتحوّل إلى غيري فقد يكون أجدي لي وأجدى له ! ولكنه لم يفعل فوقع في أخطاء يتحمل تبعاتها وحده..

وأعيد القول رداً على ما سجله صاحب الأطروحة، أن تلك القراءة السريعة لنظرات المنفلوطي، كنت ألتمس من ورائها سلامة القراءة، بعيداً عن قضايا النقد التي أؤكد أن بيني وبينه مراحل طويلة، أما تلك فكانت قراءة بدائية.. وأقرأ في ص (20) مما سجله عثمان من تكهنات قوله: "لعل الدرس يرتكز في إيصال رسالة إلى التلميذ مفادها أن النجاح ليس قريباً، ولا سهلاً".. وأؤكد أنه لا شيء من هذه التكهنات كان عند الأستاذ عارف ولا خطر بباله، فالرجل كريم ويحب أن يعين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. وقال الأستاذ عثمان في الصفحة نفسها عني: فراح يحفظ النظرات كما يحفظ النصوص الشعرية؛ مما أبقى لدى أبو

مدين شعوراً عميقاً بقيمة الأدب الإنساني».. وهذا القول لا قيمة له لأنه تهويم، ذلك أن حفظ النثر ليس سهلاً ولا يُقال به، وإنما هي قراءة للفهم التركيبي، وعثمان كثيراً ما يفترض أشياء لا وجود لها في مخيلة أستاذي، وأتساءل: هل حفظ النصوص النثرية شيء سهل، ربما عند عثمان ذلك؟! ثم من قال له هذه الأوهام التي أتى بها من عنده – إن هذا إلا اختلاق – وشيء مضحك قوله: "فراح يحفظ النظرات كما يحفظ النصوص الشعرية"، وأقول شتان ما هما! وأنقل من ص – 20 – إلى – 21 – ، قول الكاتب الطلعة: «ولعل هذا الأمر ديدن كثيرين من أقرانه ومجايليه، الذين كانوا يستأنفون قراءاتهم بحفظ وقراءة كتب المنفلوطي».. وأقول إنني لم أحفظ شيئاً مما كنت أقرأ للمنفلوطي ولا لغيره، وكنت في زمن متأخر أحفظ شيئاً مما يعجبني من الشعر للمتنبي وأمثاله.. وقال الأستاذ عني: «وأنه بدأ نشاطه الكتابي في فترة مبكرة حيث كان المقال الأول له بعد سنة واحدة فقط من قراءاته على محمود عارف».. وإني محتاج أن أضع خطوطاً حمراً تحت هذا الكلام وعلامات استفهام، ذلك أنني كنت أخربش كليمات مساحتها دون الربع عمود في صحيفة المدينة في أموراجتماعية يسيرة، ولا يسمي هذا نشاطاً كتابياً، ولا م

كتبته يمكن أن يطلق عليه مقالاً، لكن صاحبي يوهم نفسه ويوهم غيره.. وقال عني نقلاً عن حرصي في الحصول على مجلة الرسالة في ذلك الوقت المبكر؛ بدافع طموحي وبتوجيه أستاذي العارف رحمه الله ، قال الأستاذ: «كان يستحثه على قراءة مجلة الرسالة ومع أنه كان يسهر ليلته فرحاً بالغنيمة التي نالها "..

وهذا كلام يمكن أن يكتبه تلميذ في المرحلة الإعدادية أو الثانوية على الأكثر، فأي تعبير هذا الذي يكتبه رجل على أبواب نيل الدكتوراه.؟ وقال حفظه الله في الصفحة إياها حول وعن مجلة الرسالة: لأن طرحها كان أكبر من إدراكه، باعتبار تجربته الأدبية لم تزل في البدايات الأولى، فكفايته اللغوية التداولية لم تحقق التفاعل المأمول بعد، وهذا يعني أن الموضوعات التي كان يفهمها في مجلة الرسالة غالباً ما تكون من الموضوعات الأدبية النمطية».. أقول لصاحبي: فتح الله عليك، لأنه جاهل، إنك لم تر الرسالة ولا تعرف عنها شيئاً، إذ لم يكن فيها عبر حياتها التي بلغت عشرين سنة، وصدر منها ألف عدد، لم تكن تنشر إلا الأسمى من الأدب الرفيع القوي .! وأعجب من هذا الجهل في عصر العلم، والرسالة لم تكن نمطية، وإنما كانت قيمة عالية من معارف كتابها الكبار، مثل طه حسين؛ والعقاد؛ والرافعي؛

والمازني؛ وهيكل؛ والبشري؛ والحكيم؛ ومحمد سعيد العريان،أبو خلدون ساطع الحصري، وسيد قطب، وأحمد أمين، علي الطنطاوي، عبدالمتعال الصعيدي، محمد عبدالله عنان، أحمد تيمور، محمد عوض محمد، محمود محمد شاكر، مي زيادة، عبدالوهاب عزام ، زكي مبارك، خليل هنداوي، زكي نجيب محمود، وصاحب المجلة، وشعراء كثر من مصر والشام وغيرهما، وصدق المتنبي القائل:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وذكر الأستاذ في ص – 22 –، أن الرسالة منذ العدد الأول أبدت اهتماماً بالقضايا الإسلامية.. وأقول بل الثقافية أولاً والأكثرية كذلك، والأسماء التي سقتها وهي من كتابها في سنيها المتتابعة كلهم من رجال الفكر، والاهتمام بالقضايا الإسلامية لا يعني أن جل أو حتى بعض اهتمامها بها إذا استثنينا الأعداد السنوية التي كانت تصدر مع مطلع شهر ربيع الأول من كل سنة.. وساق الأستاذ في تلك الصفحة ما قلت عن عشقي للأدب وذكرت فريقاً من كتاب الرسالة من كبار الأدباء، وقال تعليقاً على توجيه العارف لقراءة الرسالة، قال: وهذا سيكون له انعكاس على

أبو مدين «الصحفي»، ولعله نسي أنني بدأت حياتي – بالأدب –، وباكورة إنتاجي «أمواج وأثباج» ولم أكن في الصحافة يومها لا من قريب ولا من بعيد، والصحافة شيء تال كان في أواخر عام 1376هـ، على حين أنني بدأت أمارس النقد في عام 1370هـ، ولعلك تصحح معلوماتك المغلوطة، ذلك أن الصحافة شيء والأدب شيء آخر..

وتحت عنوان: «الإذاعة والتلقي الشفاهي:، قال الأستاذ في ص – 23 –: «يعد الاستماع إلى الإذاعة أحد الروافد المعرفية في ثقافة أبومدين، تشكلت أهميتها بحكم عدم وجود وسيلة للتسلية المنزلية سوى المذياع».. وهذا كلام غير صحيح، فإذا قلت فيما سجلت عن نفسي إن ارتباطي بعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بدأ من خلال أحاديثه في إذاعة السودان من القاهرة، فهذا لا يعني أن لي صلة وثيقة أو غير وثيقة بالمذياع، لكن صاحبي جسم هذه القضية وأخذ يدنن حولها ليريطني بما أسماه التلقي الشفاهي كقضية، وأنا لا تعنيني التسلية، ذلك أن وقتي كتاب ؛ وذلك منذ وقت مبكر جداً ؛ أيام عرفت المنفلوطي رحمه الله، ومنذ أن قرأت قول أبي الطيب: «وخير جليس في

الزمان كتاب»؛ والقراءة لمن يتذوقها خير شاغل، والذين ليس عندهم ما يلهيهم قديماً وحديثاً ؛ ربما هم الذين يشغلون فراغهم بالمذياع، كما يشغلونه اليوم بالقنوات الفضائية ؛ وهم كثر من الجنسين ؛ وأنا لست منهم، ولم يكن المذياع في يوم من الأيام مصدر ثقافتي، ماعدا أحاديث الأستاذ العميد أيام زمان لفترة لم تطل ؛ وكنت أحياناً أستمع إلى الأحاديث الأدبية عند بدء إرسالنا الإذاعي، وكان المتحدثون أكفاء يستمع إليهم.. واستدرك صاحبي على نفسه في الصفحة نفسها فقال: «ولعل استماعه لم يكن خالصاً للتسلية، بل يكاد ينصب لغاية نفعية».. ومع ذلك فهو غير واثق من الهدف، وذلك حين يقول: ولعل، بل يكاد، وليقل ما يشاء فله رأيه وشأنه: قل كل يعمل على شاكلته؛ كما جاء في الكتاب العزيز.. ومن خلال حديث الأستاذ النابه الصادق حول صلتي بالمذياع كما قلت آنفاً لمناسبة ووقت ما، قال لا فض فوه عني: «فقد كان يعيش وضعاً مادياً مسحوقاً، ووقتاً ضيّقاً من ناحية أخرى»، وقال حفظه الله: «ومعنى ذلك أنه لولا وجود طه حسين في ذلك البرنامج لما انفق وقته وماله للاستماع للمذياع».. الأستاذ يقول إنني كنت أعيش وضعاً مادياً مسحوقاً، ولو كنت أدري أنك كنت في الوجود يومها لمددت إليك يدي لتتصدق عليَّ،

ولا أخال أنك كريم يقصدك المحتاجون ؛ لأن حديثك ينبئ عن نفس شحيحة ، ياأخي أنت مالك؟ وهل شكوت إليك أو إلى غيرك حاجتي؟ ومن قال إنني كنت مسحوقاً؟ وأي مال أنفقته في الاستماع إلى حديث لمدة نصف ساعة؟ أما وقتي فلم يضع، وماذا يعنيك من هذه الأمور البعيدة عن أدب النفس وأدب الدرس، وإذا سلمنا أن ليس فيك شيء من أدب النفس، فأنا أعجب أن يصدر عن جامعة لها كينونتها واحترامها؛ يصدر عنها هذا العبث الصبياني، لكن في تقديري أن المشرف عليها والمحكمين لم يقرؤوها ؛ وهذا لا يعفي الجامعة من مسؤوليتها الأدبية.. وإذا كنت أنت قليل أدب فجامعة الملك سعود كما عرفتها وعرفها المنتسبون إليها بدءاً من مديرها ونوابه وعمداء الكليات وهيئة التدريس، جميعهم حراص على قيمة جامعتهم العالية وسمعتها ؛ وهم يأبون أن يصدرعن قسم اللغة العربية هذا العبث السخيف، والذي يدفعني إلى هذا القول إنه ليس بيني وبينك مغارم ولا خصومات يؤدي ذلك إلى أن تسيء إليَّ بلا سبب، إذا علم أنني لم أسع إلى فضلك لتتصدق عليَّ بالكتابة، وكان يسعك لو كنت شجاعاً وكريماً، حين عرض عليك إن صح ذلك أو طلب منك أن تكتب عني وأنا لست أهلاً لحرف تجود به عليَّ ؛ أن

تعتذر وأن تقول : لا! لكني لا أتصورأن إنساناً عنده ذرة من ضمير يسيء لمن لم يسيء إليه ولا يعرفه ولم يلتق به! كان يسعك أن تصرف النظر عني أو تقول قولاً معروفاً وإن تحدثت من علِ، ذلك أن السماحة خلق، والتعامل خلق، ومخالطة الناس خلق، والحياة الكريمة خلق، ورحم الله أمير الشعراء القائل:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوِّم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها في خير عافية ... والنفس من شرها في مرتع وخم

وقال السيد: «الإذاعة – وسيلة الاتصال – بأن المتلقي لرسالتها – السهلة دائماً»..، يكيّف المضمون بما يتناسب مع دوافعه اللاشعورية وتوقعاته ورغباته". وهذا كلام فيه نظر، فليست رسالتها كلها سهلة إلا في بعض برامجها الإخبارية وما إليها، لكنها وسيلة تثقيف للعامة مثل الصحافة.. وإذاعتنا وربما غيرها حينما بدأت بثها كانت أحاديثها أدبية ودينية واجتماعية ، فليست إذاً سهلة كما قال الأستاذ، وأذكر أن إذاعتنا كانت تعتمد في برامجها المحدودة الوقت على الأدب والأحاديث الدينية في كل برامجها يومئذ ثم نشرات الأخبار ، ولعل في مصر مثل ذلك، لكن من قال لعثمان إن رسالة الإذاعة "سهلة دائماً" من هداه إلى

هذه الديمومة التي زعم ؟ فإذا كانت البرامج علمية وأدبية وسياسية ودينية وفلسفية، أتكون في هذه الحال سهلة دائماً؟ وفي صفحة – 25 –، قال عثمان: «ولأن أبو مدين رأي في الإذاعة كنزاً معرفياً ، فإنه يعدها كنزاً للفقراء الذين لا يجدون ما يشترون به الكتاب، ففي رأيه أن الذين لم يتح لهم فرصة شراء الكتاب وقراءته، بإمكانهم تعويض ما فاتهم من خلال الطريقة الآنية، المكتوبة والمسموعة في التلقي المعرفي، وهذا ما حدث له بالضبط حينما افتقر إلى الكتاب من خلال الطريقة الصحفية»..

لا أدري أأسمي ما قال أضغاث أحلام أم تخريفاً يسوقه هذا الرجل تطوعاً من عنده؟، فأنا لم أقل ذلك، وهذا المفبرك لما يقول لا يتورع أن يقولني ما لم أقل.. وصدق من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم القائل: «إن مما حفظ الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، وإذا كان صاحبنا من الأغنياء فإن الفقراء يغنيهم الله من فضله ليحصلوا على ما يريدون، وفي الصفحة عينها قال: «فإن أبو مدين من خلال كتاباته، يوحي بتساوي طرق المعرفة عنده، سواء أكانت مسموعة كالإذاعة أو مقروءة، بل ربما يفضل الاستشهاد بما استمع إليه على ما قرأه"، ورب سائل يقول لعثمان: من أوحي إليك بهذا؟

وهذا خلط لو كتبه لصحيفة لألقت به إلى سلة المهملات! ثم من قال لك إني أعمل رقيباً لمحطات الأذاعة أستمع إلى كل أو بعض برامجها لآخذ منها ما أحتاج وما أريد؟ وأنت تربطني بالإذاعة كأنها طعامي ومنامي وحياتي! ثم من قال لك إنني أبو العلاء المعري أو طه حسين أحفظ ما أستمع إليه لأكتبه وأستشهد به؟ أنا أعجب من هذا الخلط الذي لا صحة ولا حدود له ؛ وأنا انقله إلى القارئ ليدرك الإسفاف وهزال ما قال في رسالة جامعية، وليس درساً إنشائياً كالذي أخفقت فيه أنا، يكتب هذا الدرس طالباً أو طالبة في المرحلة الإعدادية، ولم أقل الابتدائية كما كنت أنا يومئذ! إنني أقرأ العجب العجاب مما قال عثمان، وإذا كان من رجاء أوجهه إليه أن يطبع رسالته لكي يطلع عليها القراء ويضحكوا من هذا «العجر والبجر» الذي فيها، وأنا كنت أخشى طباعتها قبل هذه التعرية التي أكتبها اليوم، مع أني واثق أن القارئ ذكي يدرك الغث من المتمين، وإني أعلن على صفحات هذه المجلة الثقافية أنني مستعد أن أطبعها على حسابي الخاص، وإن كان ذلك فيه إساءة للجامعة التي منحته ما نسميه مجازاً نجحاً، وليس في شطر كبير منها ما يستحق أن يغدو ذا قيمة ؛ لأن صاحبها يكتب بلا دليل في هذا الخلط الذي نقلت بعضه ومازال

أمامي الكثير وأمام القارئ ما سوف أنقله في كتاب أصدره دفاعاً عن نفسي تجاه تهم لا قبل لي بها، وما قاله عثمان زاد مفلس ، وأقول رداً على ذلك الحشوالفارغ من المحتوى الذي نقلت بعضه: شتان بين الاستماع والقراءة، وإذا كان الحشو لتملئة صفحات الرسالة، وأن مآلها إلى مخازن المهمات فلا ضير، لكن الكلام الفارغ الذي بها محسوب على صاحبه.. والعجب أن يقول عثمان أعانه الله على فهمه وإدراكه في ذيل ص - 25 -: «إن المواد البسيطة السهلة التي تقدم من خلال الإذاعة، يسهل تذكرها، أكثر من نفس المواد إذا قدمت من خلال الوسائل المطبوعة، خاصة بين الأقل تعليماً والأقل ثقافة، وهذه شروط توفرت في أبو مدين»، أقول له: أعانك الله على هذا الفهم المتميز الذي يجعلك بعيد الصوت بين نخبة المثقفين في الوطن العربي وربما في غيره! وأنا الذي ضربت به المثل ؛ شكر الله لك، لا أستطيع أن أجاريك في هذه المعارف التي أبديتها في رسالتك الجامعية الحفيلة بالثقافة الحقة التي ربما لا نهاية لها، ومثلي حسبما أفضلت ووصفت لا أستطيع أن أجاريك في علمك وثقافتك، لكني أرجوك وألح في الرجاء أن توافقني على طبع رسالتك على حسابي، ليستفيد منها القراء الواعون أمثالك ؛

ويهتف لهم الذين هم أقل تعليماً أمثالي كما قلت : شريطة أن لا يعينك أحد على إصلاح مافسد فيها من أحكام وتعبيرات فاسدة .. ولعل صوتي يبلغك ويبلغ القادرين أمثالك أن يتطلفوا بإعانتنا على فهم ما نستطيع إدراكه ليرفع ربما مستوانا وفهمنا، عسانا أن نبلغ بعض ما عندك، ويتاح لنا شكرك والثناء عليك، لأنك أفضلت بتوعيتنا وتحديد مستوانا التعليمي، وعسى أن نبلغ شيئاً من شأوك، حفظك الله..

وقال الأستاذ عثمان وقد جمعت له كتبي لينقل منها ما يشاء ويطالع ما يريد لكي يكتب واقعاً وشيئاً صحيحاً وليس تهويماً يكذبها الصحيح، وأين هو من الصحيح الحق؟ قال في صفحة – 26 –: «في الفترة التي سبقت إصدار كتابه الأول أمواج وأثباج الذي كانت الطبعة الأولى منه في 1378هـ – 1959م، أي في فترة لم يزل فيها تلميذاً يقرأ ويصحح له حفظه وواجباته في التلخيص عند محمود عارف في نفس الفترة تقريباً».. أقول له يا شاطر يا حامل الماجستير ولست تلميذاً في المرحلة الابتدائية، وربما تلميذاً واعياً أكثر منك وعياً ودقة.. مر من الزمن أكثر من عقد؛ فأنا في عام 1370هـ، بدأت في نقد كتاب

شعراء الحجاز، فما هذا الهراء؟ لقد مر يا ذكي ثماني سنوات بين تاريخ إصدار كتابي - أمواج وأثباج - وتاريخ ممارستي لنقد كتاب شعراء الحجاز، فكيف تقول إنني عند إصدار كتابي ذاك لم أزل فيها تلميذاً أفلا تعقل وتراجع ما تقول وتكتب ليس مقالاً عابراً وحتى هذا يصحح لك ويرد عليك، فكيف بك وأنت تعد أطروحة الماجستير؟!

ويجدد ويعيد طحنه ! ألا تعي ما تقول ؟ ففي الصفحة نفسها - 26-: «فذكره لطه حسين في كتاباته يبرز بسبب استماعه إلى المذياع، سواء أكان في شكل إبراز إعجابه به، أو كان على شكل مداخلة له مع ما يطرقه طه حسين في إحدى أمسياته».. الأستاذ الباحث يلصقني بالمذياع وكأنني فيه ليل نهار حتى المبيت والمياكروفون والراديو في عنقي أنام وأصحو على ذلك.. أما الأستاذ العميد فمدة الاستماع إلى أحاديثه، كانت قصيرة جداً، أما قراءة كتبه فقد كان لي من ذلك نصيب ليس كثيراً ؛ والاستماع إليه كان في وقت مبكر في عام 1374 في الشهور الاخيرة من ذلك العام، ثم كان مجيء الأستاذ العميد إلى بلادنا مع وفود من الدول العربية ؛ وكان الدكتور طه رئيس

اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية وذلك في أول يناير 1955، وكنت أستمع إليه وهو يلقي خطابه في فندق قصر الكندرة أولاً في ثم مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر بجدة..وما اسماه عثمان – مداخلة – مع العميد يبعث على الضحك ، لأنه عبث تعبيري لجهول !

إنني لست حريصاً على متابعة جميع صفحات أطروحة صاحبنا وصفحاتها نحو المائتين، لكني مضطر إلى الوقوف على الصفحات التي تزدحم بأخطاء كثيرة، لعلي بذلك أخدم صاحبها ليستدرك على نفسه إذا شاء.. ويعلق صاحبي على المقارنة التي اهتم بها الأستاذ عبدالسلام الساسي بين الأديبين الكبيرين عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين ، فيقول عن إجابتي زاده الله معارف: "وهذه الإجابة لا تتفق على ما طلبه الساسي منه، أي أيهما أفضل؟" .. وأقول إن الحكم المطلوب القطع به مثل الحكم بين شاعرين، لأن لكل منهما خصائص يتميز بها ؛ ولذلك فالحكم بأن أيهما أفضل شبه مستحيل.. والأستاذ الساسي رحمه الله قَبِل إجابتي التي أدليت بها، أما أن الأستاذ يرفضها فذلك شأنه؟ وليفضل اليوم فيقول لنا أيهما أفضل أم أميز لينال

الجائزة التي تليق به كباحث له شأن يحتاج إلى رأيه ويسمع إلى حكمه.؟ وفي الصفحة - 27 -، تحت عنوان «الصحافة والمعرفة الآنية»، قال الأستاذ: «منذ بدايات أبو مدين وهو يقضي وقتاً كبيراً في القراءة الصحفية، سواء ما كان تحت رعاية محمود عارف، أو عندما بدأ مشواره الصحفي في الأضواء ثم الرائد. والمعضلة الأولى التي جابهت أبو مدين، تتمحور في أن المعرفة الصحفية تعد معرفة آنية، تشبه دائماً بوجبة خفيفة، لا تسمن ولا تغني من جوع» إلى آخرهذا الدرس الذي ألقاه عليَّ وعلى قراء أطروحته المتميزة.. والكلام الذي قاله الأستاذ البارع غير صحيح، والأستاذ محمود عارف رحمه الله أصبح صديقاً وليس موجهاً ولا مستشاراً استشيره فيما أكتب، فقد أصبحت في استقلالية تامة، ومنذ عرفت القراءة، كنت أدرك أن الصحافة ليست مرجعية ثقافية، ومن قال إنني عنيت غير الأدب موجهاً ومرجعية، والصحافة كانت وظيفة أداء.. وحين أقول إن عثمان يخرّف ويفترض أشياء يلصقها بي لا أساس لها، وإن ما قاله عني عثمان عبث في صور تخمينات لا قيمة لها ولا يعوّل عليها ، وإنما هو افتراء عليَّ.. وحينما كنت أمارس الصحافة في فترة الأضواء كان ثم رقابة تمارس واجباتها، أما في الرائد فقد كانت

مجلة أدبية، والعدد الأسبوعي من عكاظ كان يهتم بالأدب أكثر من اهتمامه بالصحافة التي تمارسها الجريدة اليومية من عكاظ .. فكيف كنت أقضي وقتاً كبيراً في القراءة الصحافية؟ وهل كان السيد عثمان يخالطني ويعايشني يومها أم أن هواجسه قالت له ذلك؟! وأكبر الظن أن أقسام الصحافة في جامعات العالم تشكر لك هذه النصائح التي ربما يستفيد منها طلبة أقسام الصحافة هنا وهناك! ومن قال لك إن الصحافة كانت تداعياتي إلى المعرفة؟ إنها يا صاحبي تهويماتك جعلتك تضرب أخماساً لأسداس، وأحسن الأستاذ حين قال: "إن القراءة الصحفية لا تقدم معرفة يعتمد عليها، كما تقدمها الكتب، وأنا أشكره على هذا التوجيه الكريم.. وقال عني في ص – 28 –: التي فيها نصائحه: «وبقي طويلاً من الزمن تجتذبه رياح الصحافة في كل اتجاه، ما بين صاحب صحيفة، وبين موظف يتقاضى بضع مئات من الريالات مقابل عمله في الجهاز الإداري في إحدى الصحف».. وكذب في قوله إنني بقيت وقتاً طويلاً تجتذبني ما أسماه رياح الصحافة، وأجد الفضول والكلام الفارغ الذي لا يليق بأطروحة جامعية تصدر عن جامعة عريقة كجامعة الملك سعود تحترم نفسها، ولم يبق إلا أن يحدد الأستاذ مقدار المئات من الريالات التي كنت

أتناولها من وظيفتي.. وقال الأستاذ الجامعي المنتظر أن يصبح معيداً في إحدى جامعاتنا لأن بيده ماجستيراً في الأدب، وربما ينال بعد ذلك الدكتوراه؛ إذا كان النجح بهذه السهولة، وقد فات عليَّ أن أنال شيئاً من هذا النجح وهذا التميز.. وقال في الصفحة ذاتها: "كان انتقال أبو مدين من المدينة إلى جدة بعيداً عن آمال الصحافة والكتابة، فقد كان وكده أن يجد عملاً يعيش منه، لكنه كما يبدو كان له موعد مع الحظ" إلخ.. وكذبت مرة أخرى، فقد بدأت أكتب في النقد الأدبي من عام 1370هـ، ومارست الصحافة في نهاية عام 1376هـ، وقد قضيت سنوات أقرأ وأكتب قبل ممارستي الصحافة، وفي الصحافة كنت أكتب أدباً، فأنت لم تقرأ ولم تدرك، ولكنك أخذت تتخيل عشوائياً في توجهي وممارساتي الكتابية، والحظ كما قال الأستاذ عباس محمود العقاد ؛ إذا جاء فإنه عامل مساعد، ولكنه ليس كل شيء، والأصل هو الجد والمثابرة ؛ فتح الله عليك اجتهادك واستنباطاتك الأخاذة وزادك منها جميعاً..

في ص - 29 - قال عن معرفتي بالأخ محمد سعيد باعشن رحمه الله: «فكانا يجتمعان يحييان سمرهما بالنقاش في

أدب الساحة على قدر قراءتهما، ويبدو أن النقاش ذات ليلة أتى أكله، فأثمر صحيفة الأضواء».. والحقيقة أننا لم نكن نجتمع، ولم نكن نتسامر، بل نتلاقى أحياناً صدفة في الطريق من غير ميعاد، والتقينا مرة أو مرتين عند الأستاذ الكبير محمد حسن عواد.. ولم نجتمع ذات ليلة ولا ذات نهار ؛ وإنما اللقاء الوحيد يوم زارني محمد سعيد باعشن في الجمارك حين كنت موظفاً جمركياً ، زارني بلا ميعاد ؛ وهو اللقاء الوحيد الذي ذكرته في كتابي: «وتلك الأيام»، أخذ منا ساعة وبعض الساعة تم فيه كل التحاور والعزم على اصدار صحيفة اسمها «الأضواء»؛ وليس سوى ذلك.. وذكر عثمان: «استعدادات متواضعة من المال والمعرفة والخبرة»، والصحيح أنه لم يكن هناك مال ولا شيء منه، ولم تكن هناك خبرة ولا معرفة، ولكن كل ما كان عون الله، ثم العزيمة والطموح.. وقال الفاضل: «بدأ طريق أبو مدين يتضح أمامه، فأضاءت له موقع خطواته الأولى في عالم الأدب، الذي سيلجه بقلم الصحفي»، وأقول: بل تعلم قراءة الأدب وحده ..

وتحدث عثمان في ص – 30 –، عن بدء ممارستي في مجلة – الرائد – بعد توقف صحيفة الأضواء التي كنت مشاركاً

فيها مع محمد سعيد باعشن، فقال: «وتعد هذه التجربة أنجح من سابقتها ، وأكثر اتزاناً منها، ولعل ذلك يعود إلى الخبرة التي اكتسبها من خلال تجربة الأضواء، إضافة إلى خبو نار الحماس الذي كان في صدره».. وأقول له بل توازني أنا وحدي.. وأقول له: كلا! لم تخب حماستي وإلى اليوم بفضل الله، والدليل إشرافي على «العدد الأسبوعي من عكاظ» أكثر أو نحو عامين، و- 25 - سنة في قيادة النادي الأدبي الثقافي بجدة ، وتخمينك هواء.. ويردد عثمان بعقلية منغلقة: «وبدأت تتكون عنده بعض المعارف التي كان في أمس الحاجة إليها، ولم يستطع تحصيلها من قبل، وربما يعود ذلك إلى ضيق ذات اليد فيما مضى، وأثناء عمله في الرائد»، ونغمة صاحب الأطروحة الهزيلة، عالقة فيه كحال الفقر يتكئ عليها في كل وقفة من وقفاته عبر حديثه عني، وهو لا يدرك أن ضيق ذات اليد ليس عاراً ولا عجزاً، وعند الطامحين يدفعهم إلى الكدح، وأنا أردد أن الترف لا يربي أمة، وإنما مرد النجح بعد توفيق الله تدعمه وتدفع إليه الإرادة الحقة.. وعبر حديثه السابق قال: «استطاع أن يوسع خطواته في المستقبل، وأن يغير مواقع أقدامه فيما بعد».. والأمر ليس تغير مواقع أقدام يا خبير، وإنما هو ارتقاء؛ إن صح هذا التعبير..

-

في ص – 31 –، قال عثمان إن بدء عملي في عكاظ بدأ في شهر شوال وشرعت في الإشراف على العدد الأسبوعي من عكاظ، والصحيح أنني بدأت في عكاظ مديراً للإدارة منذ عام 1391هـ ثم كلفت بمهمة العدد الأسبوعي مع حرب رمضان 1393هـ ، أكتوبر 1973م.. وقال الأستاذ: «كان يقوم باختيار المواد الصحفية ويمارس بالإضافة إلى ذلك الكتابة الاجتماعية، ولكن بهامش ضيّق من الحرية فرض عليه من مدير عام المؤسسة آنذاك».. وصاحبي يخلط في أوراقه مما ينقله لأنه ربما كان عجلاً وغير مهتم في قول الحقيقة، ومن جهله أنه حتى النقل المباشر لا يحسنه ولا يتقنه .. وأنا لم أكن أتحرك في هامش ضيّق من الحرية إلا عبر أيام معدودة ومحدودة، حين انتقدت بلدية جدة، والموضوع بسطته في كتابي «وتلك الأيام»، ولا داعي لأنقل القصة هنا فهي قد كتبت هناك..

ويجمز عثمان في حديثه كأنه فزع، وليس من ينهض بكتابة دراسة تتطلب الوعي والصدق والقدرة والأناة والدقة والحرص فيما يدرس وينقل ويتحدث، فهو يمارس عمل – سالق البيض –، المهمة تنتهي في دقائق ثلاث .. وقال في ص – 32 –: «وحتى بيع

أسهمه في صحيفة البلاد»، كان ذلك عبر حديثه عن سني ممارستي الصحافية، والرجل يخلط بلا وعي، ذلك أنني لم أبع أسهمي في مؤسسة البلاد للصحافة والنشر، وإنما بعت أسهمي في - عكاظ -، حينما تركت العمل فيها.. ويتحدث الأستاذ عني في حرية مطلقة، ولعله لا يعنيه إن كذب عن حي وعن واقع يغالطه ويغالط فيه بإرادته وعدم صدق فيما يقول وحسابه على الله تعالى، قال في الصفحة نفسها: «إن فلسفة عرض الكتب ليست منهجية، بل تعتمد على الاختيار، الذي يكون أحياناً ضارباً في ظلام من الغموض الذي ينبهم أمام القارئ، وللإجابة عن هذا التساؤل تتوجب هنا العودة قليلاً إلى الوراء، إلى نظرة أبو مدين إلى القناة البديلة للكتاب، فهو يرى في الصحافة (مقروءة ومسموعة) بديلاً عن الكتاب، ولذلك قد يكون استفاد من المعرفة الصحفية في فترة من فترات حياته، خاصة عندما لم يكن يملك قيمة الكتاب».. هذا ما قاله هذا المفتري دون تقديم أي دليل على ما قال، والحق أقول، «إن صلتي بالكتاب لم تنقطع منذ توقفت عن الدراسة المنتظمة.. ولا غرابة ، أن يتطوع عثمان بسوق أوهام من عنده يلبسني إياها، وساق الكثير أمثالها مما رآه عنده هو، فأنا لم أُعْنَ بأي بديل للكتاب، بل أجدني دائماً أردد قول المتنبي:

"وخير جليس في الزمان كتاب».. فمن أين أتى بما قال عني أصلحه الله ورده إلى طريق الصدق والحق.. ويتوقف الأستاذ في الصفحة عينها عند كتابي «أمواج وأثباج» فقال: «والمتفحص لكتاب أمواج وأثباج باعتباره منتجاً قديماً يعد بمثابة وثيقة تفيد في إيضاح بدايات كتابات أبو مدين، يستطيع أن يدرك أن كل ما حواه الكتاب ليس إلا مقالات، كانت قد نشرت له من قبل، وكان هدفها ممارسة الكتابة الصحفية»، فتح الله عليك كما يقول الشيوخ لطلابهم المتميزين، وأنا أعتبرك طالباً أخذتني وسيلة لتنال بها درجة علمية تعتبر عالية في موازين العالمين، لكن لا يسعدني ولا يشرفني انتماؤك إليَّ، لأنك طالب فاشل بما سقت للقارئ من كذبك وآرائك المغلوطة المتناقضة، أقول تعليقاً وتعقيباً على ما قلت أنت آنفاً، فقد قلت في صفحات قريبة مررت بها، إن اعتمادي وانطلاقي كان من الصحافة وحدها، ولأنك لا تركز في فهمك وكتابتك لأنك غير مدرك لما تقول ؛ ولأنك تجمز بلا تحسب، وأقول للفهيم إن ما قلته ليس صحيحاً بل الأكثر الذي في كتابي - أمواج وأثباج -، أدب ونقد أدبي، وقلت أنت إن في الكتاب - 52 - مقالة يدور معظمها حول الأدب، وقلت أنت إن الكتاب مقالات صحفية.. وتحدثت في صفحتي - 44/43 -، عن قراءاتي،

وتجدد القول إلى إنني استفدت من العمل الصحافي، فقال : «ولاشك أن هذا التردد بين الإعجاب والرفض ينم عن رؤيته إلى المادة المقروءة التي كان يحرص على عرضها، حيث يبرز أمامنا سؤال على قدر من الأهمية هو: «لماذا اختار أبو مدين هذا الكتاب دون غيره من الكتب؟ هل ما لم يعرضه من الكتب يعني أنه لم يقرأه»؛ وعلق دبوسه بالصحافة فقال: «ثم إن اعتماده على الصحافة في التلقي المعرفي كون عنده، بالإضافة إلى الكتب الأخرى مزيجاً من نوعين مختلفين من المعرفة».. أقول إن كل شيء في مجاله في كلتا الحالين، ولا يسمى ذلك تردداً، وأنت لم تحسن التعبير حين تقرن بين الإعجاب والتردد وقد خانك التعبير في سوء فهمك حتى في ثقافتك الضحلة؟ والرؤية الحقة هي السبيل إلى الحكم على الشيء أم لك وجه آخر لا أعرفه؟ أما لماذا اختار أبو مدين هذا الكتاب دون غيره من الكتب؟ فإن سؤالك هذا سذاجة ولا معنى له، فإن ما قرأته هو ما كتبت عنه؛ وتلك حال جارية وهو قليل مما قرأت؛ والصحافة يا أستاذ كانت وظيفة وأداء، ولا مجال فيها للتلقي المعرفي.. وسؤالك عن قراءة كتاب دون غيره؛ سؤال لا معنى له ؛ فهناك عملية الإختيار ؛ إن أتيح ذلك، وهناك حال أخرى هي المزاج، مثل الطعام الذي يقدم فكل

أكل يختار ما يحب، وكذلك الحال في المنزل الذي يختاره المرء لسكناه ؛ واختيار الصديق، واختيار الزوجة وأسماء البنوة.. وهل من حقي أن أحاورك في أسماء زوجتك وأبنائك الذين تصدروا الصفحة الأولى من كتابك ؟ والأمثلة كثيرة في هذا المجال إذا أردت أن أعطيك درساً في ذلك، ولعلي أقول إنك في غِنىً ؛ وقانع بما أنت فيه ؛ وقد يضرك المزيد الذي لا تهضمه!

وأدلج إلى الفصل الثاني من الرسالة الهشة، وفي مطلعها: توطئة: فقال في تخمينه المتواصل المعتاد زاده الله من المعارف التي ألم بها ولا يحسن سواها على ما يبدو ؛ ولا أريد اتهامه بالأمية، قال في ص - 39 - وهو يتوقف عند - حكاية الفتى مفتاح -: «تأتي حكايته التي تشي بأن القراءة كانت ضالته التي وجدها أخيراً».. وحين أقول إن ابن جمعان لا - يجمّع - كما يقول إخواننا المصريون! فأنا لي عذري، ذلك آن القراءة كانت هاجسي منذ أخفقت في التعبير، وأنا وجدت القراءة أولاً، وليس أخيراً ؛ وقد خانك التعبير، والأخ الزكي أو الذكي على الأصح، قال أيضاً في الموضوع إياه بهذا الذكاء المفرط الذي أخشى عليه منه، أو أخشى عليه من عين الحسود: «ولم يكن ذلك ليصير لولا

رسوبه في مادة التعبير».. الأستاذ يقطع في حكمه والأمر بالنسبة له غيب، والكتاب العزيز جاء فيه: «إن الغيب لله».. جاء حكم الأستاذ وهو يقرأ إنني كنت أشتري وأستعير الكتب، وأفضلها على لقمة العيش، فالجري وراء المعرفة دوافع كما هي عندك، مع الفارق الكبير بيننا، فأنت بيدك ماجستير، وغداً يكون عندك دكتوراه ؛ وأنا امرئ غلبان زادي شهادة ابتدائية مشروخة كما قالت ثقافية الجزيرة، وقد طردت من المدرسة وطردت من الوظيفة كما تفضلت أنت وتبرعت بذلك لتصمني بما لم يكن ولم يحدث، ربما حسداً من عندك؛ وماسمعت بحسد المحتاج إلا عندك ، نحو مايفعله وينفعه بالسبل المشروعه ! وكما قال ابن أبي ربيعة: «وقديماً كان في الناس الحسد»، وصدق الحق: «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله».. وتفضل الأخ زاده الله مما يفهم ويقول ويضرب الأمثال عبر تعابير لا أفقهها، قال: أي رسالة لن تكون فعالة في المستقبل إلا إذا كانت مقبولة له، «تخاطبه عن أشياء ليست غريبة كلياً عن معارفه، فإذا سلمنا بالتشبيه الذي يصور القراءة بالصعود في سلم حلزوني يمر بأربعة طوابق، وعلى افتراض أن الطابق الأول طابق العلامات بكل أنواعها، والطابق الثاني طابق اللغة الخاصة بكل نص،

والطابق الثالث طابق تفسير النص وتأويله، والطابق الأخير فيه الاستيعاب، أو تحويل النص إلى معايشة فعليه. فإن أبو مدين كان لما يزل في الطابق الأول، حتى بعدما بدأ مشواره الكتابي، حيث لم تتوفر لديه بعد الاستجابة الأسلوبية التي تجمع بين استجابتين، هما الاستجابة اللغوية والاستجابة الأدبية».. مرجع هذا الحديث كما هو في الهامش/ عالم الفكر، سيزا قاسم. القارئ والنص «من السيميوطيقا إلى الهيرمينوطيقا»: 254. وأرى أن هذا النص الذي نقله أو استشهد به الاستاذ، تشبيه وتعبير ركيكان، يمكن أن يمارسه صاحب دكان سمّان، ولعل جمعان كان يحلم أو سكن في «قبو» وبالأفرنجي، بيدروم –، أو في عمارة من عدة طوابق، وربما رأى أحلاماً مزعجة فطبقها عليَّ، وأنا أشكره، وإذا أذن لي بأن يمنحني دروساً تعينني على الصعود إلى العلالي فأكون له من الشاكرين، ليتاح لي الاقتراب من مستواه الثقافي والمعرفي الذي يردده، ولعله هو أحوج إليه مني ، ومقياس ذلك رسالته عني ، فاذا كان شجاعاً وواعياً فإن عليه عرضها على موازين الدارسين الواعين الناجحين، فإنهم إن أقروا مستواها العالي المتميز فيومئذ أدان على تقصيري ومحصولي

المتدني ، وأعطي تحية تقدير تليق وسلام لناقد ودارس كبير اسمه - عثمان جمعان -

وفي ص - 40 -، يتطاول فيسيء أدبه ليصل إلى الأستاذ محمود عارف رحمه الله، وعثمان حين يسيء أدبه معي، فأنا في مقدروي الرد عليه، لكن ما ذنب الأستاذ عارف يرميه بالجهل، فهو يقول تعليقاً على رأي لي حول قول الشاعر حافظ إبراهيم رحمه الله:

خمرة قيل انهم عصروها من خدود الملاح في يوم عرس

ليكن أن رؤياي تخالف وجهات التشبيه الذي أراده الشاعر وليس المعنى المباشر الذي جنحت إليه ؛ فهل تلميذ لدى الأستاذ عثمان خطا إلى مدرجات الجامعة وليس عنده سابق خبرة في التعليم العام الذي كان فيه ولم يعلمه أساتذته هناك، هل ارتكابه خطأ نتيجة اجتهاده ؛ يدعو أن يلقنه أستاذه درساً أمام زملائه ويشهر به عبر محاضرة طويلة مما تعلم الأستاذ في الجامعة ؟ أهذا هو التوجيه الحق الذي ينبغي أن يمارسه معلم قيل فيه: «قم للمعلم وفّه التبجيلا».. معذرة يا أستاذ، ومازلت عند رأيي المباشر أن خمرة خدود الملاح هي دماء.. لكن ما ذنب أستاذ جليل نال

تقدير واحترام الكثيرين ؛ وما ذكر أخي الدكتور عبدالله الغذامي الأستاذ محمود عارف إلا قال العم محمود ؛ وهذا أدب نفس، أوحتى أدب الدرس؟! أنت بعيد عنه بعد المشرقين «قال عثمان: بدأ أبو مدين القراءة من الطريق الوعرة، بعيداً عن المناهج المقننة، فمحمود عارف كان شاعراً، ولم تكن له تجربة في التعليم، ولا يمتلك المناهج التي يستطيع بها أن ينمي بها عادات صحيحة في القراءة عند تلميذه، حيث لم يكن يعلم ما مستوى أبو مدين المعرفي، ولم تكن لديه المقاييس التي تمكنه من ذلك».. وأقول للجاهل الذي كان ينبغي قبل أن يكتب أن يسأل معلميه في الجامعة قبل أن يسيء الأدب فيما لا يعرف، فالأستاذ محمود عارف رحمه الله كان معلماً في مدرسة الفلاح بجدة وهي المدرسة التي درس وتخرج فيها ؛ وهي وأختها في مكة درّس فيها وتخَرج كبار الرجال من المعلمين والكتاب والإداريين ، لكن الجهل عجز ، ورحم الله الشاعر المجيد السيد ماجد الحسيني القائل :

حيلة العاجز في دنياه آه   ليتها ماتت عليها شفتاه

وقلت إن قراءتي كتاب المنفلوطي «النظرات» كان لأيام ؛

وإنه لتخمين سخيف ما قاله عثمان جمعان، وهذا جهل مقدم أطروحة ماجستير، الذي يفترض فيه أن يكون مدركاً لما يقول، وعلى وعي بعيد وأن لا يرمي بأوهام جزافية لا تصدرإلا عن جاهل ؛ وليس سائراً إلى التعليم والارتقاء به فيه ؛ والذي يتعرض إلى الحديث عن الرجال ولاسيما طالب دراسات عليا، ينبغي أن يلم عمن يتحدث قبل أن يقال له أخطأت! ويبدو أن عثمان لا يعنيه الحرص والاحتياط لما يقول.. والأستاذ محمود رطّب الله ثراه كان متفضلاً ومخلصاً في عونه ووفائه، وكان واعياً، ولا أدل على ذلك من أنه كان عضواً في مجلس الشورى، وكان رئيساً لتحرير صحيفة عكاظ في عهد المؤسسات الصحافية..

وقال الأستاذ في – 41 –: «طالبه محمود عارف بتلخيص مقروء إبداعي، والمقروء الإبداعي أكثر انفتاحاً على عملية القراءة من النص التصوري، لأن الرموز اللغوية في النصوص الإبداعية متعددة الدلالة، مقابل الرموز أحادية الدلالة في النصوص التصويرية».. أريد أن أسأل لأتعلم: هل كتب المنفلوطي إبداعيه، لأن بعض من نقدوه يعتبرونه – دقة قديمة –؟ وأسأل أيضاً: ألا يرى الأستاذ الجامعي الكبير أن المقروء الإبداعي أعسر بكثير من

نظرات المنفلوطي والأدلة قائمة في الساحة بعامة، وأحكام عثمان هلامية.. وقال كذلك: «بتلك الخلفية المعرفية ولج أبو مدين باب الكتابة، وكان همه ينحصر في إيجاد مكان لقدمه ليقف في مجتمع غريب عنه».. وهذا بهتان، فأنا حين مارست الكتابة لم أشعر بالغربة، ولم يكن المجتمع الذي بدأت منه وعشت فيه غريباً من أي وجه من الوجوه؛ وما قاله عثمان قياس غير واقعي بالنسبة لي، ولم أشعر بشيء من هذا التخريف، فالمجتمع الذي طرأت عليه، إن صح هذا التعبير، وجدته محباً وفياً أثيراً؛ ومازال، ولو شعرت بشيء من جفوة لما كان ذلك الانسجام الكريم الذي عشته وسعدت به..، فقد كان كل ما حولي الحب النقي الحادب، وهذا كله من فضل الله عليٌّ وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ولا يعلمون ومنهم عثمان. وصاحبي شحيح في تعبيراته، فقد قال في آخر ص – 41 –: «مثل ما فعل في كلمة الإهداء في كتاب أمواج وأثباج، كالتي رأى فيها إيضاحاً لحجمه الفعلي الذي انتقصه معلم مادة الإنشاء» إلخ .. وأقول لم ينتقصه، ولكن ما قدمت كان ضعيفاً، والمصحح رحمه الله وغفر له أخلص في ممارسة واجبه وأمانته .. ويبدو أن الصدق في موازين عثمان معرّة! وهذه حال كالتي عبر عنها أبو الطيب بقوله:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

وأمام هذا العبث أقول إن الصدق لا يجني على صاحبه إلا عند العقول المتخلفة، وإلى الله ترجع الأمور.. وقال الأستاذ في ص – 42 –: «يتبادر إلى الذهن سؤال مهم، فلو لم يكن أبو مدين منذ الإرهاصات الأولى صاحب امتياز لصحيفة، استطاع من خلالها أن يمارس هوايته (أو رغبته القوية) دون أن يكون هناك رئيس له يجيز ما يكتب أو لا يجيزه، لو لم يكن كذلك هل كان يستطيع أن يصنع ما صنعه؟ ساعدت الصحافة على حضوره الاجتماعي، وساعدته أيضاً على دخول ساحة النقد، من خلال المعارك النقدية التي كانت تتأجج نيرانها من منابر الصحافة».. وأقول كان يستطيع بعون الله ؛ لأنه بدأ بالنقد الأدبي والنشر "قبل ست سنوات" من بدء ممارسته الصحافية، وما خرّف به عثمان غير صحيح، فالكاتب يحسب له أو عليه ما يقول ويكتب، والنشر قيمته سواء كان في صحيفة أو خطه في كتاب فهو يحمل آراءه، والشهرة الحقة لا تكون إلا من الصدق ومن انطلاقات قيمة ما يقدم.. وفي ص – 43 – قال الأستاذ: «قام بحذف العديد من الكلمات النابية والألفاظ الجارحة، التي اشتملت عليها المعارك

النقدية التي دخلها، ثم أعاد طباعة المقالة بشكل مختلف».. وأقول إنني جمعتها في كتابي – أمواج وأثباج –، والحذف شيء اختياري، وهذا مبدأ يمارسه الكتاب الذين يوقنون ..وتحت عنوان: «المتن النقدي» قال في ص – 44 –: «هناك تلازم بين أبو مدين والصحافة، ذلك أن أبو مدين لم يكن يؤلف كتباً بل كان يكتب مقالات في الصحيفة وبعد أن يجتمع لديه عدد كاف من تلك المقالات يقوم بطباعتها مجتمعة».. أقول هذا ما كان ديدن الكبار من كتاب العربية في بلادنا وفي مصر..

وفي آخر الصفحة الآنفة في الهامش، «سلمت براجمه من الأوخاز»، قال: «وفي حكاية الفتى مفتاح لم تكن الفكرة في البداية سوى مجموعة من المقالات ابتدأها بخاله مصطفى بدر الدين، ولم يتخذ القرار بإكمال الكتابة إلا بعد ما طلب منه ذلك».. أقول : كلا!. فإن الكتاب لم يكن مجموعة مقالات، بل كتبت ترجمة في نحو عشرين صفحة، ولما بدا لطالبها أنها لا تكفي، كتبت الكتاب كله دفعة واحدة وقلت ذلك، فما لعثمان يأتي بهذه التخمينات غير الصحيحة، ولا يكاد يفقه حديثاً؟ ولعله لا يقرأ بوعي وإدراك، وإلا لما قال ما قال مما يناقض الواقع والحق..

وأريد أن أشكر عثمان فقد أحسن إليَّ حين وقف في ص – 49 –، وهو يتحدث عن أمواج وأثباج، فقال: «ومثل تلك الموضوعات أفادت أبو مدين في رسوخ أقدامه في المجتمع الحجازي، ويلج فيه بقلمه الذي فيما بعد استطاع من خلاله أن يكون أحد أعلام ساحة الكتابة السعودية».. أقول لعثمان شكراً على هذا الإطراء، ولا أزعم أني علم أو بعض علم.. وتحدث في ص – 50 –، عن الكتب التي كنت أقرأها وأكتب عنها، فقال: «تلقى قبولاً من مجتمع القراء كما كانت تلقى رفضاً أنذاك كما يبدو».. وأقول إنني لا أبحث عن الرضا وأنا ألقي برأيي فيما أتناول من قراءات الهدف منها إشباع رغبة وتأمل واستفادة ؛ لأن القراءة محصلة ؛ وتعلمت من أحد ممارسي الكتابة حين قال: قل كلمتك وامش! وقال الأستاذ في ص – 54 –: «فإن فترة كتابته تمثل وجوده في النادي الأدبي بجدة ؛ حيث برزت عدة جوانب تفسر التأثير بين أبو مدين والنادي الأدبي، إذ تميز عن بقية الأندية الأدبية بالمملكة بمزايا عديدة، فهو نادٍ أكثر انفتاحاً من غيره على المستحدثات؛ استطاع أن يجتذب كل شرائح الأقلام ومعظم طبقات الفكر».. وذكر أن انفتاح النادي بدأ منذ 1405هـ، 1985م وإن نشاطه في النشر، ومن خلال رجال الفكرالأعلام الذين استقطبهم النادي

فجاءوا إليه وتحدثوا من خلال منبره والمؤتمرات التي كان النادي يقيمها، وإني أشكره على إنصاف النادي والإشادة به فيما كان يقدم وما كان ينهض به في الحراك الثقافي، وأنا أعلن أن ما كان يقوم به النادي هو أداء رسالة في خدمة الوطن لأنه غالٍ ؛ وأن المواطن مهما قال ومهما فعل لا يستطيع أن يرد بعض حق الوطن على أبنائه الذين يعون هذا الحق الذي لا حدود له، وأرجو من الله مزيد التوفيق والسداد.. وأسدي شكراً للأخ عثمان على إنصافه لنادي جدة الأدبي الثقافي، وأؤكد أن الثقافة والنهوض بها واجب كبير، وأنها رسالة ومسؤولية وأمانة لا ينهض بها إلا أولو العزم من الرجال والنساء معاً العاملين ؛ والأمانة لعظمة شأنها وضخامة مسؤوليتها الخطيرة ؛ أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها ؛ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً».. نسأل الله السلامة والعون والسداد نحو القيام بمتطلباتها وأداء الحق كما ينبغي، والله المستعان والمعين لكل مخلص جاد عامل بصدق وأمانة ووفاء..

وتحدث الأستاذ عثمان عن كتابي «حمزة شحاتة ظلمه عصره» وتوقف عند الإعجاب الذي رآه مني نحو ذلك الأديب

الكبير؛ فقال إن: «الإعجاب الشديد الذي تنطوي عليه نفس أبو مدين لشحاتة وانسياقه وراء ذلك الإعجاب أثناء حديثه عن شحاتة وأدبه، ما حدا به إلى تدبيج عبارات الإعجاب دون مبرر، وإسباغ الهالة الكبيرة بعيداً عن الشواهد التي تؤكد ما يذهب إليه».. وأقول له إن الشواهد والمبرر - إن كنت لاتدري، في كتبه وشعره -، لعلها تكفي، ثم إن ما بقي من إنتاج الأديب الكبير سهلة المنال، ديوان شعره ومحاضرته - الرجولة عماد الخلق الفاضل -؛ وهي ذات شأن كبير لدى من قرأها ووعاها ؛ وكذلك رسائله لابنته شيرين ورفات عقل، وغير ذلك من آثاره، وما مارسته يدركه القارئ الواعي الذي قرأ أو سيقرأ إنتاج الأديب الكبير وفكره العميق، وليس من شأن الدارس أن يبدي كل كبيرة وصغيرة ؛ فهذه ليست مهمة من يقدم وريقات كان مقرراً أن تكون جزءاً من كتابي: «الصخر والأظافر»، وإن نصوص شحاتة رحمه الله تتحدث عن قدرات صاحبها، وتقديمها الإيجازي ينبئ عن قيمتها بالقياس إلى الشاعر الكبير، والقارئ مشارك كبير في الرأي والحكم، أفلا يكفي هذا مبرراً؟ والدكتور طه حسين في كتابه عن - المتنبي، كان يقف على البيت فيذكر إعجابه به، وهوكذلك يعلن إذا لم يجد ماقرأ قبولاً ولا ما يسيغه، وأنا لم أبعد

عن هذا المسلك، فهل الأستاذ العميد مقصر في تصور صاحب الأطروحة، أم أنه لم يقرأه ولم يصاحبه، ولا يعرفه من قريب أو بعيد ؟!..!

وفي ص – 73 – قال الأستاذ: «وقد تشكلت بعض مظاهر التطور في الخطاب النقدي عند أبو مدين في كتابه هذا ؛ يعني – الصخر والأظافر – حين بدأ العمل على العنوان بشكل يختلف عن طريقته في كتاب أمواج وأثباج» .. وأقول إن ممارسة القراءة والفهم والدرس يؤدي كل ذلك إلى التطور والارتقاء مع الأيام.. وفي ص – 79 –، قال الأستاذ: «فعندما تناول أبو مدين كتاب شعراء الحجاز للساسي لم يختر من الشعراء السبعة والعشرين الذين ضمهم الكتاب إلا مجموعة يسيرة، كما أنه لم يدرس الكتاب بعيداً عن الشعراء الذين انتقاهم الجامع».. وأقول إني كتبت عن أكثر الشعراء، وحين كنت أنشر في جريدة الأحوال المصرية، لم يكن ما أرسل مطبوعاً ؛ وكنت احتفظ بأعداد الصحيفة، غير أن ترحالي وغيابي عن الوطن سنوات أضاع تلك الأعداد من الصحيفة ؛ ذلك أنني لم أكن أسكن في بيت أملكه.. وماذا يعني دراسة الكتاب بعيداً عن الشعراء فهو كله شعر

ماعدا مقدمة الشاعر الكاتب حمزة شحاتة؟.. وأنا قد تناولت الشعراء الذين أمامي، ولست معنياً بدراسة نثرهم، ولم يكن لهم يومئذ في عام 1370هـ نثر مطبوع إلا ما ندر إن وجد شيء.. ومال عثمان بعد أن ألقى بكلام معاد منه، فقال: «عرض الكتب عند أبومدين يأتي استجابة لاندفاعه نحو خلق صحافة أدبية متميزة، كما أن عمله في العرض، ينجلي باستعادة الذاكرة مع ما مرفي الفصل الأول، حين تحدث عن أهمية الصحافة في إعانة طالب العلم، على القراءة حين لا يجد ما يشتري به الكتاب، وكان رأيه أن عرض الكتب إنما يناط بالصحافة الجادة التي تستطيع التصدي لمهمة صعبة» إلخ.. وأقول لماذا - الاندفاع؟ ولماذا لا يكون التعبير مهذباً، كأن يقال اختياره؟ والاندفاع قد يعني السرعة وقلة التوفيق والممارسة غير السوية إلخ، والصحافة لتثقيف العامة كما قيل ؛ لاسيما صحافة اليوم الخبرية والسياسية والإجتماعية والاقتصادية، وهذه حال الصحافة العربية في الغالب الأعم تعنى بما قاله عثمان؟ لكن المجلات الأدبية والمتخصصة هي التي تهتم بدراسة وعرض ما تختار من كتب، وليس كل كتاب وكل مطبوعة، وثم بعض الملحقات لدى بعض الصحف تعنى بالثقافة..

وقال الأستاذ في ص – 81 –: «إن إنجاز أبو مدين النقدي في عرض الكتب في كتاب الصخر والأظافر يمثل ثمرة قراءاته المتعمقة وإن كانت متأخرة». وأسال: هلا بحث صاحب الأطروحة وهو يمارس مهمة الدارس أسباب التأخير؟ وهذه إذا لم يستطع أن يستنبطها ؛ فإني أقول له ولا أعتقد أن دارساً يعد رسالة الماجستير وعرف عني كل ما كتبت، وقد قلت وقدمت كل أو أكثر ما عندي، فإنه يجهل مسيرة حياتي غير أن اخفاق عثمان في استنباط الأسباب هو ماجعلة يعلن ماقال ؛ وهذا ليس مسؤوليتي؛ ولعله أمر كان ينبغي أن يتنبه إليه الأستاذ المشرف أو لجنة فحص الرسالة إن كانوا قرأوها، وإرشاد صاحبها فيما بحث وكتب وقدّم!

في ص – 92 –، من الفصل الثالث من الأطروحة حول آرائي فيما قدمت من نماذج نقدية ؛ ووضع عثمان حول مداخلته عنوان «صحافة الشعر».. وحول نظريات النقد وما أسماه عثمان مدخلاً ؛ قال: «وهي بمثابة مدخل قد يراه أبو مدين من وجهة نظره مناسباً للفكرة التي طرحها، أو أنه من ناحية أخرى، يريد بذلك التبرير للقارئ بأن ما يفعله هو الصواب، وأن هذه هي

أصول النقد أو نظريته كما يقول»؛ أنا لا أقول نظرية لأن النظرية تتطلب مرجعية دراسية، وإنما ما أقوله رؤية واستخلاص لما قرأت؛ وأنا أنطلق من خلال قراءاتي ووقفاتي، فأشير إلى الأخطاء اللغوية أو تركيبات جمل أبيات شعرية ركيكة ؛ أو ما يندرج في مفاهيم اصطلح عليها النقاد ؛ وأن ما أسوق من آراء ليس تبريرات أستجدي بها القارئ ليقبلها، فأنا لا أغالط ولا أداجي ولا أتزلّف.. وحول كتاب الأستاذ عبدالسلام الساسي رحمه الله، الذي جمع فيه مجموعة من شعراء الحجاز وما كتبته عنهم ؛ وقلت يومها إن الأستاذ الساسي أدرج في كتابه حتى من قال قصيدة واحدة.. فقال عثمان في ص- 96 -: «ولو أن أبو مدين استمر على نفس الطريقة التي بدأ بها مقالته عن هذا الكتاب، مع جنوحه إلى الألفاظ الحادة والأحكام المستعجلة، لكان ربما سيقدم مادة نقدية قوية منذ بداياته».. والألفاظ الحادة اقتضاها الواقع في مستوى بعض القصائد الضعيفة والهزيلة ؛ وقلتها يومها ؛ وهي ليست أحكاماً مستعجلة وإنما هي أحكام مردها لما لمسته في ذلك الشعر.. وفي ص - 97 -، قال عثمان عني: «وقد ينقد الشخص ذاته من خلال الذوق، فيقول مثل قوله عن العريف «لأن حس الناظم مودع حيث تركه»، ومهما حاول القارئ البحث

في هذه المقالة أو غيرها عن قضية معينة يعالجها ؛ فلن يجد سوى اهتمام الناقد بالتصحيح بنفس الطريقة».. لقذ انطلقت من خلال نص أمامي: «يا موطن الحسن إني أودعتك حسي».. يومها لمت الساسي في إدراج الأستاذ عبدالله عريف رحمه الله الكاتب مع شعرائه وأنه ليس بشاعر، والرجل نفسه قال ذلك فيما نشره الساسي له ؛ ويبدو أن عثمان كان عجلاً في أحكامه، فلم يستوعب النص.! وفي ص – 98 –، قال عثمان، وأنا أخشى أن أدفع – بالفهيّقة – إليه من كثرة ذكر اسمه ؛ قال: «ثم يسوق عدة آراء تقوم على الحدس، دون تقديم أدلة على ما يقول».. وقد كنت أتحدث عن الشاعر الناثر حمزة شحاتة وهجرته إلى مصر، واستشهدت بقول البحتري من قصيدته التي مطلعها: صنت نفسي عما يدنّس نفسي:

حضرت رحلي الهموم فوجهت إلى أبيض المدائن عنس

ألا يدل ما سقت من سبب ذي دلالة هي معنى أو أدلة؟ وهل يريد عثمان أن أدلل على النهار بشمسه؟ إذا احتجت إلى ذلك ففتش عليه عند غيري من المنجمين مثلاً.. وفي ص – 99 –، يعيد عثمان ويزيد عن حديثي عن حمزة شحاتة رحمه الله،

فيقول: «ولأنه معجب بحمزة شحاتة، طفق يسجل مقولات نثرية، دون أي تعليق عليها البتة». على أي حال، فعثمان يتحدث عن كتاباتي النقدية الإنطباعية، وأكبر الظن أنه لم يقرأ حمزة شحاتة، ولو حدث أو رأى بعينيه ذلك الشاعر الكاتب العملاق لأحبه ولأعجب به، ولا أقول يكتب عنه لأن مستوى عثمان البسيط لا يمكنه أن يلم بتلك القامة العملاقة.. ولن آمل الحديث عن آراء صاحب الأطروحة، لأن هذه المصاحبة فيها تسلية وتزجية وقت ؛ ولأن ما يقوله عجباً، فإذا أوجزت مطالبته بالادلة، لأنه لم يعرف شحاتة ؛ فأنا في ظني أنني قدمت نظرة شمولية، يدركها القارئ الواعي .. وإذا أتيح لك أن تقرأ الدكتور طه حسين وأتيح لك فهمه فماذا عسى أن تقول عنه؟ ربما تشك أنه نال شهادة الدكتوراه من السربون كما نلت أنت هذه الرسالة من جامعة الملك سعود! وإذا كان لك تشكيك في نثر شحاتة، فهاته ؛ وإلا فلا داعي لهذا العبث! .. والنصوص التي قدمت عن شحاتة ألا تدل على صاحبها! إذا كنت لم تع ذلك، فعد إلى أساتذتك ليعطوك دروساً في القراءة والفهم، وكيف تقرأ أدب الكبار مثل طه حسين وحمزة شحاتة؟!

في ص – 103 –، قال الأستاذ عثمان عني: «فليس لديه كما هي الحال لدى نقد المراجعات حدود معينة بين الكتب، لذلك حين يتناول كتاباً من الكتب بالعرض والقراءة، قد لا يجد ما يعلق به عليه سوى نقده المدرسي المتمثل في المآخذ التي يجدها القارئ في الكتب».. الحدود ياأستاذ هي حول النقد الأدبي دون الذهاب إلى ماعداه ؛ أليس هذا حداً؟ وما هو النقد المدرسي وما أبعاده ومؤداه وجدواه ومنطلقاته؟ ولعلي أحتاج إلى تلقي درساً عنك إذا أتيح لي ذلك! وعرفت المدرسة التي أنت فيها!

ومن خلال رؤى عثمان أو تعليقه عن مرصاد الفلالي وحديثه عنه؛ قال: «من خلال رأي أبو مدين في مرصاد الفلالي يمكن الوصول إلى السلطة العظيمة التي وهبها أبو مدين للنقد، وهي سلطة لا تتوفر في علم من العلوم، فالنقد عنده كما مرقيد يقيد به الكتّاب ، وسطوة يخشاها كل من ينشر، وهو بذلك يمنح نفسه تلك السلطة والسطوة».. ولا ضير أن أقول في شجاعة أن ما قال عثمان يمثل رأياً مرّ عليه زمن وقيل في وقته، ونحن في زمن حديث ؛ فلا ضير أن يتغير الحكم والرؤية، يا سيد: الآراء تتغيروتتبدل بتغيرالأزمان وتتجدد الأيام، وهذا جار ومسلم به

وواقع في الحياة بعامة ؛ وكنت أقدر أن صاحب الماجستير؛ ولعله مقدم على نيل الدكتوراه، التي أصبحت اليوم رخيصة في بعض الأسواق، أحسب أنك تقدر وتدرك تغير آراء الكتاب كما تتغير الحياة ؛ وأسأل أهل الذكر إن شئت ليدلوك إن جهلت.. ونصل إلى ص – 104 –، وحديث الأستاذ موصول عبر الصفحة السابقة، فقال: «وهذا يفسر سبب انكفائه على الكتابة النقدية وهو مازال يخطو الخطوات الأولى في القراءة، حتى تشكلت عنده في كتابه الأول نسبة 50٪ من بقية مقالاته» إلخ.. والبدايات ياسيد يدركها الضعف والأخطاء مثل بداياتك التي أمتدت إلى اليوم وإلى الغد مالم تتغيرعقليتك ورؤاك وتتقن درسك إن استطعت ؛ والممارسة المبكرة تنضج مع مرورالأيام ؛ إذا كان المرء جاداً وطموحاً؛ وأوصيك أن تحافظ وتحفظ هذه الإحصاءات ؛ فلعلك تحتاج إليها في قابل الأيام، وأنت تهتم بكتابة أطروحة الدكتوراه في شأن آخرلتفيدك.. والنقد المدرسي البدائي يقود إلى النقد الجمالي والقوي للتصدي للأدب الهزيل وللرسائل الجامعية الهزيلة، والحساب عن بدائياتي مرعليها ستة عقود ؛ فهو شيء بعيد عفا عليه الزمن ..

وقال الأستاذ في الصفحة نفسها: «فإن كتاب في معترك الحياة يعد تراجعاً عن أمواج وأثباج في عدد الكتابات النقدية من ناحية، أما من الناحية الأخرى وهي المتصلة برؤيته النقدية تحديداً فيتساوى مع كتاب أمواج وأثباج، لم يلحظ تطور كبير في تناول الموضوعات ومعالجتها».. إن كتاب: «في معترك الحياة»، ليس كتاباً نقدياً بالمعنى المحدد للنقد ؛ وإنما هي محاولات وممارسات صحافية ونظرية ومواقف استدعتني قراءتها والوقوف عليها.. والأستاذ يعيد ويزيد ليملأ صفحات أطروحته، وانظروا إلى التكرار المتقطع والمتصل في الرسالة، فقال زاده الله علماً في ص – 105 –: «لا يستطيع القارئ العثور على رؤية معينة تجاه قضية من قضايا النقد الأدبي في كتاب في معترك الحياة، كما في الكتاب السابق».. وأعيد وأجدد القول عسى صاحبنا أن يعي: من قال إنه كتاب نقدي؟ فإذا كنت قد توهمت ذلك فأنت مسؤول وحدك عن أوهامك وحساباتك المغلوطة!.. وفي ص – 112 –، نقرأ عنوانها: «قضية الغرابة عند البلاغيين»، فالأستاذ يقول عنها: «انقسمت هذه القضية إلى جزء نظري وجزء تطبيقي، وخصص التطبيق على شعر أبي تمام، وتكاد تتمحور القضية

حول كتاب الخطيب القزويني - الإيضاح في علوم البلاغة -» وفي آخر سطرمن الصفحة قال الأستاذ: «حيث فصّل الموضوع تفصيلاً أصاب فيه «المحز».. ويمتد الحديث عن الغرابة عند البلاغيين في ص - 114 -، فقال عثمان: «وكان حديثه سيأتي أدق وأفضل لو قدم الكلام عن الغريب في القرآن والحديث في بداية مقاله»؛ وكنت قد أتيت عليه في ختام المقالة، وأقول : أنت تفضل وأنا قد أتيت بما كان ؛ وفي رأيي أن الختام يأتي مرتكزاً على الاستشهادات وختامها، وفي رأي عثمان أنه: «سيدرج ضمن تعريفات واختلافات الغريب عند البلاغيين، وكان سيساهم بذلك في إيضاح بعض الرؤى حول الغريب».. إذاً أنت تفضل وأنا أفضل والحكم ليس لك وحدك! «إن الحكم إلا لله»، وأنت لست حكماً حتى لو كنت دارساً أو باحثاً، وأنت قلت: «إن لا فائدة من الكلام عن الغريب في القرآن والحديث في موضوع يتخذ من الغرابة عند البلاغيين عنواناً له».. من قال هذا؟ أتأويل؟ أنا لم أقل ذلك، فلا وألف لا!.. وقال عثمان في آخر الصفحة الآنفة: «والغرابة معنيان يأتيان في خطين متوازيين، فكل غريب يمتاز بالغموض».. وأقول إن الغرابة منهاج وتوجه ينحو إلى الغموض؛ ويتكئ على الغموض؛ أما أنه يمتاز فإنه حكم مسبق؛

وهي حال افتراضية وحكم غير مستأن، ومن قال إن كل الغرابة غموض؟

في ص «118»، قال عثمان: «أطلق أبو مدين الأحكام على أبي تمام بأنه يتعمد الغريب تعمداً دون أن تكون هناك إشارة من أبو مدين إلى ما يثبت تعمد أبي تمام، أو أن تكون هناك إشارة إلى المرجع الذي يثبت ذلك». ولو قرأ عثمان أبا تمام كباحث لظهر له ذلك، ولو سأل من قرأ وكتب عن أبي تمام لأكد ما ذهبت إليه، ويردد بعض دارسي أبي تمام من مثل الأخ الدكتور سعيد السريحي قولة إنه سئل أبو تمام: لماذا لا تقول ما يفهم؟ فرد أبو تمام: ولماذا لا يفهم ما أقول؟ وهذا دليل أنه كان يمارس الغرابة.. ولعلي أقول إني أخاطب مثقفين قرأوا أبا تمام.. فإذا كان في عصرأبي تمام في القرن الرابع الهجري من لم يفهم من بعض الناس بعض شعره، فكيف بحالنا اليوم وبعض خريجي بعض الجامعات يخطئون في كتابة سطور في الإملاء..؟

في – 123 –، تحت كلمة توطئة، قال عثمان: «في هذا الفصل – الرابع –، ستتخذ الدراسة لنفسها ركيزتين أساسيتين تستند عليهما في النظر إلى كتابات أبو مدين، أولاهما نظرة

معرفية تركن إلى ما سبق عرضه في الفصل الأول من تعلمه ودراسته، وكيف أثرت الطريقة التي تلقى تعليمه بها في تحديد رؤاه والبؤرة التي نتجت عن ذلك فأثرت في نظرته إلى النصوص»؛ إلى آخر ما قال.. ولعل عثمان نسي أنه ليس هناك دراسة بالمعنى الحقيقي لشيء اسمه دراسة، ولكنه توجه تلقائي ربما انطلق بحق من إكمالي في مقرر شهادتي الدراسية الابتدائية، تلك الحال هي المحك؛ أي إخفاق النجح في مادة التعبير؛ رغم أني نجحت في كل المواد ماعدا التعبير، وكذلك شاء الله، ليصبح لدي دافع إلى التعلم وإجادة التعبير بشتى السبل؛ تلك الحال كانت السبب إن صح التعبير؛ وكانت المنطلق نحو القراءة والتزود من معطياتها وثمارها، بل كانت شاغلي الشاغل، لأني أدركت أني محتاج إلى زاد لم أنله في الشهور القصار في تحصيلي الدراسي في مدرسة العلوم الشرعية في المدينة المنورة، وهي أربعة أشهر في السنة الرابعة وعام دراسي للسنة السادسة، ولعل الغرابة نجاحي في جميع المقرر ماعدا التعبير؛ كل ذلك من تقدير العزيز العليم، لتكون المحصلة الدافع إلى السعي من أجل المعرفة عبر منافذها وأبوابها وسبلها معتمداً على عون الله وحده، بعيداً عن مرتكزات الفصول الدراسية

المنتظمة في مراحلها المتعددة في التعليم العام ؛ وكذلك الجامعي.. كان عون الله أولاً وآخراً؛ ثم الإرادة؛ بعيداً عن الإخفاق؛ وبعيداً عن التردد واليأس؛ لأكون أو لا أكون؛ ووسائلي الاتكال والاعتماد على الله؛ ثم عزيمة ليس لها حدود.. ويجنح عثمان خلال حديثه الذي علقت عليه عبر السطور الآنفة، يردد حالي الفقر والاغتراب في حياتي يومئذ.. والحق أقول «إنهما لم يثبطا عزيمتي أبداً، بل كانا دافعين قويين لي لاتعلم وأقرأ وأعيش كحال لداتي، بل الكثيرين الذين حلّت بهم ظروف صعبة فتجاوزوها، ولسان حالي يردد قول الحق: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه»..

ويردد عثمان في ص – 124 – حديثه المتصل الممتد أو المتمدد أن الصحافة والمذياع هما روافد ثقافتي.. وإني أنقل كلماته المكرورة من منطق سبجه فقال: بينما طرق تعلمه أو أثار الصحافة (من خلال قراءاته المستمرة للصحف، وكتاباته المزمنة في الصحافة) من ناحية أخرى، لا يمكن إلا أن يكونا سائرين في كامل خطابه النقدي وغير النقدي".. وأقول لا شيء من ذلك يستحق الذكر، وأجدد القول إن علاقتي بالمذياع نادرة، وإن

الصحافة هي وسيلة تثقيف للعامة، ولعل عثمان لا يعي هذا المعنى، وأساله: من قال إن المذياع والصحافة وسيلتا تثقيف – للناقد –؟ أجبني بربك من علمك أو قال لك ذلك؟ وأنا أستطيع أن أقطع أن الحكم من عندك، ولو وقف عليه مشرف رسالتك أو مناقشوك إن صح أن أحداً ناقشك ؛ وهو من أجاز ما قدمت لصححوا لك تعبيرك؛ وضحكت من قولك: "وكتاباته المزمنة"، لأن كلمة – مزمنة – تعبير ركيك، وأنت تعبر فيما قدمت من خلال جامعة عدّت في إحصاءات الجامعات المتفوقة في العالم، والمنتمي إليها وإلى أمثالها ينبغي أن تكون درجاته التفوق والتميز؛ فأين أنت من ذلك ؟ وأنا مكره أن أعيد وأزيد معك بين فصل وفصل، بل عبر صفحات متصلة! وهاهو في ص – 126 –، يعيد القول عن دراستي مع الأستاذ عارف رحمه الله ؛ وعبر الصحافة، فقال: «أشرف على تدريسه محمود عارف ففي كلٍ كان يعتمد على الحفظ طريقة للتعلم» وقلت وأعدت أن صحبتي التعليمية لأستاذي العارف كانت قصيرة جداً وليس ثم شيء اسمه حفظ كما يخرّف عثمان! فمن هو الذي يقرأ نثر المنفلوطي أو غيره ويحفظه ليكون كاتباً أو أديباً؟ ويردد عثمان مثل من عقله في أذنيه ؛ فيقول في آخر الصفحة نفسها: "كما أن استماعه

المتواصل للمذياع بهدف معرفي صرف، كان من ضمن الشفاهية لديه".. وهذا التوكيد الذي يسوقه عثمان بلا دليل، وحتى لو كان مزامناً لي وقريباً مني، ربما يقال إنه عايش إن صح ما قال! غيرأن الدليل مبدأ أساس فيما يقال؛ لكن أحكام عثمان الجزافية المكرورة لا قيمة لها ولا يقولها جامعي أتقن درسه كما ينبغي وإنه يعيب عليَّ أشياء وأراه يمارس ماهو أردأ منها! وأجدد القول والتوكيد، والنحويون يقولون: المؤكد لا يؤكد.. أقول إلى ما شاء الله، إن علاقتي بالمذياع كانت محدودة جداً، تركزت على أحاديث طه حسين لفترة قصيرة، ثم بعض الأحاديث الأدبية عبرالإذاعة السعودية في بدء انطلاقتها قبل أكثر من نصف قرن.. وفي هامش الصفحة التي أنا بصددها، كتب عثمان أنني أستمع إلى المذياع، وقال عثمان: «وقد يدون بعض ما يسمعه ليحفظه».. وأعيد القول بأن النثر عبر الاستماع؛ ليس من السهل نقل ما أستمع إليه لأني لم أدرس الإختزال.. والصحيح أنني كنت أطالع مقالات الكتاب، وأتخير ما يلائمني ويعجبني، ولست أطالع كل ما ينشرو أجد ، ولا أستمع كل ما يذاع، وأحسب أن غيري كذلك!

وأتوقف عند ص – 131 –.. قال عثمان عن إعجابي

بالدكتور طه حسين: «وواضح هنا إلى أي مدى كان أبو مدين معجباً بطه حسين، ولعل السبب في تداعي الألفاظ بذلك الشكل، يعود إلى أن التلقي الشفاهي يختلف عن التلقي الكتابي لأنه عالم لاوجود للكلمات فيه،بل مجرد أصوات وحسب».. وحين أنقل عن الأستاذ العميد، فأنا أدرك أنني لا أتحدث من فراغ ،.. ويبدو أن ما قاله صاحب الأطروحة كلاماً ليملأ به أو يضيفه إلى وريقاته المتواضعة، وأعيد القول إنه قد أخطأ حين اتخذني مصدراً لرسالته! وما قاله عثمان تأويل فاسد واستنتاج فارغ من المحتوى، ذلك أن استشهاداتي بأقوال الدكتور مرده التلقي القرائي؛ فأنا طالعت العديد من كتب الأستاذ العميد؛ ومازلت أرجع إليها إلى اليوم بين الحنين والحين؛ لأقرأ المزيد من كتاباته، وعبر كلمات وجمل ترد من خلال ما اسمع ، وذلك حين أكتبها وقت سماعها لضبط النص في استشهاداتي بطه حسين ، ولا أحد عاقل يستطيع أن يقول إن مؤلفاً أصدر أكثر من أربعين كتاباً تحدث بها كلها عبر المذياع والمحاضرات في الجامعة، وأن أبا مدين سمعها ووعاها.. صحيح إن كل كتبه أملاها على من رصدها، ولم أكن أنا كاتبه ولم أحضر إملاءاتها، وحين يرد عثمان كل أحاديثي عن الأستاذ العميد إلى التلقي الشفاهي

وأنها مجموعة أصوات كما قال، فأعلن أنني لا أملك تلك الموهبة التي عند أبي العلاء المعري وعند طه حسين».. وأقول إن هذا فهم مغلوط، ذلك أن الأحاديث الشفاهية سريعة الاختفاء بعامل النسيان؛ أما الشيء المكتوب فإنه باق وباق.. وعجب هذه الاستنتاجات المرتجلة التي تساق وكأنها أحكام مقطوع بصحتها، تولدها أفكاره ليتكئ عليها تبريراً لما يقول وهو لا يملك أي دليل على ذلك؛ وإنما يقوله رجماً بالغيب! وأسأل في مرارة: كيف تقبل رسالة علمية في بنيانها أوهام بلا دليل ولا مرجعية؟ وعهدي بالدارسين الجادين الأقوياء أنهم حراص في كل ما يقولون وينقلون؛ فكيف يقول عثمان ويتوهم أن ما قدم نقل شفاهي، والمعروف أن الدارسين الذين يحتج بهم أصحاب ثقة فيما يسجلون وينقلون ويقدمون إلى الجامعات والكليات ذات الاحترام والسمعة العالية الكريمة..

والصفحة ص - 132 -، استمرار في قضية الثقافة الشفاهية، كأنه يتحدث عن فاقد للبصر، فقال: «ومعنى هذا أن أبو مدين لا يخلو من مثل هذه الظواهر حينما يرتبط بمثل تلك الأجواء الشفاهية من خلال علاقته بالمذياع، أو لأنه عاش الأجواء

الشفاهية عند شيخه الذي تعلم القرآن على يديه، أو حتى فيما بعد عند محمود عارف الذي ألزمه بالحفظ».. ويمضي عثمان يشافه إلى ما لا نهاية، وأمضي معه أصحح له أقواله واستنباطاته الخاطئة والمغلوطة، وأعلن له أن القرآن الذي كنت أتلقاه في طفولتي، كان مكتوباً على لوح من الخشب، وأمحاه بعد الحفظ والتسميع ليكتب لي شيخي رحمه الله آيات أخرى جديدة.. وعجب أن يخرّف عثمان فيقول إن أستاذي محمود عارف رطب الله ثراه كان يلزمني بالحفظ! وهل من السهل أن أحفظ صفحة أو اثنتين اليوم لأسمّع ذلك في اليوم التالي؟ والصحيح كما سجلت على نفسي كنت أقرأ نظرياً، وأستاذي يصحح لي أخطائي في قراءة النص مما أقع فيه.. وقال الأستاذ: «وهذا يشرح ويوضح ميل أبو مدين إلى الاستشهاد بالأقوال التي يسمعها، أكثر من الكتابات».. وهذا ليس صحيحاً إلا ما ندر عبر مناسبة أسمع خطيباً فأسارع إلى كتابة كلمات مما أسمع لأستشهد بها نصاً، وما قاله عن «الاستشهاد بالمواد المسموعة أكثر من المواد المقروءة»، وضرب مثلاً بحديث للأستاذ عيسى الناعوري ومقالات محمد الرميح.. وما قاله عثمان مبالغ فيه جداً، والصحيح أنني كنت أستشهد بالمعنى دون النص كما ألقي: وكم

أتمنى أن تكون لي ذاكرة حافظ مشهور أو أيسر حفظه، وأؤكد أن اتكاء عثمان على هذا الجانب الذي منحني إياه ليس صحيحاً، والحقيقة أنني ضعيف الحفظ وأنني أنسى مثل عباد الله المتوسطي أو ضعاف الذاكرة، ولعل عثمان يصحح الكثير من معلوماته المغلوطة عني ليستقيم ما يبوح به ويعتمد عليه ؛ وهو ما تدحضه الحقيقة والواقع، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه؛ ولو صدقت ما قاله عثمان، فإن رسالته تصبح كلها صحيحة، لا عوج فيها ولا امت.

إن مذيا ع عثمان في عنقي ليل نهار، يتحدث إليّ وأستمع إليه، مفتوح حتى وأنا أمارس سبل حياتي اليومية وخلال نومي، وكما قيل: «ماكو فكة».. ها هو حديثه ممتد بشكل يتجاوز العاملين في الإذاعة عبر جميع مواقعهم؛ وأنا أتوقف مع صفحات عثمان المتتابعة والمتتالية؛ ليعلم القارئ الكريم هذا الطرح: والمايكروفون صوته لا يعرف التوقف؛ لأن مفاتيحه بيد عثمان، والرجل من السهارى؛ وكذلك طوال يومه لا يكل ولا يمل؛ فهنيئاً له بهذه القدرة الخارقة، ولعلها تمتد وتتمدد حين يشرع في إعداد رسالة الدكتوراه، وليصبر القارئ على هذا – العك –، وأنا صابر

أكثر، وإني مكره أن أمضي معه دفاعاً عن نفسي، وصاحبنا يحصي بالأرقام نسب سماعي الإذاعي، ويعيد القول عن عيسى الناعوري في صفحة جديدة هي- 133 -: وأرجو الله العون على ذلك! قال: لأن المذياع يشكل لأبومدين ما لا يشكله لكثير من الناس، فهو منهله الأول الذي تعرف من خلاله على عميد الأدب العربي،بل وأفاد منه في التعرف على العديد من أدب ونقد طه حسين على وجه التخصيص ، ولا يتفرد أبومدين في الإعجاب بالمذياع فقد كان في تلك الفترة، بل ومازال حتى مع وجود وسائل منافسة له، تبرز أهمية المذياع عند أبومدين وتتضح في المشاركة في برامجه بشكل مختلف"، إلى آخرما قال.. وتذكرني حال ربطي بالمذياع بلا هوادة ولا لحظات يأخذ فيها المرء أنفاسه، تذكرني باني مرة سألت أديب العربية الكبير عباس محمود العقاد رحمه الله عن أديب له مؤلفات كثيرة، فكان جواب العقاد: "واخذ مسهل"، كذلك حال عثمان مع المذياع مما يدعو إلى طلب منحه جوائز من الإذاعات العربية والأجنبية التي تبث بكل اللغات تقديراً لهذا الارتباط الوثيق الذي لا انفصام له، وأعلن وقد طال الحديث خاصة عن ربطي به شئت أم أبيت، أعلن التوقف عن ذكره، وكما قالت العرب : «بلغ السيل الزبى».. فإذا كنت قد

تحدثت عن المذياع وقتاً ما عبر كتاباتي، فإن جعل المذياع مرجعية لثقافتي غير صحيح البتة؛ لأنه من العسيرأن يجعل لي مرجعية محققة، لوقوع الاختلال بما سأنقل وأقول..! وليسمح لي الأخ عثمان أن أقول إنه يخرّف، وأنا أستثني إذاعة الكتاب العزيز فهذه نعم: وذلك شرف واعتزاز سماع كلام الله وتدبره وتأمله؛ وهذه الاذاعة ليست بعيدة البدء ، فوقت بثها قريب .. فالحمد لله على فضله الذي لا يحصى ولا يستقصى؛ غير أني لست أتابعها ليل نهار ..

ويعلق الجرس عثمان حين يجد صلتي بالدكتور طه حسين في ص :- 135 -، فقال: «أضف إلى ذلك الزيارة المشهورة التي قام بها طه حسين إلى السعودية وحين ذاك كان أبو مدين - صحفياً - فحضر المؤتمر».. والحق أني يومها لم أكن صحافياً، لكني كنت أحاول الكتابة الأدبية والنقدية، وممارسة الصحافة كانت لاحقة بدءاً من صدور الأضواء، بعد ذلك بأكثر من عامين ، والأستاذ عثمان ممعن في خلط الأوراق، ولا «يجمّع»، كما يقول إخواننا المصريون.. وقال لا فض فوه: «في تقوية الرابطة الوجدانية عند أبو مدين تجاه طه حسين بشكل أعمق، ومن آثار

تعميقها ظهور ما يلاحظ على أبو مدين من رؤيته لنفسه على أنه شبيه بطه حسين في بعض صفاته».. وعثمان يربط ذلك بمسألة الإستطراد الذي يجري على قلمي، فقلت إنه عدوى الأستاذ العميد، وطه حسين نفسه أعلن بإن هذه العدوى جاءته من الأستاذ المازني، فهل طه حسين يرى أنه شبيه بالمازني؟ إني أعوذ بالله من هذا الإفتراء، وحتى لو ارتديت أرقي روب لأكبر شهادة علمية فلن يخامرني شيء من هذا الغرور.. وأقول: كلا! فإن هذا الزعم لم يخطر لي على بال ولا من خلال حلم، لا من قريب ولا من بعيد؛ فأين الثرى من الثريا كما يقال، إن ما تفضل به الأستاذ الجامعي وهم وافتراء.. وكوني أستطرد في بعض ما أكتب؛ فليس هذا مقياساً للتشبه ، وإنما هو الإعجاب.. وكلام عثمان عبث وسذاجة، وأنا أعتز بتلك العدوى التي أحببتها، لأنها تجعلني قلقاً حتى أنجز مسؤولياتي، فالأستاذ العميد كان يردد أنه – لا يريح ولا يستريح –، وهذا القلق نعمة، أما الخمول فهو مرض معطّل.. ورفاقي في النادي بدءاً من أخي الدكتور الغذامي أدركوا ذلك القلق؛ وقبل النادي كنت قلقاً، ولعل مرد ذلك الحرص على أداء أعمالي وعدم إرجاء عمل اليوم للغد، وأكرر القول بأن هذا القلق نعمة من المنعم سبحانه وتعالى، فالحمد لله على ذلك،

وإني أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ومن الذين أصيبوا بمرض الكبر، فالكبرياء لله وحده، وربما لست في حاجة أن أردد على سمعه المثل العربي المشهور: «رمتني بدائها وانسلت»، كفانا الله داء الغرور ووباءه ..

في ص - 142 -؛ قال عثمان من خلال عنوان الصحافة والنقد: «وسبق الحديث عن أن كتبه لا تحمل طابع الكتاب، من حيث ارتباطها بأفكار متشابهة تصب جميعها في دائرة واحدة لتساهم في توحيد رسالة العنوان الرئيسي للكتاب، لأنها لا تحمل فكرة واحدة أو مجموعة أفكاريربطها ناظم معرفي واحد. وإنما مجموعة من المقالات التي نشرها في الصحف ثم جمعها في فترة تالية»!.. هذا ما قاله عثمان، ولا أدري هل هذه الأفكار أخذها عن توجيه أساتذته أم هي من بنات أفكاره كما يقال! وأسأله: ما العيب والخلل في هذه الممارسة وهذا النسق الذي اخترت.. لقد كنت وأنا أتابع إحصاءاتك للواوات والكلمات أن يكون ناتج هذا الإحصاء الدقيق عيوب تسيء إلى الكتابة وممارستها، ولعلي بهذه الممارسة أجعل لما أكتب نمطاً من الإيقاع ما يسيغه القارئ من هذا الإطراد؛ في غير ما حشو مخل

وركاكة تعبير وتنافر جمل فيما بينها؛ فأنا أنفرمن هذا الضرب في العرض.. وما أكثرما قرأت موضوعات جيدة ومتميزة؛ لكن عرضها يكتنفه الجفاف في التراكيب ونفور في تلاصقها؛ وتركيباتها يدفع إلى عدم الاحتفاء بها؛ من هذا الأسلوب ذي النسق غير المتماوج الجذاب؛ وإنما هوغليظ فظ متنافر وغير متجانس؛ وهذا عيب في التراكيب، وركاكة في التقديم والعرض الذي تكتنفه تلك العيوب، وخلوه من المسحة الجمالية الماتعة التي يحتفي بها القارئ.. والأمزجة التي لم تتذوق جمال العبير تأبى وتنفر مما يمكن أن أسميه جمالا، وهذا ما فعله عثمان من خلال عرضه المتداعي.. ولست أدري! هل رأى وقرأ ما صنعه العقاد وطه حسين وغيرهما من تجميع مقالاتهم بين غلافين ؛ وهي مجموعة مقالات لست في شأن واحد ! لا يسمى كتاباً عندك؟ إذا كان الأمر كذلك؛ فاكتب احتجاجك على السبورة إلى كل من يرتكب هذه الأخطاء التي لا ترضيك؛ ولا تروق لك وحدك!

كنت أريد أن أتجاوز عن أشياء كثيرة، لكن إمعان عثمان في التقوّل والحديث عني بما لم أقل ولا أضمر في نفسي جعل التوقف عندي يتجدد..ونقرأ مزيداً من هذه التكهنات التي يسوقها

عثمان وكأنه شق على قلبي ليجد ما يريد أن يبديه، ولنقرأ في ص – 149 – قوله: «ومن المفيد هنا الإشارة إلى أنه وضع كلمتي «أكملني» و«الإنشاء» بين علامتي تنصيص ليؤكد عليهما، وبالتالي انجذاب اهتمام المستقبل إليهما أكثر من كلمات الإهداء، لكن ذلك لم يكن إهداء، بقدرما هو إبراز الدراسة، وكان السبب في إخراجه من الفصل المدرسي» إلخ.. وقال في سطور تالية من الصفحة نفسها: «وأنه يؤاخذ ذلك المعلم على رسوبه في تلك المادة».. وتساذج كعادته مما لا داعي لنقل المزيد مما قال، وإذا كان القراء يرغبون في التمتع بعبث عثمان، فأنا مستعد أن أسلم إلى هذه المجلة الثقافية رسالته بعد أن أطبعها على حسابي لتعطيها لمن يطلبها.. ولا أذهب بعيداً إذا وصمت عثمان بأنه كذّاب أشر، فهو في مقدمة رسالته قال إنني طردت من المدرسة، وقال إنني طردت من الوظيفة دون دليل ؛ ودون برهان ، وفي الربع الأخير من رسالته المبجلة وهو يكرر أنني أخرجت من الفصل الدراسي، وقال زاده الله علماً ومعرفة؛ إنني نقمت على المعلم الذي رسبني في التعبير.. والحق الذي لا نقض له، ولا يُقاس عليه ؛ أنني ترحّمت على المعلم الذي لا أعرفه، وأن ذكره في إهداء كتابي هو تقدير له، واعتراف بجميله ، لأنه نصح لي

ونبهني إلى ضعفي في مادة التعبير، ووفى وأخلص لأمانته، وما جاءت مناسبة ذلك إلا وترحمت على الرجل وأمانته ودعوت له بخير؛ والله على ما اقول شهيد .. وأجدد اليوم الترحم عليه لأعلن كذب عثمان وافتراءه، ولو طرح سؤال على عثمان حول ادعائه فإنه لن يجيب بما هو حق؛ وربما ادّعى ادعاءات وما أكثر هذه الدعاوى عنده ومن يمارسونها ممن لا يأبهون بقول الحق: «ألا لعنة الله على الكاذبين».

وفي صفحتي – 154، 155 –، قال: «فكان أبو مدين يمسك بالشعراء المبتدئين، عارضاً مهارته وعلمه بفن من أصعب الفنون أمامهم»، قال الأستاذ ذلك وهو يتحدث عن نقدي لشعر الأستاذ طاهر زمخشري رحمه الله..ولعل أحداً ممن يعرف الأستاذ الزمخشري وتاريخه يلقي بسؤال على عثمان: هل طاهر زمخشري من الشعراء المبتدئين؟ وتلك الحال في بقية الأسماء التي تناولت ووجدتها أنت أمامك.. ولعلي أتساءل مجدداً: أي أحكام هذه في أطروحة جامعية تصدر عن جامعة ذات مستوى عال في بلادنا وفي العالم أجمع ؟ وأكبر الظن أن الغُيُر في الجامعة لا يرضيهم هذا الجهل والعبث والارتجال والأحكام

المبتسرة لأن مردها سوء إدراك؛ وأن لجنة التحكيم يتحملون تبعة هذه الفوضى العارمة في الأحكام، وأنا لم أتجن على طاهر زمخشري، وأمامك أيها الحكم المصقع ما قلت والنصوص التي تناولت، فهات موازينك أيها الأستاذ الجامعي صاحب الماجستير والواعي، هات ما عندك لتخطئني إن استطعت، ولن تستطيع؛ حتى لو كنت القائل:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

كلما هممت أن أنهي هذه الوقفات تبدو وكأنها أشياء مثيرة في رسالة مثيرة من أقوال عثمان ؛ تتجدد الرغبة عندي إلى الاستمرارفي الحديث ، كأنه ودّ في أطروحته أن تكون كلها مشاكل يتطوع بإثارتها وبثها! إنني أقول هذا من خلال ماقرأت مما خطه عثمان ؛ وهو يتهمني زوراً أنني في تزعزع مستمر .. وأقرؤوا قوله فى ص - 158 -: من خلال عنوان كتاب في معترك الحياة يمكن إدراك أن الكتاب يتحدث عن الحياة وما يدور فيها، وعن المجتمع وما يعتمل فيه ، وهذا ماجعل أحد أصحابه يشير إلى ما لاحظه من إنصراف أبومدين ، إلى المسألة الإجتماعية على حساب المسألة النقدية والأدبية عموماً، وهوالذي عزف عن

كتاباته فيما مضى عكس ذلك. يفسره التزعزع المستمر في السلطة الوظيفية التي كان يعيشها باستمرار ، فالحياة كما تبدو عنده ليست تعايشاً بقدر ماهي تعارك وصراع" .. فأنىّ لك ما قلت وهو محسوب عليك ؟ فليس في نفسي تزعزع ولاتبعبع ولاسلطة - بفتح اللام - ، فالمسألة توجهات عبر مراحل ؛ وعثمان خليق أن يحوّل المراحل - مراجل -.. ومن قال لك وأشار عليك أن الحياة كلها أدب ؟ فالحياة الاجتماعية شطر كبير جداً مما يشغل الكاتب ! وهل قلت في موقف من المواقف إنني وقفت قلمي على الأدب وحده ، ولن أمارس ماعداه ؟ ولماذا تنكر عليَّ أن أمارس في حياتي ما أشاء وما يتاح لي ؟ وقد قال شيخنا الجليل عثمان الصالح رحمه الله ، في رسالته يوم أهديت إليه كتابي - في معترك الحياة - : «إن الحياة كلها معترك» .. وتعبيراتك شبه المثيرة - تزعزع - ، - سلطة - والمعيشة والاستمرارية .. هذه أمور لاتعنيك لا من بعيد ولامن قريب، غير أن الفضول هو دافعك إلى هذا التطفل المقيت ! وما شأنك أن أكتب في الأدب أو الاجتماع ، أو حتى عمن ينظفون الشوارع والبيارات ؟ وقد قال من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم : «دع ما يريبك إلى

ما لا يريبك».. ولعلك وأنت تمارس ما اسماه الكتاب العزيز «لحن القول»، تعرض عن هذه السفاسف، إذا كنت تريد أن تكتب بتوازن واعتدال وموضوعية ! ومشكلات الحياة يا شاطر التي يمارسها بعض شيوخنا العلماء ، مثل أستاذنا الدكتور عبدالله المصلح في برنامجه في التلفاز الذي عنوانه «مشكلات من الحياة»؛ وأعمدة كتابنا في الصحف ومنها اليومي في معالجة مشكلات حياة الناس ؛ وعمود على أمين ومصطفى أمين في الأخبار المصرية - فكرة - ؛ من هؤلاء الذين يعالجون قضايا حياة الناس؛ وغيرهم من الكتاب والمتحدثين عبر أحاديث الإذاعات والقنوات الفضائية ، حسب حكمك الصائب :هل عند هؤلاء الكبار وأمثالهم الحياة ليست تعايشاً بقدر ماهي تعارك وصراع؟! أم أن أبو مدين مستثنى بـ - ولكن - من سكان الكرة الأرضية الذين تجاوز عددهم المليارات الستة ؟! وقلت في الصفحة نفسها : لعلها الحياة التي عاشها منذ طفولته وحتى عهد قريب ؛ إنه يتحدث عن المجتمع الذي أستطاع أن يوجد لنفسه فيه مكاناً، وذلك لم يتم إلا بصراع أحس هو بوطأته وعنفه، ولذلك فإن العنوان لم يكن في جوانب الحياة ، ولم يكن عن وجوه الحياة ، ولم يكن شيئاً آخر غير العراك الذي في الحياة». وأقول

لعثمان: كذبت، وهذا من أضغانك ؛ أنا لست ماقلت ، وطفولتي كانت كبداً ؛ وطفولة كثير، كثير، كانت مثلي! والله يقول : «لقد خلقنا الإنسان في كبد». والأستاذ حدد لإحني وقتاً طويلاً جداً؛ وأنها أستمرت إلى عهد قريب ، وهذا تفضل منه ، ولعله كان خليقاً أن يقول إن حالي الردئية باقية ما بقيت الحياة ؛ وإنه ليحسن اليَّ بذلك ؛ وجدير به أن يلغو! وعثمان يجهل الحياة التي فيها كل الأنماط، عراك ومشاكل ومواءة ؛ لذلك فهو يهرف بفرضيات ألصقها بي ومردها أوهامه الفاسدة وخيالاته التي تنبع من نفسه النقية الحميمة ، وأعذره ! ذلك أنه يجهل حقيقة الحياة لأنه لم يعشها في أبعادها وأعماقها ؛ ولعله يحسبها جنة وسندساً وحدائق ذات بهجة ؛ ومادمت تجهل حقيقة الحياة ؛ فأنت فارغ التجربة ، وأن حكمك عليها وعلى من فيها فاسد وبعيد عن واقعها ! وإذا عضتك بأنيابها أو كشّرت عنها؛ فإنك ستعيها، ويومئذ ستزداد آلامك ! وربما يعلو صوتك مما تلاقي ويصيبك ومن تعايش ، ومن يضطرب فيها؛ ذلك أنك اليوم بعيد عن حقيقتها؛ وحين تخالط ومن يعيش فيها، فستدرك ماهيتها، ويوم يعضك الدهر بنابه، تدرك مرارة الحياة وظلم وفساد كبير ينعكس على كثير ممن فيها ؛ ولا أحب لك أن تكون مثل ذلك

الرجل الذي ذكر وهو يحاور صاحبه في سورة الكهف : «ودخل جنته وهو ظالم لنفسه»؛ وأنا لم أظلمك؛ حتى تبادر بالعداء، كما أذكرك بما كان لذاك الصحابي حينما ذكر ذلك الصحابي الجليل بلال بن رباح في حضرة معلم البشرية ذي الخلق العظيم كما وصفه ربه: حين قال أبو ذر الغفاري: «ابن السوداء»، فغضب صلى الله عليه وسلم، وقال لأبي ذر: «إنك إمرىء فيك جاهلية».. يا صاحبي: حين تصحو فإنك ستجد في الحياة وواقعها ماتكره إن كنت جهولا! إنه واقع ليس فيه خيار؛ إنها الحياة بحلوها ومرها إذا كنت لاتدري، ذلك أن تفسيرك لحياتي وطباعي تطوّعاً من عندك، سيء وباطل، لأن حساباتك، إن صح أن لك حسابات؛ فإنها جاهلية نتنة، ذلك أنك لاتقرأ ماحولك؟ إذاً فأنت تجهله، ورؤياك مظلمة، احببتها أنت طائعاً مختاراً؛ ومعذرة إن أعدت على أسماعك المثل العربي: «رمتني بدائها وانسلت».. وإذا كانت الحياة كما تصورها أنت في خيالك الحصيف؛ فتعكس معنى كلمة - معترك - عليّ تلوّكاً وممارسة ورؤى، فأنت رجل مخيف وخطير، وحياتي في رأيك : جحيم وهم وكرب؛ وأهديك أن تقرأ صحافتك لترى ما فيها .. أما إذا كان حكمك حصرياً موجه لي وحدي؛ فحسابك على الله تعالى! ويرى عثمان زاده الله معارف

في ص – 160 – عن ممارستي الكتابة في القضايا الإجتماعية، فقال: «والتفات أبو مدين عن النقد إلى مشاكل الحياة لم يكن بهواه بقدر ماهو انصراف مرغم عليه».. ويذكرني هذا الحكم التطوعي بمقال كتبه أديب العربية الكبير عباس محمود العقاد، رداً على الأستاذ مكرم عبيد، عنوانه: «لسنا عبيداً ياعبيد»؛ وكان يكفي الأستاذ العقاد لو وضع اسمه في رأس الصحيفة أوفي آخرها دون أن يقول شيئاً ؛ ولكنه قال كلاماً مراً عنيفاً ؛ ألجم به خصمه ؛ حتى إنه لم يقل شيئاً؛ ولم يستمر في المعركة معه؛ بل لزم الصمت، ولو قلت مثله لعثمان كفاء ما قال لأنصفت نفسي، وربما عاتبني العقلاء، أوقلت شيئاً من رسالة ابن زيدون الهزلية إلى ابن عبدوس؛ ربما أحسنت إلى عثمان بتوعيته، ولقد تخليت عن كلام كثير رداً على اعتداءاته مؤلماً ؛ مثل الدق في الكلا، ترفعاً مني، وليس إيثاراً للعافية ..

وإني أعلن أنني حضرت في بعض البلاد العربية مناقشات لأطروحات مختلفة، فرأت هيئة المحكمين بأيديهم ملاحظات كثيرة يُلقون بها على صاحب الأطروحة، يتحاورون معه فيما وثق؛ وإذا كان هناك أوجه أخرى لم يأت عليها ومما استشهد أو نقيض

ذلك؛ وأذكر أنني حضرت مناقشة لأطروحة عنوانها: «المال في الشعر العربي» في مدينة تونس في جامعة منوبة؛ وافترى صاحب الأطروحة حين قال: «إن الفتوحات الإسلامية كانت بهدف المال»، ورد عليه أحد المحكمين الدكتور محمد اليعْلاوي؛ بأن هذا الحكم ليس صحيحاً، وكلف صاحب الأطروحة باستبعاد ماقال ,وعديد من أصحاب الأطروحات دخلوا الامتحان مرتين وثلاثاً، وفى كل مرة يكلف المتقدم بإكمال رسالته لنقص فيها ولإجراء تعديلات كان لابد من إجرائها في الكلام غير الموثق الذي يأتي به المتقدم ويظهر فيه شطط.. وجامعاتنا بعامة التي لا تأخذ بهذا المبدأ؛ أعني المحكمين فإنهم خاطئون، ولعل رسالة عثمان إحداها، لم يناقش صاحبها فيما أبدى وأعاد من اتهامات وأراء خاطئة بلا أي دليل عليها؛ وأعني حياتي الخاصة وإلصاق تهم ومساوئ لا قبل لي بها ! وهذا ما كان ينبغي أن يستدرك.

في ص- 164 -، وقف عثمان على الصخر والأظافر، عنوان أحد كتبي؛ وبودي أن يطيل وقوفه لتدمي براجمه أو قدماه؛ وقد فعل بعض الشيء وهو يؤوّل بيت شعر أبي العلاء الذي وضعته في صدرالكتاب على الغلاف الثاني ، وأنا أتيت بذلك البيت لأنه أعجبني، وهو:

إذا قلت الصحيح أطلت همسي وإن قلت المحال رفعت صوتي

وتهويماتك عثمان حول عنوان الكتاب وضعف الظفور، وكذلك معطيات بيت أبي العلاء، ومن خلال الفهم السقيم الذي قاله الباحث المجلي، صرفت النظر، وكدت استشهد بقول المتنبي:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

لكني رأيت أن عثمان ليس في حجم ولا قامات أولئك الكبار الذين عناهم أبو الطيب من العلماء والنقاد في زمانه وبعد زمانه؛ والإعراض عن الكلام السخيف ترفعاً ؛ ولعله رد صامت، وأن ماقيل غير خليق بأن أتوقف عنده ، فأنصرفت عنه.. وقال عني زاده الله معرفة وعلماً في ص – 165 –، وهو يدور حول نفسه وحول الصخر والأظافر عساه يخرج بطائل إلا بعض قوله السقيم ، قال: «فالحياة كانت أمامه صعبة قاسية صماء؛ حاول بالقراءة أن يشق طريقه الوعرة فيها حين يغدو العالم صخرة ..» وإني أهنئه على سعة أفقه وعمق فهمه الذي لا يقاس عليه، وأقول له عساه يدرك ؛ وإن كنت أشك في ذلك لأنه منغلق ؛ أقول إن الحياة الصعبة القاسية هي مختبر للرجال والنساء لكي يتحدوها

بتوفيق الله أولاً ثم بالرأي الثاقب والعزيمة والفهم؛ وأقرأ فيما كتبت استشهادي بقول القائل:

لأستسهلن الصعب أوأدرك المنى　　　فما انقادت الآمال إلا لصابر

وأقول لعثمان : «إن الأمانة العلمية تتطلب منك تحري الصدق في القول والاستناد على أدلة؛ والإبتعاد عن الكذب، وتزويرالحقائق ؛ لتكون جديراً بما حصلت عليه.. وأخيراً أذكرك بقول الهادي البشير سيد المرسلين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف» من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"..

* ما كنت لأزج بأخي الدكتور عبدالعزيز السبيّل المشرف على هذه الرسالة ؛ ماكنت لأزج به في حرج، غير أني مكره في الدفا ع عن نفسي، ذلك أنها حين تطبع سيصدق كثير أو كل من يقرأها؛ أن ما قاله صاحبها حق وصدق ؛ لاسيما أنها صدرت أو طبعت في حياتي ؛ وأن المشرف عليها بعث إليّ بنسخة منها وأنا صمت إزاء ما جاء فيها ؛ وأن ذلك يعني تلقائياً أن ذلك صحيح ؛ لذلك حين فرغت لقراءتها بأناة ؛ سارعت إلى إخبار أبي حسان بالتجاوزات الكثيرة التي انداحت فيها من أول صفحة فيها إلى

آخر ما قال كاتبها ؛ ولو كانت التجاوزات عابرة في بعض الصفحات ربما أمكن بجهد الأخ المشرف حمل صاحبها على إزالة العوار، غير أن ماكان في تقديري هو شيء مقصود من صاحب الأطروحة ؛ والدفاع عن النفس مبدأ مباح لأنه حق، وإلى الله ترجع الأمور.

* * *

الثقافة والتنمية(*)

كانت ثقافة الفرد في البداية متواضعة ؛ والحياة في الماضي غير البعيد قبل نحو سبعة عقود، كانت هيّنة رخية بسيطة جداً ؛ وكان عدد سكان المملكة محدوداً ؛ ومتطلبات الحياة يسيرة وحركتها ضيّقة، ولم يكن فيها شيء من تعقيد ولا عسر .. وكان التعليم محدوداً، إذ ينحصر فى مراحل من التعليم العام وحده .. وفي عام 1356هـ، تأسس في مكة المكرمة ما كان يسمي بمدرسة تحضير البعثات، حيث أخذ ألطلبة يفدون من أنحاء المملكة لدراسة المرحلة الثانوية، وبعد ذلك يذهبون إلى مصر للدراسة الجامعية، وكان العدد الذي يتوجه للدراسة الجامعية محدوداً، وكان التوالي في هذه البعثات هو طريقة الانطلاقة، ومما يذكر في هذه المناسبة أن بعض خريجي مدرسة الفلاح بمكة التي أسسها

(*) مشاركة، قدمت لنادي تبوك الأدبي في شهر ذي القعدة 1429هـ، ثم نشرت في ملحق الأربعاء، الملحق الأسبوعي لصحيفة المدينة المنورة.

وأختها بجدة الحاج محمد علي زينل، كانوا يذهبون للدراسة في الهند على حساب مؤسس المدرستين ؛ ومدرسة تحضير البعثات استمرت في أداء رسالتها إلى عام 1374هـ وهو تاريخ افتتاح جامعة الملك سعود بالرياض، حيث تحولت من تحضير البعثات إلى مدرسة ثانوية ؛ وبعدها افتتحت جامعة الملك عبد العزيز عام 1380هـ فتوسعت دائرة التعليم عبر مراحل امتدت إلى اليوم .. وخلال السنوات المواضي استمر الابتعاث إلى مصر حيث جامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية وجامع الأزهر ، وإلى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وإلى أوروبا ..

وإذا انتقلت إلى التكوين الثقافي ؛ فإني أستطيع أن أرجعه إلى قرون طوال تبدأ من ظهور الإسلام، بدءاً من الهجرة النبوية المباركة، وعلى التحديد من بعد فتح مكة في العام الثامن من الهجرة .. إذاً ؛ فإن المعرفة في الجزيرة العربية، بعد تجاوز ما يسمى بالعصر الجاهلي، انطلقت من المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وإن كانت البداية المدينة النبوية من المهاجر صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام من المهاجرين والأنصار حيث تربوا في مدرسة النبّوة ثلاث عشرة سنة، ثم عبر

مرحلة الخلفاء الراشدين إلى تاريخ انتقال الخلافة إلى دمشق مع بدء قيام الدولة الأموية، وبعد ذلك أخذت المعرفة تنتشر في الحرمين الشريفين ودمشق والأندلس، ثم العراق مع عهد الدولة العباسية ..

وإذا كانت الثقافة هي ركيزة الحياة والمعرفة بشكل أعم ، فإن منطلَقَ التنمية الأول التعليم ، وإنسان الوطن وكل وطن هو أساسه وعدته ؛ هو ركيزة النمو إذا أعد كما ينبغي ؛ ولا تكون التنمية بحق إلا إذا وجد تكوين معرفي ؛ والحديث عن التنمية الحقة القوية في أصقاع الأرض مرتبط بمستوى مابَلغه الافراد من تربية وتعليم.. والشواهد أمامنا ناطقة فأوربا في القرون الوسطى كانت أمية تعيش في ظلام دامس، وعبر مئات قليلة من السِّنين استطاعت أن تصبح دولاً تتسابق إلى الرقي والحضارة، قفزت واستعمرت وأقامت دولاً صناعية وحياة قائمة على العلم وتكونت فيها تقانة ومعارف يسعى إليها المحتاجون من آسيا وافريقية ؛ إلى أن وصلت إلى الذروة في القرن العشرين .. واليابان التي طحنتها أمريكا في الحرب العالمية الثانية ؛ وبالتحديد في عام 1945؛، أصبحت بعد نصف قرن تسابق أوربا

كلها، وغطت عَلَى بعض منتجاتها وبعض منتجات الولايات المتحدة الأمريكية، وغزت أسواق العالم بمنتجاتها القوية ؛ وتصدر كذلك التقنية الحديثة.. وكنا نسمع في أسواقنا قبل نصف قرن الناس يقولون: هذه بضاعة جابانية لا قيمة لها ، ونريد سلعاً انجليزية وألمانية وغيرهما، واليوم، بل منذ ثلث قرن أصبحت السلع اليابانية في صدارة السلع التي يبحث المتسوق فى الوطن العربي عنها ؛ بل إن السيارات اليابانية الاقتصادية الصغيرة الحجم غزت أمريكا نفسها .. وبرزت دول كانت مستعمرة وفي مستوى ما نسميه – العالم الثالث –، مثل ماليزيا وسنغافورة وتايلند وكوريا ، أصبحت هذه الدول وأمثالها يشار أليها بالبنان كما يقال ، نهضة إنتاجية وتفوق تعليمي وصناعي ورقي ونجح، ومرد ذلك التعليم المركّز غير التقليدي، المتطور القوي الفعّال، لأنهم أدركوا أنه عصب الحياة وتقدم الأمم وارتقاء الشعوب.

وإذا انتقلْتُ إلى التكوين الثقافي، من حيث إن الثقافة هي الركيزة ! فإني أرجع هذا التكوين إلى قرون تبدأ من ظهور الإسلام، كما قلت آنفاً ؛ اذاً فإن المعرفة في الجزيرة العربية

انطلقت من عواصم اخرى، هي دمشق وبغداد، وامتدت واتسعت إلى الأندلس وبالتحديد قرطبة، التي ازدهرت فيها العلوم الكثيرة حتى قصدها أبناء أوربا من مختلف الأجناس حيث تعلموا العربية ثم شرعوا في دراسة العلوم التي تكونت في عاصمة الأندلس ؛ وهي علوم دينية وعلوم تهتم بشؤون الحياة كالرياضيات بمسمياتها المتعددة والفلك والفلسفة والمنطق وعلم الكلام و«الصفر» وهو من اختراع العرب المسلمين.. إلى غير ذلك من العلوم التي شاعت وانتشرت في تلك البقعة الأوربية التي أصبحت بلداً كبيراً من بلاد الإسلام العامرة بمختلف المعارف الكونية والعربية والإسلامية يقصدها طلاب الحياة من كل مكان..
إذاً فإن الحياة المعرفية هي السبيل الأول والأخير إلى عالم التنمية التي تعنى بكل شيء في حياة الإنسان، وبالتنمية يرقى التعليم الذي هو ركيزتها الأولى إذا أتقن بناؤه على أسس متطورة ومتجددة يماشي سبل الحياة، لأنه عدة ارتقائها ونموها.. والتعليم إذا كان يستجيب لمتطلبات الحياة كلها، أتقن إعداده من البداية عبر برامج قوية وتكوين معلمين ومعلمات أعدوا بقوة وإتقان من الأساس ؛ وأعني بذلك التعليم من مراحل الصفر.. وهو ركيزة التنمية والمحفز عليها لا سيمّا إذا اعتني به مبكراً،

واستطاعت الأمة أن تبدأه من عالم الطفولة المبكر جداً، كما سأبين لاحقاً في آخر هذا البحث ؛ وذلك ليعايش حياة «اقرأ» وهي أولى كلمات الوحي التي نزلت على خاتم رسل الله صلى الله عليه وسلم ؛ ونحن الآمة المسلمة أهل تنزل وحي السماء في الرسالة الخاتمة ؛ بعدنا عن هذا المبدأ قروناً طوالاً ؛ ورأينا الغرب حين وعى الحياة ومتطلبات الرقي فيها، يأخذ بتلك القاعدة الأولى التي جاءتنا من السماء لتُوعّينَا وترشدنا إلى أنّ بداية الحياة الحقة والرقي فيها يبدأ - بالقراءة -؛ نسينا ذلك وتهنا ، والواعي منا رأى اقتناص ذلك المبدأ فأخذ يسعى في حياة قيمة وذات قيمة، ورأيت عبر إحدى الفضائيات العربية أن أمريكا منذ عشرين سنة شرعت تمارس مع الطفولة في مراحلها المبكرة تغذية ذهن الرضيع عبر حركات وصور للفت انتباه البرعم الوليد إلى الارتباط الذهني بما هو مقبل عليه في آتي أيامه من الدخول في عالم الفهم والوعي بما ينبغي أن يؤسس فيه من سبل الحياة ومتطلباتها.. وأكبر الظن أننا مازلنا بعيداً عن هذه المراحل.. وأذكر أنني كنت في بيت صديق في إحدى المدن الأمريكية ؛ قبل عقدين ؛ وكان لذلك الأخ ابن ربما في عامه الخامس جيء إليه بفتاه لتعلمه الإنجليزية، وقال لي إن تلك المعلمة طلبت إلى أم

الطفل أن تذهب معه للمكتبة لاستعارة كتاب كتبت اسمه لكي توقع الأم في استلام الكتاب المستعار؛ لكي تدربه المعلمة على قراءة أبجدية الإنجليزية ثم الكلمات التي تعنى بمعاني ما حول الطفل في حياته البدائية بتدرج وأناة، ونحن إذا وصلنا إلى هذا المستوى من العناية والتأسيس فسيكون لنا بمشيئة الله شأن في الارتقاء بتعليمنا العام شريطة أن يكون عندنا المستوى الراقي من المعلمين في مرحلة التأسيس ؛ يكون عالي المستوي يبنى عليه ما بعده عبر متانة وقوة ترقى بالطالب والطالبة إلى مستويات الوعي والنجح والاعتماد على النفس، ولكن ليس من خلال التلقين وحشو الأذهان بالحفظ فيما لا يفضي إلى شيء ذي قيمة، والأجدى في ذلك الفهم وليس الحفظ والتلقين .. إذا استطعنا أن ننفذ من ممارساتنا التقليدية الجامدة، فإننا نكون قد شرعنا في أولى خطواتنا الصحيحة؛ التي تبدأ من الخطوة إلى الألف والعشرة آلاف ميل! وحين أطيل الحديث في مسألة البناء التعليمي ليكون القاعدة القوية الشامخة لكي يعلو البناء قوياً صلباً، فإني أزعم أن ذلك يفضي في المسير إلى قمة تعليم عال راق قوي ؛ وهو الذي يقود إلى مرحلتي الرقي الثقافي والتنموي

؛ إذ لا يمكن أن يكون وطن مثل بلادنا قوياً اقتصادياً وليس قوياً تعليمياً ولا تنموياً عبر خطط مدروسة متميزة، وأؤكد أن تلك القوى هي الأسس للرقي الحضاري إذا استكملنا أدواتنا الأساسية كلها التي تنهض ببلادنا ، وقواعدها الأولى التي يعتد بها – تعليم متميز – وأن يكون أبناء الوطن هم العماد وهم الخبراء، فلا خبراء من خارج الوطن يسيرون عَوضنا حياتنا المادية والاقتصادية ويكونون الموجه الأساس لبنوكنا وغيرها من أطر كياننا الكبير! إننا سنصبح قوة فاعلة يوم نستكمل جميع أدواتنا ومنها – الإحصاء –، فأمة ليس عندها إحصاء ؛ فإنها تسير في متيهة لا توصل إلى شيء مما يراد، ويوم يصبح أبناء الوطن جميعاً هم عماد كل أعماله من أدنى ممارسة في خدمة الشارع إلى الاختراع.. ولكن حين يتردد في مجالسنا وصحافتنا أن في الوطن بطالة وبجانبهم أكثر من ستة ملايين أجنبي ؛ فإن هذا يعني أن في حياتنا بعامة خللاً ونحن ندرك هذا الخلل، ولا أقول مطلقاً أننا لا نستطيع أو عاجزون عن تدراك هذا الخلل أو الشرخ الذي يخترق حياتنا وبأيدينا الحلول، ولما كنا لا نملك خطط تنمية ولا إحصاءات سكانية ؛ ولما كنا لا ننظر إلى الغد

البعيد برؤية صحيحة ثم نشرع إن لم نكن قد شرعنا منذ عقود في البناء الحق ؛ فإن واقعنا يدفعنا ويلح في دفعنا إلى أن نؤسس قاعدة انطلاق قوي فعال عبر خطة مدروسة نسير على هَدْيها لنحقق طموحاتنا ونخطط لخمسين سنة مستقبلية، وأنا منذ عقود خمسة ونيِّف، وصلت إلى معرفة أن البريطانيين يسيرون عبر خطط رسموها لحياتهم منذ كانت الشمس لا تغيب عن مستعمراتهم ، فإن جاء لأحدهم مولود ذكراً كان أو أنثى فإنه في أسبوعه الأول يسجله في الجامعة ؛ ليجد له كرسياً حين يبلغ الثامنة عشرة ، وهذا النظام يمكن أن نسميه تخطيطاً قوياً، ولكنه نظام حياة حقة يتساوى فيها كل من تظله أراضي الجزر البريطانية لا فرق بين مواطن يحمل جنسية التاج البريطاني وبين مهاجر ومقيم ؛ فهم جميعهم سواسية أمام النظام العام.

وحول تأفف السعودي عن ممارسة أي عمل في وطنه ، إلى جانب الالتزام والقدرات ومتطلبات سوق العمل بعامة ، فإني كثيراً ما أردد قولة الأمير – الملك – فيصل بن عبد العزيز رحمه الله ؛ يوم كان حوله كوكبة من أصحاب الصحف الفردية يومئذ، وذلك حين تكلم الأخ عبدالله أحمد شباط صاحب ورئيس تحرير

جريدة – الخليج – التي كانت تصدر في الخبر، قال مخاطباً ولي العهد الأمير فيصل: إن الأجانب الذين حلّوا في البلاد ضايقوا المواطن في رزقه.. فرد الأمير: أنا أحتاج إلى سباك في منزلي ؛ فهات لي سباكاً سعودياً أعطيه الراتب الذي يريد، ثم قال: قبل مجئ الأجانب ما كان في الرياض حلاق في مستوى من النظافة يمكن الذهاب إليه ، ولما جاء الأجانب كانت النظافة والمكان الجميل المكيف والعدة النظيفة المتطورة، ثم التفت إلينا: أنتم ياأهل جدة: هل عندكم غير الحلاق الهندي الذي في شارع قابل ؟ ثم قال: السعودي يريد في جيبه قلم باركر ومكتباً مكيفاً وأمام باب مكتبه فراش يقول له: «هات قهوه وهات شاهياً».. وأكبر الظن أن الحال في شطر ماتزال على عهد ذلك الحديث الأنف يومئذ ؛ ولا أدل على ذلك من وجود الملايين الست من الأجانب أو يزيد، وكذلك نغمة ما يسمى البطالة ؛ وفي رأيي هناك متسبّبات؛ الأول هزال التعليم، وأعني به في الدرجة الأولى: التعليم العام؛ ذلك أن مدارسنا دون استثناء، أعني الحكومية تخرج أميين لا يفقهون شيئاً ؛ وهم قد قضوا في الدراسة اثنتي عشرة سنة متواصلة ؛ وأستثني النابغين والذين يدرسون في مدارس خاصة ، والذين وراءهم آباء وأمهات جادّون وليس في

حياتهم لعب ولا مضيعة للأوقات فهؤلاء حالة استثنائية ؛ وأرى أن هناك جانباً آخر مهم، ذلك أن أبناءنا لا يقبلون أي عمل يتاح لهم فهم يتأففون من الأعمال التي يرونها لا تليق بهم في نظرهم وينهض بها أجانب، وثم مُتسبب آخر ؛ وهو أن كثيراً من الأعمال التي ينهض بها أجانب رواتبها متدنية ؛ ودخلها لا يكفي المواطن وطموحاته ؛ ولذلك ينبغي أن يحدد حد أدنى للمرتبات، لكن لا يزال المواطن غير ملتزم بدوام الوظيفة، وعينه على موظف الدولة الذي لا يؤدي إلا الحد الأدنى من دوام العمل، إلى جانب أن شرائح كثيرة لا تؤدي واجب الوظيفة الرسمي كما ينبغي.. والسعودي علته كذلك عدم كفاءته التعليمية التي تؤهله لأي عمل متاح، وعدم التزام البعض بدوام الوظيفة في القطاع الخاص ، إنها مجموعة مسببات، ولعل أهمها أن تعليمنا العام والجامعي لا يتخرج فيهما متطلبات العمل.. وبالمناسبة فقد ذهبت مع صديق لي تونسي في آخر شهر أبريل 2008م إلى سوق الخضار والفاكهة في تونس، ذهبت مع صديقي عليّ أرى هناك عمالة أجنبية من شرق آسيا أو من جهات أخرى، غير أني لم أر إلا «توانسة» ينهضون بجميع الأعمال كما هي حالهم في كل متطلبات الحياة، إلا أن أبناءنا لا يرضون القيام بأي عمل مباح،

ولعل الترف مرد ذلك، وأنهم لم يهيئوا لكل عمل ؛ ومن عقود كنا ننادي، بأن الطالب حينما يتخرج في الثانوية ينبغي أن يجند لما أسميناه خدمة العلم ؛ وهذا شيء مهم وأساس، وأمام عيني قولة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم»؛ وإنني أردد أن الترف لا يربي أمة، وإنما الكدح هو الذي يربي الشعوب والأمم، والشاب الذي يشارك في الجندية يذهب عنه الترف المميع ؛ ولعل الدلع والحياة الناعمة التي لا تليق بالرجال هي ديدننا منذ عقود!

إننا حين نبحث عمن ينهض بشؤون التنمية عبر شروطها ومتطلباتها ؛ فإن الجواب سيكون الأكفاء والكفاءات ؛ وهي نتاج القدرات العلمية والمعرفية الذين يكونون في الصدارة أو ينبغي أن يكونوا كذلك بدون جدال في هذا الوصف.. إذاً فإن المحصلة إن صح هذا التعبير هي الكفاءات التي تنهض بسبل النهضة الاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية.. والوصول إلى هذه القدرات لا يكون إلا عبر الارتقاء في التعليم وبالتعليم، وإذا نظرنا إلى الحياة بعامة منذ بدء الخليقة فإننا واجدون أن العلم هو الذي يقود إلى الحياة الكريمة، إلى العلو الذي لا يكون إلا عبر رقي

حضاري. وحينما نعود إلى بدء الخليقة نقرأ في سورة البقرة: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة إلى قول الحق: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا**﴾، كما جاء في سياق الآيات، فقال الله لآدم ﴿**أنبئهم بأسمائهم**﴾.. هذا هو العلم، أو هذه هي المعرفة.. وإن بدء الرسالة الخاتمة بدأت بـ: «اقرأ» نزل بذلك رسول السماء عليه السلام على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وجاء في اقرأ قول الله تعالى: ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾.. وأمتنا الأمية كانت كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة**﴾ ذلك منطلق الأمة الأمية الإسلامية إلى المعرفة بصورة عامة، فأصبحت هذه الأمة يقودها رسولها الذي لقب بمعلم البشرية.. وقد ارتقت الأمة المسلمة بما نالت من معارف عبر ارتقاءاتها، فبلغت فتوحاتها إلى الصين شرقاً؛ وغرباً إلى المحيط الأطلسي وقال أحد قوادها وقد خوض جواده في شاطئ الأطلسي: والله لو أعلم أن وراء هذا البحر خلقاً لخضته في سبيلك، انتصر الفاتحون على أكبر دولتين كانتا تحكمان الدنيا: دولة الفرس ودولة الروم، وأتيح لهذه

الأمة الموحدة من المعرفة ما جعلها في طليعة أمم الأرض، حتى إن الغرب واليهود كانوا طلاباً في مدارس المسلمين في الأندلس، كما أشرت آنفاً.

إذاً فالمعارف الراقية هي التي تبني صروح التنمية بكل السبل التي ترقى بحياتها كلها، شريطة أن يعطي القوس باريها، حين يكون الرجل المناسب في المكان المناسب.. والإرادة هي السبيل إلى الرقي بأدواته، والأمة التي تملك العزائم ولا يفت في عضدها التردد، تصل بعون الله وبصدقها وطموحها إلى ما تريد، فالإعداد قوة، والثقافة الشاملة التي على وجه الأرض إذا ملكتها أمة تصبح واعية وقادرة أن تبني تنمية لا حدود لها مادامت تملك كل مقومات أهدافها البعيدة ؛ ولا أنسى أن أضيف ركيزة أخرى مهمة هو الصبر، وهذه أعمدة النجاح في الحياة بعامة ومقوماتها التي لا تتجزأ لأنها كينونتها الآساس.

وعنوان المحور الذي اخترت، يمكن أن يقدم فيه ويؤخر ؛ بحيث نستطيع صياغته هكذا: التنمية والثقافة، حيث إن أن ركيزة التنمية وعمادها هي الثقافة، والثقافة يعني الشمول لكل جوانبها غير المحدودة بحد ؛ وأي أمة تملك المعارف التي في الحياة كلها،

وعندها الوسائل ذات المقومات، فهي قادرة أن يكون لها تنمية توصلها إلى ما يسمى بالاكتفاء الذاتي في متطلبات حياتها، وهي الأمة التي تبني للغد البعيد بما تملك من قوة بشرية أولا ثم مادية ثانياً، والتي يدفعها طموحها القوي أن تستثمر مواردها كلها لتؤسس حياة كريمة حين نستدرك ونعالج الأخطاء، نستعين بمن يُعيننا لننهض بالتنمية والثقافة معاً عبر خطين متوازيين، ثم نمضي نسلك سبل تحقيق ما نطمح إليه عبر استعداد وإعداد؛ ولا ريب أن الاستفادة من معطيات خبراء عالميين يرسمون ويعدون لنا خطة قد تكون ثلاثية وقد تكون عشرية.. ولذلك فالأحسن أن نكتفي بالخطط التي تؤدي إلينا ما نريد، بعيداً عن عوامل تعرقل ما نبغي أن نصل إليه! وكان بإمكان مثلنا خلال ثلاثة عقود خلت أن تكون له قاعدة عالية تتجاوز ما وصلت إليه دول شرقية ؛ استطاعت أن تقطع أشواطاً في التنمية والرقي، وقد أشرت إلى ذلك آنفاً.. وينبغي أن ندرك أن الزمن لا يتوقف ليدركه حراك لا يسير نحو الرقي بوسائله الصحيحة الهادفة، لأن الأعمال الحقة ليست حبراً على ورق وإنما نتائج توازي ما ينبغي أن يكون في سلم الرقي الحضاري مادمنا نملك وسائله كلها ؛ ولا ينبغي لي أن أقول إن عندنا تردداً ! ولكني استطيع القول إن

ثمة خللاً وأخطاء نقع فيها حالت بيننا وبين ما ينبغي أن نحققه عبر فرص أتيحت لنا وما زالت بأيدينا لكن لا يمكن أن ننجز ما يرقي بمسيرتنا فى التنمية إلا إذا أدركنا أخطاءنا وتلافيناها، وبدأنا بمسار جديد فنستدعي من دول العالم المتقدم من يعيننا على ما يرقي بخطط التنمية ، شريطة ألا نتدخل فى رسم الخطط وتنفيذها، إذا أردنا أن نتجاوز أخطاءنا والعراقيل التي حالت بيننا وبين ما نريد أن نصل إليه، وقد صنعنا نحن تلك العوائق التي كبلنا بها أنفسنا ولم نستطع أن نخرج منها لأنا جمدنا، ولم نبحث عن سبل نتغلب بها على أخطائنا، ولكنا استسلمنا لما قيدنا به مسيرتنا، وليس بد للخروج من المعوقات إلا إذا فتحنا الأبواب وهيأنا من يخرجنا من المأزق التي أصبحت قيوداً كبلتنا وعطلتنا وحبستنا، ولا فكاك منها إلا بان نكسر تلك القيود المعطلة واستعنا بمن ينقذنا مما نحن فيه، ويومئذ يمكننا أن نقول إننا بدأنا مساراً جديداً يقودنا ويوصلنا بمشيئة الله إلى الارتقاء الذي نستطيع أن نفاخر به ويحسب لنا، ونسمع هتافات الأجيال القادمة التي نبني لها، بأننا استطعنا أن نعي أخطاءنا، وبدأنا الانطلاق عبر مسار مختلف سيوصلنا إلى طموحاتنا ! واستطعنا بعزيمتنا أن نبدأ من جديد نخطط نحو مستقبل يملؤه التفاؤل

والعمل الصحيح الذي سيسعدنا ويسعد من نبني لهم، تلك هي أجيال واعدة نحو مستقبل طموح ، متوكّلة على مولاها، ويومئذ يفرح المؤمنون من أمتنا ، إذا نحن غيرنا مسارنا الذي لم نبلغ به ما نريد ونرجو ، غير أننا نأمل أن نعوض ما فات بعون الله ، ثم بعزائم لا يفلها الحديد، شريطة أن ننطلق من مسار تصحيحي قوي وخليق بالإنجاز الذي يفاخر به المخلصون الصادقون، ونردد: من سار على الدرب وصل؟ ولسان حالنا يردد قول الحق: ﴿**وقل اعملوا**﴾.. ولقد تابعت حديث رئيسة فلندا في برنامج بلا حدود في قناة في الخليج مساء الأربعاء 1427/7/8هـ الموافق 2006/8/2م في ردها على السؤال الأخيرعن رقي بلادها ؛ قالت: «إننا لا نملك بترولاً ؛ ولكن هدفنا كان بناء الإنسان في التعليم ؛ وإذا أردتم أن تنجحوا فاهتموا بالتعليم للجنسين ؛ فإذا حققتم هذا الإنجاز فستصلون إلى المستوى الراقي».

إن الثقافة تبدأ من الفرد، ومراحلها تبدأ من البداية، وكما قيل: البدء من البداية.. ولعل العجز الذي نلحظه في مجتمعنا يبدأ من الطفولة ؛ وهذا الكيان الغض رهن بما حوله من أفراد الأسرة، وفي الدرجة الأولى الأم التي وصفت بأنها مدرسة إذا

أعدّت ؛ ثم الأب وبقية أفراد الأسرة، والعماد يتكئ على وعي الأسرة وثقافتها ، وكانت حقاً ذات تعليم جيد، لاسيما عضواها الأساسيان: الأم والأب، ذلك أن وعي هاتين القناتين هو الذي يقود أفرادها من بنوتها، ليمضي الأبناء عبر المسيرة التعليمية إلى الرقي التعليمي أولاً.. وحتى لو كان التعليم العام لا يواكب الطموحات، فإن القيادة في المنزل سوف تحرص على تنشئة أبنائها التعليمية عبر القنوات التي تحقق للبنوة ما يرقى بحياتها العلمية الجيدة، إن لم تكن المتميزة، بالسعي إلى إدخال الأبناء مدارس راقية؛ وبعد ذلك جامعة متميزة ليرقى الأبناء في المسيرة التعليمية التي ترضي الأبوة.. وحتى لو كان بعض الأبناء ليس عندهم طموح فإن الأبوة تغرس فيهم ذلك بالترغيب وزرع الإرادة فيهم بالحث والعمل.. ولا ريب أن العلم هو الذي يقود إلى الحياة الكريمة الراقية، ويضربون لهم الأمثال بالنوابغ والطامحين في الأمة وفي غيرها من المشاهير الذين بدؤوا من الصفر، ثم أصبحوا ذوي شأن رفيع ليس في مجتمعهم وبلادهم ؛ وإنما في العالم . ولابد من غرس حب القراءة في البنوة في المدرسة وفي البيت لتصبح عادة كما هي الحال عند شعوب الأرض في الغرب والشرق.. أما إذا كان الأبوان غير واعين وليسا مهتمين بنتائج

أبنائهما، فالأب مشغول بأعماله ؛ والأم في عالمها الخاص ؛ فإن الراعي البديل الرديء هو عالم الخادمات المجلوبات من أماكن شتى، وتصبح الحال التعليمية عند الأبناء عائمة، ولا يبرز منهم إلا الأقوياء والنابغون الطامحون ؛ ونسبة المتميزين ليست عالية وإنما هي مختلفة في كل مجتمع، ذلك أن الأصل الموصل إلى أمة متعلمة هو : المدرسة الجيدة عبر مناهجها المتقنة المتميزة ومعلم ومعلمة متميزان، والحديث عن الفرد يقصد به التركيبة في مجموعها.. فإذا تكاملت المستويات من بيت يتابع ويشجع ويوجه ويحرص على نتائج الارتقاء لأبنائه، وعلى الجانب الآخرمدرسة فيها كل مقومات النجح، ثم يتبع ذلك التعليم الجامعي القوي الراقي.. هذه القنوات مجتمعة هي عنوان أمة قوية ناجحة ومبصرة ؛ تدرك قيمة الحياة وروافدها التي تجعل منها حياة متكاملة ذات قيمة ومعنى!

أما الجانب الثقافي فإنه مردود هذا التعليم المتكافئ فى معطياته كلها للأجيال الحاضرة والآتية في السنين المقبلة بما تتطلبه الحياة من احتياجات، والأمة التي لا تنهض بمسؤولياتها من خلال الفرص المتاحة لها، فإن ركب الحياة

يتجاوزها، ولا يمكن أن يقال عنها إنها تملك مقومات المعرفة، والثقافة جزء منها، ذلك أن الحياة فرص، وحين تصاحبها حظوظ تدعمها، فإن التفريط فيها خسارة وأي خسارة، والفرص قد تتاح مرة ومرات، وأن عدم اكتسابها تفريط لا يعوض ولا يتجدد، وصدق شاعر الأندلس الكبير ابن زيدون القائل:

واغتنم صفو الليالي إنما العيش اختلاس

إن التنمية قوامها المعرفة بدعائمها ومقوماتها وسبلها المختلفة.. والطريق إلى تنمية قوية شاملة هو - العلم -، والعلم سبيله تعليم قوي متطور منفتح على كل قنوات المعرفة بلا قيود وبلا تعطيل ولا حواجز تحول دون التحصيل الذي يقود إلى اكتساب ما على وجه البسيطة من علوم ترقى بمدارك الإنسان وتفتح آفاقه على كل شيئ يتطلع إليه ويرتقى بحياته وتمتد إلى مستقبل لا حدود له، وأمام ناظري معلم البشرية صلى الله عليه وسلم القائل: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»، هذا التوجيه من الذي يوحى إليه ووصفه ربه بأنه لا ينطق عن الهوى عليه السلام يدفع أمته إلى سعي لا حدود له لأداء رسالته في إعمار الكون وقد هيأ له خالقه وأعطاه وسخر له

ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، ولا يبقى إلا أن يعمل ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد أمره ربه أن يعمل ، ويروى عن الخليفة الصديق رضي الله عنه قوله: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».. والحق يقول: **﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾**..

أما الرافد الآخر فهو أن يتاح لجامعات الغرب أن تفتح لها فروعاً عندنا ، فذلك يوفر على أبنائنا وبناتنا الغربة التي تحل بهم حين يذهبون إلى هناك لتلقى العلم في دراستهم العليا ؛ والمال الذي ينفق عليهم يبقى في الوطن دعماً ؛ وكذلك فإن فتح جامعات للولايات المتحدة وبريطانيا واستراليا وكندا وفرنسا يقوي وضع جامعاتنا من خلال منافسة معرفية قوية متميزة، ويستفيد الوطن من ذلك مكاسب متنوعة ؛ وهو انفتاح يحسب لنا وقد سبقنا إليه الإمارات العربية المتحدة، ولعلنا أكثر حاجة إلى تلك الجامعات في قارة هي المملكة العربية السعودية ، ويتاح لنا من خلال فروع تلك الجامعات الشهيرة القوية أنها تفتح مراكز تعليم اللغة الإنجليزية في بلادنا، لأن الانجليزية أصبحت مطلباً أساساً في حياتنا الوظيفية بعامة، والذي لا يحسن هذه اللغة لا يجد وظيفة

في القطاع الخاص خاصة ؛ لأن هذه اللغة ركيزة في متطلبات سوق العمل الجامح، وأردد قول الحق : **﴿وقل اعملوا﴾**.

تلك هي السبيل إلى الثقافة ؛ وعليها ومن خلالها نقيس مساحة التنمية ؛ ولعلي أقول إن التنمية ليست أرقاماً تسجل ؛ وإنما التنمية التي عبر خطط هي نتاج البذل والإنفاق والعمل، وينبغي أن يكون ثم احصاءات سكانية ؛ ومعطيات التعليم وماذا أفرز من رقي وتقدم ؛ وكم أنفق على البحث العلمي في الجامعات؟ وإلى أي حد نهضنا بجامعاتنا ؟ وما هي مستويات خريجي الجامعات؟ بهذه المقاييس وحجم العائد وقيمته نستطيع أن ندرك ونقف على معطيات التنمية ؛ وكم أنفقنا على الثقافة خلال ثلاثة عقود منذ قيام الأندية الأدبية والثقافية.؟ أنا لست أقطع برأي في محصلتنا عبر خطط التنمية الخمسية ؛ ولا المساحة الثقافية، لكني حين ألقي نظرة على الحال الثقافية فإني غير مقتنع وغير متفائل؛ لأن المحصلة لا ترقى إلى مستوى الطموح ، ولا ما يتطلع إليه المواطن الواعي ؛ وهذا يستدعي البحث عن الخلل أين يقبع، فإذا وصلنا إليه شرعنا ماضين إلى نهضة الأمة ورقيها .. ومن نتاج التعليم القوي يتكون الجانب

الثقافي ؛ وهذا على مستوى الأفراد من الجنسين، ويبقى روافد الثقافة ؛ وهي ليست كثيرة لكنها مهمة، تنطلق من وزارة للثقافة، وعنها تظهر قنوات للمعرفة عبر منابر شتى؛ كالأندية الأدبية والثقافية ، ومراكز ثقافية تبث المعارف بسبل مختلفة في المدن والقرى ، وعبر قنوات فضائية تدير حوارات يشرف عليها أكفاء وتدعو رموز الأمة للتحاور والبناء المعرفي الذي ينهض بها، ويفتح الوطن أبوابه ومن خلال المعارض تقام ملتقيات ثقافية عبر أيام المعارض التي تبلغ عشرة أيام، ولا بد من إشاعة مبدأ – القراءة للجميع – ويصاحب هذه المسيرة كتب للطفل، الطفل في مجتمعنا محروم ومهمل في جانب الاهتمام به ككيان له الحق في كل ما يبني كيانه وينهض به ؛ ونحن حين نبحث نجده مدللاً في مأكله ومشربه وملعبه وفسحه وأسفاره، أما حال القراءة فإن بينه وبينها حجاباً لم يصنعه هو، وإنما تجاهل حقه المسؤلون عنه في البيت وفي المجتمع ؛ إنه يذهب إلى المدرسة، وربما إلى الحضانة للقادرين! لكن سبل تعليمه وقراءته لم يرق كل منهما إلى ما ينبغي أن يكون لينال هذا البرعم اهتماماً هو خليق به، ومن خلال القراءة المدرسية غير تلقين الدرس الذي يشبه حال الببغاء، ينبغي أن ينال اهتماماً كبيراً في تعليم يليق به وقراءة حرة يسمع نفسه

ما يقرأ ؛ وليس علاقة صامتة مع الكتاب.. إن العناية بالطفل تأتي في مقدمة الاهتمام الذي ينبغي أن يكون؛ للتربية وتنشئة أجيال من الجنسين أقوياء تعليمياً، وينبغي أن يتعلم الطفل عبر سيدات وفتيات ذلك أنهن أقرب إلى نفسه وألطف من تلقين الرجال عبر ممارسة خشنة غير مألوفة لاتفضي إلى تحبيب الطفل في المدرسة والتعليم، والحق أننا حتى الآن لم نحسن سبل تعليم الطفل البتة ، ولا إعداد المعلم والمعلمة الجديرين بهذه المهمة غير السهلة والتي تتطلب قدرات ومهارات متميزة ؛ إنها نادرة في محيطنا ومجتمعنا الكبير ؛ ولابد أن يعلم الطفل من الجنسين معلمات درسن علم النفس والاجتماع والتربية بإتقان.. وكذلك إعداد كبير وموسع لعالم الطفولة العميق، وطفلنا في مجتمعنا يعيش على الهامش في مناخ لا يرقي بحياته التعليمية ؛ وإن دخوله للمدرسة بعد إكمال عامه السادس وقت متأخر، ذلك أن طفل اليوم له وعي مبكر، وينبغي أن يلتحق بالمدرسة بعد عامه الخامس شريطة أن يدخل مرحلة الروضة مبكراً ، والأسوأ أن عالمه خادمات متغيرات، يلبسنه أنماطاً من عاداتهن ولي لسانه وتعلقه بهن أكثر من ارتباطه بأمه وأخواته ؛ وهذه الحال غريبة ؛ غزت حياته وقَوْلَبْتها حسب حالها بالمناخ الذي كانت تعيشه في

وطنـها ،وهـو غـريـب عن مـجـتمـعنا وعاداتنـا ومـا ألفنا من أنمـاط تربيتنا وعاداتنا لاسيما ارتباطنا الديني ومناخه.. والأمهات ولدن ، لكنهن تخلين عن رسالتهن الأساسية، فغابت المدرسة الأساسية الأولى التي هي قوام حياة حقيقيـة! إنها لم تعد مربية أساسية، لا من حيث الإعداد، والتكوين، وأداء تلك الرسالة الكبيرة المنوطة بها؛ وهوحق من أنجبت، غير أنها تخلت، وسيسألها الله عن هذا التفريط المشين!، وبجانب هذا الترف لابد أن نرتقي بالطفل إلى مستوى كبير جداً لنتقن وسائل تعليمه مبكراً؛ وكنتُ ذكرت أنني تابعت خبراً عبر إحدى القنوات الفضائية ؛ أن الولايات المتحدة الأمريكية منذ عشرين سنة شرعت في تعليم الطفل وعمره ستة أشهر، بحركات في وريقات تحرك أمامه، وتتدرج هذه الحركات إلى أن يبلغ عامين حيث يبدأ الكلام عبر ما يسمع، ويردد كلمات مألوفة ؛ بابا ماما وما إليهما ؛ وفي هذه المرحلة يبدأ التعليم عبر كلمات وصور ونطق حتى يألف ويمضي تدريبه المتواصل على قاعدة تدرج في الارتقاء به حتى يدخل مرحلة – الروضة – في أو مطلع عامه الثالث أو نحوه، وفي مطلع عامه الخامس يدخل المدرسة وقد تدرب على قراءة الكلمات وبدأ كتابتها؛ وسمع في بداية التكوين وتدرجت نفسه على ما ألقي إليه؛ وانساب في

مشاعره لغة تهديه إلى عالم التعليم ومناخه وآفاقه القريبة الفهم ليألف جوا يتدرج في محيطه يلقى فيه حياة وإيلافاً سخياً بعبير التعلم ونور العلم؟ وكما قلت آنفاً أن يقدم إليه كلمات لما حوله وما يرى ويلمس، ويعين على مستوى إدراكه وهضمه بسرعة، لينتقل تعليمه لما يسمع ويمارس عبر ترديد لما يسمى تهجياً؛ وكتابة الحروف. ولابد أن تبدأ علاقته بالكتاب من عامه الرابع وهو في الروضة، ليصبح الكتاب أنيسه وجليسه، وأؤكد أن البيت عامل أساس في متابعة أبنائه في دروسهم وواجباتهم وعونهم على ذلك بالشيء المفيد لهم، ومعرفة من يخالطونه.. وإذا لم ينهض البيت بواجبه، فإن الوليد من الجنسين يعيش في فراغ كبير يخل إلى حد كبير بتحصيله الدراسي وبناء كيانه الذي ينبغي الحرص عليه حتى يستطيع أن يصبح قوي البناء التعليمي بلا تعثر ؛ ولابد أن يقوم البيت برسالته و العناية التي تقود إلى النجح المحقق بحول الله وقوته.

* * *

مع زعيم الأدب في القرن العشرين(*)!

كنت في زيارتي الأخيرة للقاهرة أجول في بعض مكتباتها متطلعاً إلى جديد لم أعرفه من المؤلفات الحديثة، فعثرت على كتاب طُبع منذ عهد بعيد يقرب من الأربعين عاماً، تحت عنوان (مع زعيم الأدب العربي في القرن العشرين)، يريد به كاتبه الدكتور طه حسين، ومؤلفه هو الأستاذ الكبير عبدالمتعال الصعيدي؛ الذي اشتهر ببحوثه المتتالية في المجلات العلمية والأدبية، ومن أشهرها مجلة الرسالة التي احتضنت آثاره الفكرية على مدى عشرين عاماً، وله من المؤلفات مايزيد عن أربعين مؤلفاً في علوم شتى، من المنطق والتاريخ والنحو والأدب والحديث، كما

(*) الاثنين 17 من رجب 1426هـ، 22 من أغسطس «آب» 2005م، صحيفة الجزيرة، العدد 12016، السبت 22 من رجب 1426هـ، 27 من أغسطس «آب» 2005م، صحيفة الجزيرة، العدد 12021، الاثنين 24 من رجب 1426هـ، 29 من أغسطس «آب» 2005م، صحيفة الجزيرة، العدد 12023.

كان أستاذاً مرموقاً بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، نحو عشرين عاماً، فالكتاب بموضوعه الحافل وبمؤلفه النابه جدير بالقراءة والدرس، ولم يكن في المكتبة غير نسخة واحدة، فغالى البائع في ثمنها مغالاة شديدة، وقبلت ما عرض عن رضى.

والكتاب فصول شتى تعرض لآراء الدكتور طه حسين في أشهر مؤلفاته الذائعة، فتناقشها مناقشة هادفة، وهي بذلك تكوّن تاريخاً أدبياً لفكر الدكتور طه في بحوثه الإسلامية، وقد عُرف الدكتور في مطلع حياته بالتهجم على بعض الكتب في الإسلام، ولم يكن موفقاً، إذ كان ينتحي وجهة المبالغة، ويتابع آراء الاستشراق متابعة شديدة، ويسوقها وكأنها بعض آرائه التي اهتدى إليها، وهذا ما كشفه الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي في كثير من صفحات الكتاب.. ومن الجدير بالذكر أن الأستاذ عبدالمتعال الصعيدي كان أول من كشف النقول المخطئة، التي أخذها الدكتور من كتب الاستشراق، فنشر عنها مقالات في الجرائد اليومية عند ظهور كتاب في الشعر الجاهلي، كما أشار إلى ذلك الأستاذ أنور الجندي في كتابه «معارك أدبية» مستشهداً بالدليل.

والكتاب يقع في ستة فصول مزدحمة بالأفكار الجادة، ولا سبيل إلى الحديث عنها في هذا النطاق الضيق، ولكني سأختار بعض ما كان له دوي في المجتمع الأدبي، فأعرض جُهد الأستاذ الصعيدي في تفنيد ما تورّط فيه الدكتور، ولم يكن الصعيدي وحده هو الذي اقتحم ميدان النقاش مع الدكتور طه حسين، ولكنه كان أحد فرسان الحلبة التي تكشّفت عن تُراث ضخم في مكتبة النقد الأدبي، وكان كتاب زعيم الأدب العربي في القرن العشرين، هو أحد الكتب الهامة، وإن لم يشتهر كما اشتهرت كتب الأساتذة محمد الخضر حسين ومحمد لطفي جمعة ومصطفى صادق الرافعي ومحمد أحمد الغمراوي ومحمد عرفة وغيرهم من كبار الباحثين.

في البحث الأول من الكتاب لخّص الأستاذ الصعيدي آراء الدكتور الدالة على اختلاق الشعر الجاهلي وأنه منحول غير صادق النسبة إلى أصحابه، كما بيّن الأدلة التي اعتمد عليها الناقد الكبير، وهذا الفصل يُغني عما كتبه الدكتور لأن طه حسين يسرف في التعبير إسرافاً لا يميل إلى الإيجاز، فجاء الأستاذ الصعيدي فجلى الموقف الصحيح، وحدّد مناط الاختلاف.

وإذا كان الدكتور قد ذهب إلى أن واضعي الشعر الجاهلي أرادوا به نُصرة الإسلام، فإن الأستاذ الصعيدي قد أكّد أن الإسلام لم يقم على أساس الشعر الجاهلي الذي يُريد الدكتور إنكار نسبته للجاهليين، ولو حُذف الشعر الجاهلي بعامة، ما ضرّ الإسلام في شيء، وإذا كان الدكتور يُعلن أنه يتابع العقل، ويميل إلى التفكير الحر، دون تقيّد بآراء السابقين، فالإسلام نفسه هو الذي يدعو إلى حرية العقل، إلا إذا تعارض النقل مع ما يُوحي به العقل، رغم أن بعض الباحثين يؤّولون النقل تأويلاً؛ ليسير مع العقل.

وإذا كان الدكتور قد شك في الشعر الجاهلي وصحة نسبته إلى أصحابه ، فإن القدماء قد سبقوه إلى الشك في بعض ما نسب إلى الجاهليين، وكانوا أحرص منه على اتباع الحق، إذ لم يتّسعوا بدائرة الشك إلى كل شيء، كما حاول الدكتور أن يفعل، فهذا محمد بن سلاّم صاحب كتاب (طبقات الشعراء) يقول: «إن في الشعر الجاهلي كثيراً من الشعر المصنوع المفتعل الذي لا خير فيه، ولاحجة في غريبه»، وهذا يونس بن حبيب ينكر ما روى من الشعر على لسان الأمم السابقة، وهذا أبو عمرو

بن العلاء ينحو هذا النحو، فينكر بعض القصائد، وإذاً فقضية الشك في بعض القصائد ذائعة مشتهرة، ولا ريب أن الدكتور يعرف ذلك جيداً، لأنه متواتر مشهور!

وإذاً فالشعر الجاهلي قد خضع للبحث الدقيق من كبار شيوخ الأدب في العصر الأموي والعصر العباسي.. ثم إن الشعر الذي روي عن النابغة وطرفة، وعنترة وزهير ولبيد، لم يكن موغلاً في القدم، وأقدمه لا يتجاوز مائتي عام قبل ظهور الإسلام، والعرب عرفوا بالعناية الفائقة بالشعر، وله أسواق أدبية، تُروى فيها القصائد الرائعة ؛ فكيف يقول الدكتور إن بعد العهد يمنع حفظ الشعر في أمة أمية، والأدلة تنطق بقوة ذاكرة الرواة، وأنهم جعلوا ينتقلون بالقصائد في شتى أحياء العرب، حتى كان لكل شاعر راوية خاص!؟

ويقول الدكتور، إن لغات القبائل ولهجاتها لم تكن متفقة، والشعر الذي ترويه متفق، مما يدل على أن الذي وضعه قد وضعه بلغة واحدة هي لغة قريش، وقد نسي الدكتور أن لغة قريش قد سادت في الجاهلية منذ أكثر من مائة عام، فأصبحت لغة العرب، وبها نزل القرآن الكريم.. وفي عهد التدوين في

العصر العباسي كان علماء البصرة والكوفة يفحصون ما رُوي من الشعر، وينصون على ألفاظ كانت تخص بعض القبائل ولم تشتهر، وجعلوا ما ورد على خلاف القواعد من قبيل الشاذ، الذي يحفظ ولا يُقاس عليه.. ومثل هذا لا يقدح في الشعر الجاهلي لأنه يتعلق بمادته، ولا يتعلق بصورته!

وقد قال الدكتور إن قريشاً كانت متحضّرة في التجارة والصناعة والعمران، والشعر الجاهلي لا يدل على ذلك.. فقال الأستاذ الصعيدي إن التاريخ لا يحدثنا بشيء عن هذه الحضارة، فأين دور العلم والصناعة والتجارة والقصور بمكة حتى نقول إنها كانت ذات حضارة لا يصورها الشعر الجاهلي!؟ إن الحضارة كانت في الشام عند الغساسنة، وفي العراق عند المناذرة، وقد تحدّث عنها الشعراء الذين رحلوا إلى الشام والعراق، مثل النابغة والأعشى وعدي بن زيد وحسان بن ثابت..

وقد تحدث الدكتور عن كذب الرواة واختلافهم مثل حماد وخلف الأحمر، وأنهم أضافوا إلى الشعر الجاهلي كثيراً مما لم يُقل، وقد رد الصعيدي بأن هذا مشتهر، والعلماء الأقدمون هم الذين اتهموا حماداً وخلف الأحمر ببعض الاختلاق، وذلك يعني

أنهم كانوا يميّزون المنتحل من الصحيح، والدكتور لم يأت بجديد في هذا القول فهو من قبيل ترديد ما سبق أن قيل..

ويذهب الدكتور إلى أن امرأ القيس لم يسافر إلى القسطنطينية كما زعم الرواة، ولو كان قد زارها لوصف قصورها وبحارها وحضارتها، والأستاذ الصعيدي يرى أن الدكتور يكذّب ما رُوي عن امرئ القيس في وصف البادية، وما جاء في معلقته عن السحاب والمطر والإبل، فما باله يطلب منه أن يقول واصفاً مناظر القسطنطينية؟ إنه لو فعل ذلك لقال الدكتور إنه كذب ومنتحل، لأن امرأ القيس لم يعش هناك إلا زمناً قليلاً، لا يمكنه من وصف القصور والبساتين وأفانين الحضارة، وهب أن أمرأ القيس قد سكت سكوتاً تاماً عن الحديث عن رحلته، أفيكون ذلك دليلاً على أن كل ما قاله من الشعر مكذوب!؟

وقد ذهب الدكتور إلى نفي كل شعر تظهر فيه السهولة والرقة، مثل ما رُوي عن جليلة أخت كليب، وعمرو بن كلثوم والمهلهل، وهذا خطأ لأن الأساليب الأدبية تختلف باختلاف الأدباء في جميع العصور، والعصر الجاهلي فيه من يلتزم اللغة الجزلة، ومن يلتزم اللغة السهلة، وجليلة بالذات امرأة رقيقة حساسة،

فلابد أن تظهر هذه الرقة فيما تقول! ولا ترمى قصيدتها بالافتعال، لأنها أرادت أن تكون أي القصيدة سهلة قريبة إلى الأذهان.. وجاء الفصل الثاني وموضوعه «قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من الناحية الدينية والعلمية»، والحق أن الدكتور طه حسين أقحم هذه القصة إقحاماً في كتاب الشعر الجاهلي، حيث لا ضرورة، لأن الكتاب يبحث في الأدب الجاهلي ولا صلة له إطلاقاً بقصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبناء الكعبة، ولكن الدكتور في أعماق نفسه أراد أن يُحدث ضجة بكتابه تشغل الناس، والضجة لا تكون إلا بالتعرض للقرآن والدين، وهنا تقوم الثائرة ويشتد الجدال، وهذا ما يقصده الدكتور، ولو خلا كتاب الدكتور من هذه المسألة ما قامت حوله هذه الضجة.. وكان شأنه شأن كل كتاب يصدر في شأن من شؤون الأدب دون أن يتعرض للدين، ولكن الدكتور نقل عن المستشرقين دون أن يعزو النقل إليهم فقال: «إنه لا يكفي في إثبات وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يتحدث القرآن عنهما»، وهذا يعني أن حديث القرآن موضع شك، لا يثبت حقيقة من الحقائق، وقد قال من زعم ذلك إن الذي اختلق قصة هجرة إبراهيم وإسماعيل إلى مكة هم اليهود ليتقربوا للعرب بانتسابهم

إلى إبراهيم وهو والد إسحق، وإسحق والد يعقوب، فاليهود والعرب أولاد عم، وعليهم بناءً على ذلك أن يكونوا إخواناً متحابين..

وقد أعلن الأستاذ عبد المتعال الصعيدي؛ وهو أول من بيّن ذلك من الناقدين أن كتاباً يُدعى (مقالة في الإسلام) قد تُرجم إلى العربية، وذيُّله مبشّر مغرض ببحث قال فيه هذه الخرافة؛ وقد نسب الكتاب إلى من يُسمى هاشم العربي إمعانا في التضليل، وقد جاء في الكتاب ما نصه (وحقيقة الأمر في قصة إسماعيل وسكناه بمكة أنها دسيسة لفقها قدماء اليهود للعرب تزلفاً إليهم، وتذرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس، أو إلى تأسيس مملكة جديدة لهم في بلاد العرب، فقالوا لهم نحن وأنتم أخوة وذرية أب واحد، وإذاً فانتساب العرب المستعربة إلى إسماعيل ليس له أصل تاريخي في زعمهم، وقد رد الأستاذ الصعيدي متعجبا من ذهاب الدكتور طه هذا المذهب، لأنه اعترف في بعض الفصول أن القرآن هو الحكم الصحيح في كل ما يتعلق بشؤون الجاهلية حيث تحدّث عنها بإفاضة، فإذا كان القرآن هو الحكم الصحيح في شؤون الجاهلية؛ فلماذا يشكك طه حسين فيما جاء في

الكتاب العزيز صراحة عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام؟ كما أن اليهود حين جاءوا إلى جزيرة العرب لم تكن مكة هدفاً لهم، لأنها ليست مدينة صناعية زراعية يمكن التكسب منها، وإنما كانت المدينة هدفهم وبها نزلوا، وكانوا يبشرون أنفسهم بظهور نبي جديد يدعو إلى دين الله، ويظنون أن النبي المنتظر سيكون منهم، ﴿**فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به**﴾ كما يعلن القرآن، فاليهود إذاً لم ينزلوا في جزيرة العرب إلا بين قبائل العرب العاربة من الأوس والخزرج؛ وليست العرب المستعربة، ولو كانوا في حاجة إلى الدّس والتزلف إلى العرب لتزلفوا للعرب العاربة من أبناء قحطان؛ وهم سكان المدينة حين نزولهم؛ وقد كان العرب وقت الرسالة المحمدية، يعتقدون أن أصلهم أعلى الأصول وأرومتهم أرقى الأرومات، فهل يُعقل أن يقبلوا كلام اليهود في أصولهم المنتمية إلى إسماعيل وهم لا يعتقدون ذلك!؟

ثم تطرّق الدكتور إلى اختلاف لغة حمير عن لغة عدنان معتمداً على قول أبي عمرو بن العلاء: ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا، فقال الأستاذ إن ذلك كان في القديم وقبل سيل العرم، بدليل أن الوفود اليمنية التي وفدت على رسول الله ﷺ،

كانت تتكلم بالعربية من غير حاجة إلى مترجم، ولو كانت لغة اليمن بعيدة عن لغة قريش ما تم هذا التفاهم ولما دار النقاش بالعربية المعترف بها.. ثم إن العرب كانت لهم في الجاهلية أسواق جامعة في سائر أنحاء الجزيرة، فكانوا يقيمون هذه الأسواق في دومة الجندل أول ربيع الأول، ثم ينتقلون إلى هجر البحرين في أول ربيع الآخر، ولايزالون يتنقلون بين صحار والمشقَّر وحضرموت ومجنة وذي المجاز.. أما سوق عكاظ فهي أهم هذه الأسواق؛ وكانت القبائل من عدنانية وقحطانية تفد إليها، ويتحدثون كلهم بلسان واحد، ولغة واحدة، والنابغة الذبياني مثل واضح لاتحاد اللغة، فهو يحضر إلى عكاظ ويرأس هيئة التحكيم بين الشعراء، ثم يذهب إلى الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق، ويتحدث مع الجميع بلغة واحدة، وقصائده أكبر شاهد على انتشار العربية التي نزل بها القرآن في الجزيرة جميعها.. ثم استشهد الأستاذ بأقوال معاصرة، جاءت في مجلتي المقتطف والمنار تُؤكد ما يذهب إليه، ولا ريب أن هذا إنه من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل، ولكن الدكتور شايع المبشّرين فيما يقول! وقد كان الأستاذ الصعيدي صريحاً حين قال في ختام هذا الموضوع؛ موجها الخطاب إلى الدكتور طه حسين وأشياعه:

«فليعلم المزدرون منا بعلم أسلافنا، أن للطاعنين في علمهم من أبناء الغرب أغراضاً سياسية تحملهم على هذا الطعن، فلا يصح لنا أن نُشاركهم في هذه الأغراض، لأنهم يقصدون القضاء علينا، وما أجهل من يشارك عدوه في القضاء على نفسه»..

ثم ملأ الأستاذ الصعيدي أربعين صفحة متوالية في نقد كتاب المجمل في الأدب العربي، وهو كتاب مدرسي ألفه جماعة من الفضلاء هم أحمد الاسكندري وأحمد أمين وعلي الجارم وعبدالعزيز البشري وأحمد ضيف وطه حسين، فالدكتور طه إذاً واحدٌ من ستة أدباء اشتركوا في تأليف المجمل، ولا أدري لماذا وجّه الأستاذ الصعيدي النقد لطه حسين وحده، أيحسبه مسؤولاً عن كل ما فيه على وهم أن الكتاب قد قرئ على الجميع وأقرّوه؟ مهما يكن من شيء، فالقارئ وحده هو المستفيد من هذا النقد؛ لا على أنه خاص بطه بل يشمل جميع المؤلفين، وقد بدأه بتعداد بعض المآخذ اللغوية في عبارات الكتاب، وأنا أرى أن هذه المآخذ موضع خلاف في صحة الاستعمال، ومثل هؤلاء الأفاضل وفيهم طه وأحمد أمين وعلي الجارم والإسكندري من كبار أعضاء

مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فلابد أن يكون لهم رأي في صحة ما يراه الأستاذ خطأ، لاسيما وقد جرى العرف على استعمال كلمات تطور واعتبر والنَّيف، والاستئناف والجوامع، والإفرنج وغيرها، مما يدل على أن التشدد في تخطئة هذه الكلمات لم يعد مقبولا، وقضية سبق الشعر على النثر مما خاض فيه الباحثون، وهم يقصدون بالنثر هنا النثر الفني من أمثال ما كتبه ابن المقفع والجاحظ، فهذا النثر وليد ثقافة لم تُتح للجاهلي، أما الشعر فلا يستلزم هذه الثقافة، لأنه تعبير عن العواطف الفطرية وهي موجودة في الإنسان، ومحاولة الأستاذ الصعيدي تأكيد الأسبقية للنثر مما يُشكر عليها، ولكن أدلته مرجوحة لا راجحة، ثم انتقد الأستاذ قول المؤلفين إن شعر المجون ابتدأ في العصر العباسي الثاني بشاعرين هما ابن سكرة وابن حجاج، ونقده صائب لأن شعر المجون قد عُرف في العصر الأموي واستشهد له الأستاذ بشعر الأقيشر، وعمّارة وكناز، واستشهد بما يدل على رأيه من صميم ما رُوي عن الشاعرة في كتب التراث، أما تقسيم الأدب إلى عصور محددة فهو موضع خلاف بين الدارسين إلى الآن، وقد مال الأستاذ الصعيدي إلى تقسيم غير ما اتجه إليه المؤلفون، وليس له أن يعارض اتجاهاً آخر مادام لكلٍ

وجهته التي يطمئن إليها، أما ما وفق فيه الأستاذ الصعيدي؛ فهو إنكاره على المؤلفين أن يكون مبدأ النهضة الأدبية في هذا العصر، هو مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر، وهو ما ذهب إليه المستشرقون جميعاً في كتاباتهم عن هذه النهضة، وقد خالف الأستاذ الصعيدي فجعل ابتداءها في عصر محمد علي بعد زوال الحملة، وأيد ذلك بوجهة نظر محترمة، قائلاً إن الذين نسبوا الفضل إلى الحملة الفرنسية أرادوا أن يثبتوا للغرب فضلا لم يكن لهم، وأذكر أن الأستاذ الكبير محمود محمد شاكر قد دحض الرأي القائل بنسبة النهضة إلى الحملة الفرنسية بأدلة قوية لا يستطيع المجادل أن يدحضها بسهولة، كما أنه رجع بالنهضة لا إلى عصر محمد علي كما حاول الأستاذ الصعيدي أن يقرر، بل رجع بها إلى أخريات العصر العثماني، حينما برز في الميدان أمثال الشهاب الخفاجي والبغدادي والزبيدي وكلهم من الأعلام الكبار، أما ابتكار عمر بن أبي ربيعة لفن الغزل في الشعر العربي فلا أدري كيف تورط مؤلفو المجمل في تسجيله كحقيقة واقعة، مع أن صحف التراث مليئة بلطائف هذا النوع التي صدرت في العهد الجاهلي، وصدر الإسلام، وما كتبه الأستاذ الصعيدي في هذا المجال طريف بل ممتاز حقاً.

ومن أهم ما نقده الأستاذ في حديثه عن المجمل: ما كتبه تحت عنوان: (اختلاف طريقة التأليف في الكتاب)، إذ قال: «قد اشترك ستة في تأليف كتاب المجمل؛ وكان من الواجب عليهم أن يتبعوا في تأليفه طريقة واحدة، فلا يظهر في تأليفهم خلاف في أساليب البحث، حتى يكون الكتاب متناسقاً لا اختلاف فيه، وكأنه من عمل شخص واحد لا من عمل جماعة»، وقضى بين أنواع الاختلاف في تراجم الشخصيات واختيار النماذج الأدبية، واقتصار الشرح في نموذج شعري والإفاضة في الشرح في نماذج أخرى، وما قيل عن ضعف الخطابة في العصر العباسي، ونقد ذلك بالدليل، ثم مال الأستاذ إلى الحسنى حين قال في خاتمة النقد.

«وقد أراد مؤلفو الكتاب أن يضعوا منهاجاً جديداً للأدب العربي غير المنهاج الذي كان مألوفا من قبل، فوضعوا تقسيمات حديثة، وذكروا موضوعات لم تكن معروفة من قبلهم، ومن الواجب أن نشهد لهم بهذا إنصافاً لهم، كما زادوا موضوعات لا صلة لها بالأدب؛ وهذا شأن كل عمل جديد، فلا يستوفي حد

الكمال، وإنما يأتي اللاحق ليكمل ما فات السابق وإن الكمال لله وحده».

وفي نقد ما كتبه الدكتور طه حسين عن النقد الأدبي في العصر الجاهلي؛ مما نشره في كتاب الأدب الجاهلي؛ بعد مصادرة كتاب الشعر الجاهلي؛ واستبداله بهذا الاسم؛ أو كما قال: «هذا كتاب حذف منه فصل وأضيفت إليه بعض الفصول وغُيِّر عنوانه بعض التغيير»؛ أعاد الأستاذ بعض ما كتبه من قبل في دراسات أخرى لم تنشر في هذا الكتاب، وقد أنكر على المستشرقين قولهم: إن الأدب الجاهلي أدب رواية فقط وليس أدب دراسة، إذ لم يدون منه شيء إلا في الإسلام، وقد خالف الأستاذ هذا الاتجاه ؛ فذكر (وهو من الجديد الذي يحسب للأستاذ): أنه كانت هناك حركة تدوين قبل الإسلام، فقد ذكر محمد بن سلام في كتاب الطبقات، أنه كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول، وما مُدح به هو وأهل بيته؛ فصار ذلك إلى بني مروان، ولا شك أن ذلك الديوان حينما صار إلى بني مروان كان من المراجع التي اعتمد عليها علماء الأدب في العصر الأموي، فلم تكن رواية الشعر عن طريق الرواة فقط؛ بل عن طريق

مـا وُجد مـن كتـب هـذه الدواويـن، وكـذلك جـاء فـي مـقدمـة ابـن خلدون: أن تاريخ المناذرة كان مدوّنا في كتب الحيرة، وثابتاً في كنائسهم، وكل ذلك من المصادر التي سجلت الشعر والتاريخ القديم».

وتأتي فصول تتحدث عن كتاب الفتنة الكبرى للدكتور طه حسين بجزعيه الأول الخاص بعثمان ﷺ، والثاني الخاص بعلي وبنيه رضي الله عنهم، والحق أن الدكتور طه حسين كان صاحب رأي معتدل، لم يجنح إلى الغلو، فحفظ للخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم، مكانتهم اللائقة بهم: لما سبقوا به من فضل في نصرة الإسلام، وإن بدا منه عطف خالص على عليّ ﷺ، فذلك شعور لم ينفرد به طه حسين، وإنما هو شعور كثير من المسلمين، فعليّ صاحب الميزان الراجح إن قيس بمعاوية لأن سبقه في الجهاد، ونصرة الإسلام في غزوات الرسول ﷺ، وورعه وتقواه وزهده، وفصاحته وبلاغته ليست محل خلاف، ولو صفت النفوس من الأغراض ما كابد في حياته هذه الأهوال، وقد أخذ الأستاذ الصعيدي على الدكتور طه حسين عدم اهتمامه التام بحركة عبدالله بن سبأ، وعدّه ما رُوي عنه من

باب المبالغات، وهذا رأي شخصي قامت أدلته في نفس الدكتور؛ ووجد من المبررات ما دفعه إليه، وهو إنسان يخطئ ويصيب ، وليس معنى هذا أن يكون الدكتور طه حسين ذا غرض؛ في تبرئة ابن سبأ من كثير مما ألحق به المؤرخون، ولكنه قرأ واستوعب، وبدا له ما يخفف كثيراً من الأثقال التي عزيت إلى عبدالله بن سبأ، والدكتور طه حسين ليس وحده الذي تكلّم في هذا الموضوع؛ فكبار المؤرخين المعاصرين ممن كتبوا تاريخ الخلافة الراشدة، قد صوروا ابن سبأ في صورة تختلف عن ما قاله الدكتور طه، والمسألة مسألة بحث واجتهاد، وكل مجتهد مأجور إذا رزق الإخلاص سواء أخطأ أم أصاب، ونحن نعرف أن ميدان الدكتور هو الأدب العربي، أما التاريخ الإسلامي فلم يقتحم أبوابه إلا أخيراً، وهو في كل الأحوال اجتهادات تصيب وتخطئ!

وبعد فقد أردت بهذا الفصل المتواضع؛ أن أشيد بكاتب إسلامي وباحث أزهري قطع عمره الطويل باحثاً مناقشاً، وترك من الآثار الأدبية والتشريعية والمنطقية والتاريخية ما لو قام بها جماعة لو سعتهم جميعاً، وأنا أسأل الله له المغفرة وحسن الثواب.

الدكتور طه حسين وكتاب الأغاني!

قد يكون للأديب رأي في بعض المسائل الأدبية، يدافع عنه بقوة وإيمان، ويرد معارضيه رداً متكرراً، ثم تمر الأيام فيأتي برأي آخر ينقض ما سبق أن أدلى به وليس لأحد أن يؤاخذه على هذا التناقض كما يفعل بعض الناقدين حين يوازن بين الرأي القديم والرأي الحديث، وأنا لا أسمي هذا تناقضاً، لأن التناقض العلمي يكون معترضاً عليه إذا كان في وقت واحد، أما أن يكون التناقض بعد مرور الأيام، فهذا ما لا يؤأخذ عليه الباحث في شيء إذا جد له من الأسباب ما دفعه إلى العدول عن موقفه السابق، ونحن نعلم أن الإمام الشافعي رحمه الله كان له مذهب في مصر يخالف فيه بعض ما سبق أن أفتى به في العراق حتى قال الفقهاء إنه المذهب الجديد، فإذا حصل هذا في المسائل الفقهية، فإنه يحصل في المسائل الأدبية دون وجه للمؤاخذة، أما

تفصيل هذا الموقف فسيتدعي تمهيداً أدبياً يكشف عن حقائقه وأني ألخصه في إيجاز، فأقول:

إن كتاب الأغاني ذائع مشتهر، ويكاد يوجد في مكتبة كل باحث، وقد احتفى به الأدباء منذ كتبه مؤلفه أبو الفرج الأصفهاني احتفالاً كبيراً، لأنه يعتبر المصدر الأول للأدب العربي في أزهى عصوره الزاهرة، وقد اهتم به الباحثون، وظهرت ملخصات متعددة له، منها ما ألفه أبو القاسم المغربي عام 418هـ، وما ألفه محمد بن عبدالله الحراني سنة 425هـ، وما ألفه أبو القاسم بن باقيا عام 485هـ، وما ألفه أبو الحسن الرشيدي في زمن لاحق لكتاب ابن باقيا لا يعرف تحديده، ثم جاء ابن واصل الحموي سنة 697، فألف تجريد الأغاني، وتلاه ابن منظور، فألف مختار الأغاني 711هـ، وقد ضاعت هذه المؤلفات ولم يبق منها غير الكتابين الأخيرين لابن واصل وابن منظور، وقد طبعا في مصر في القرن الماضي وتداولهما القراء.ينبغي

وفي هذا العصر، قام الأستاذ الكبير الشيخ محمد الخضري بمجهود ضخم، حيث أصدر مهذب الأغاني في عشرة أجزاء، ولم يقتصر على التهذيب فقط، بل أضاف إلى القصائد

كثيراً مما لم يذكره أبو الفرج، كما حذف القصص المنحدرة خلقياً، فلم يشأ أن يعرف القارئ سقطات مخجلة لبعض الشعراء السابقين، وحين ظهر كتاب المهذب احتفلت به الدوائر العلمية في مصر احتفالاً جديراً به وبمؤلفه الكبير، ولكن الدكتور طه حسين عارضه معارضة شديدة، ودار بينه وبين الشيخ الخضري حوار علمي على صفحات جريدة السياسة اليومية، ونقله الدكتور طه في الجزء الثالث من كتابه «حديث الأربعاء».. وسبيلي الآن أن أقوم بتلخيص زبدة هذا الحوار العلمي والتعقيب عليه بما يُفيد..

قال الدكتور طه حسين نقلاً عن حديث الأربعاء - الجزء الثالث - ص 18، ما ملخصه: «لو لم يكن للأستاذ الخضري إلا أنه عكف على هذا العمل خمسة عشر عاماً حتى أتمه في غير تمدح ولا إعلان، لكان خليقاً بأطيب الثناء وأجمل الشكر، أما العمل نفسه فسأكون حراً في الحكم عليه أو له.. وإذا كان للأستاذ الخضري حقوق عليَّ تجعل من العسير أن أبادله النقد «يريد الدكتور بذلك أن الشيخ الخضري كان أستاذه في الجامعة المصرية القديمة، كما كان عضواً في امتحانه في لجنة الدكتوراه، التي منحته الدكتوراه الأولى، حين قدم رسالته عن أبي العلاء»،

وتلك حقوق للأستاذ على التلميذ، ولكن الدكتور قال: إني مع هذه الحقوق، سأكون حراً في نقده، فأقول إن مهمة الباحث الحديث أن يضع كتاباً جديداً، لا أن يلخص كتاباً، قديماً أو يهذبه، والشيخ الخضري لم يكن عاجزاً عن وضع كتاب في الأدب، يتيح للمحدثين فهم ما يحتاجون إليه من مسائل الأدب، دون أن يرجعوا إلى كتاب الأغاني، أما تلخيص هذا الكتاب ففيه جهد، ولكن شخصية صاحب هذا الجهد ضعيفة ضئيلة، وإذا كنت لا أستطيع أن أضن بالثناء على الأستاذ من هذه الناحية، فأنا لا أستطيع أن أخفي عليه وجهاً من وجوه النقد، وهو أنه حذف المكرر وألغى أشياء أعتقد أنها لا تفيد؛ وقد يكون حذف المكرر معقولاً؛ ولكني لا أفهم إلغاء ما يعتقد الأستاذ أنها لا تفيد؛ فله أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء في كتاب يؤلفه هو، ولكنه لا يستطيع أن يحذف شيئاً مما كتبه غيره بدعوى أنه لا يفيد»..

هذه خلاصة مقال طويل كتبه الدكتور طه حسين، في نقد ما قام به الأستاذ الخضري في مهذب الأغاني.. وقد رد عليه الأستاذ الخضري رداً مفيداً قال فيه، جـ 3 من حديث الأربعاء، ص – 75 – ما ملخصه: إن ما ضمنه أبو الفرج كتابه الأغاني

ثروة للأدب العربي، نقلها بأسانيد عن فحول الكتاب وحفاظ الرواة، وفيها الشعر الرائع والنثر الفاخر، وقد صارت هذه الثروة إلى قومنا من أهل الجيل الحاضر يتأدبون بها، وقد نظرت فوجدت هذه الثروة مبددة الشمل، وفرائدها قد وهى سِلْكها، وشملها التحريف والتشويش، فكان من الواجب أن نتقدم إلى الجمهور بتنظيم هذه الثروة حتى يمكنهم أن يستفيدوا منها، ولم يكن بد أن نحفظ لأبي الفرج تلك اليد التي أسداها إلينا، ليبقى اسمه باقياً فماذا صنعت؟ ألفيت الأدب العربي في كتاب الأغاني مبدد الشمل فرتبته، ووضعت كل درة بجانب أختها، فإذا أراد القارئ أن يقرأ عن عصر معين أو شعر قبيلة بعينها، كان ذلك ميسوراً، وقد وجدت تحريفاً كثيراً يضل الشادي ويتعب العالم، فبذلت جهدي في إصلاح هذا التحريف، ووجدت نقصاً في فاخر الشعر وجيّده كما يصفه أبو الفرج، فأتممت ذلك النقص لما توقعت من جدوى ذلك على طلاب الأدب، ووجدت نقصاً في ضبط الغريب وتفسيره، فاحتملت عبء ذلك كله، وأزلت عناءً كان يشعر به أمثالي من قراء الأغاني، أما ما نقصته منه فلم يعد إحدى اثنتين، أما فحش صدّ عن الأغاني وجوه كثير من أهل الأدب،

كانوا يشكون منه ومن أكثر كتب الأدب العربي، وإني معهم في ذلك، وكثيراً ما رأيت ابن هشام راوي سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن ابن إسحاق يقول: «تركنا هنا بيتين أو أكثر أقذع فيها»، فليس الامتعاض من الفحش والإقذاع مقصوراً على أهل جيلنا، بل كان لنا فيه سلف صالح نريد أن نستن بسنتهم، وأن أشياء قلتُ عنها لا تفيد أدباً ولا تُرقّي فكراً.. ولست يا سيدي من طغاة الأدب حتى توجه سهمك إليَّ، وإنما أنا رجل خبرت الناس، وعرفت ما يفيد وما لا يفيد، فاستضأت بهذه الخبرة في حذف ما حذفت، ولعلك تكون لي لا عليَّ، متى حان وقت نقدك المفصّل، بعد أن تقارن بين ما ضمنته كتاب «تهذيب الأغاني» لشاعر معيّن، وبين ما تراه في الأغاني، وإني أؤكد لك من الآن، أن المتروك قليل، لا تكاد فائدته تساوي قراءته».

وكان الدكتور طه حسين، قد قال في نقده: «إن لابن منظور كتاباً اختصر فيه الأغاني، ولعله كان يُغني عن مهذب الأغاني، وأنا أقول قد اطلعت عليه، ولم أره كفيلاً بحاجة المتأدبين من بني قومي، لأنه رتّب الأعلام بحسب حروف المعجم، وهذا غير ما قصدت إليه من جمعهم في عصر واحد، وفي قبيلة واحدة، على

أنه لم يحمل العبء الذي حملته من الإصلاح والضبط والتغيير، وحذف ما لا يجوز كتابته».

هذه خلاصة رد الشيخ الخضري، وقد ردّ عليه الدكتور رداً مسهباً، خلاصته في ص 78 وما بعدها من كتاب – حديث الأربعاء –، فقال فيه: «دع كتاب الأغاني كما وضعه صاحبه، فهو لم يضعه لتأتي أنت فتغيّر أو تبدل، وهب أن كتابك راج وانصرف الناس عن كتاب الأغاني، فليس من شك في أن الصورة التي سيتخذونها عن علم أبي الفرج ومذهبه في التأليف لن تكون صحيحة ولا صادقة، ولكنك كنت تستطيع أن تنفعهم دون أن تسيء إلى هذا المؤلف المسكين.! أتريد أن تقاسم أبا الفرج مجده واستحقاقه للخلود؟ ولم تقاسمه مجده؟ فلِمَ لا تبني لنفسك مجداً مستقلاً، وأنت قادر على ذلك؟ أما ما حذف من الكتاب، فالأقدمون منهم من كان يتورع عن ذكر الفواحش، ومنهم من كان لا يتورع، وإن للشيخ الخضري أن يتحرّج عن ذكر الفحش في كتاب يؤلفه بنفسه، لا في كتاب ألّفه غيره».

وقد ردّ بعض الكتاب على كلمة الدكتور طه تؤيد مذهب الشيخ الخضري، بتوقيع – كاتب –، فقال في مقال

نشره الدكتور طه حسين، في الجزء الثالث من حديث الأربعاء، ص (87) قال فيه ما ألخصه، مخاطباً الدكتور طه: أنا يا سيدي لم أقرأ كتاب الأغاني لأبي الفرج، ولكني قرأت الجزء الأول من مهذب الأغاني، فأعجبت به وامتلأت يدي منه، وعرفت شعوب العرب وقبائلها، ولم يكن كتاب الأغاني من خواطر أبي الفرج أو إنشائه حتى يكون ترتيبه وتهذيبه مسخاً وتشويهاً، ولكن أبا الفرج نقل آراء غيره في شعراء العرب ومُغنيهم، فأحسن في نقله ولم يحسن في وضعه، وكانت هذه الثروة تائهة ضائعة، فجمعها الخضري مرتبة مهذبة، وإذا كان سيدي الدكتور يرى تنسيق كتاب الأغاني معارضة لأبي الفرج واعتداءً عليه، فما رأيه في عمل أبي تمام والبحتري في حماستيهما، وقد عمد كل منهما إلى قصائد لشعراء الجاهلية والإسلام، وفي كل قصيدة نفس صاحبها وخطرات مشاعره ونزعات سرائره وأسلوب نظامه، فحذف منها ما حذف، وفرّق بين أجزاء القصيدة الواحدة، فرد الغزل والوصف والحماسة والأدب منها إلى نواح شتى، فما رأي سيدي؟ أيعد ذلك مسخاً للأدب وتشويهاً له؟ وإذاً فقد جنى أبو تمام وصاحبه على شعراء العصور الخوالي، مع أنهما بهذا النسق قربا الشعر من منال الأدباء؟

وقد رد الدكتور رداً، خرج به عن موضوع الكتاب، إلى منزلة النقد بعامة وتأثيره في النفوس، وأطال في ذلك إطالة، وقد تكون مفيدة في مضمونها، ولكنها ليست في الصميم.. ونأتي بعد ذلك ما نريده من رجوع الدكتور طه حسين عن هذا الرأي بعد ثلاثين عاماً، فقد رأى المسؤولون في وزارة الثقافة أن ينشروا كتاب «تجريد الأغاني»، لابن واصل الحموي، وهو يشبه المهذب للشيخ الخضري، فيما فعله ابن واصل من حذف واختصار وتجاوز بعض المعارف، مما اعترض عليه طه حسين فيما رآه في كتاب – مهذب الأغاني – وقد أشرف على نشره وتحقيقه اثنان، أحدهما الدكتور طه حسين نفسه، وكتب مقدمة قال فيها: «والذين يقرءون كتاب الأغاني ملمّين به غير ممعنين فيه قليلون، وهم لا يكادون يلمون به حتى ينصرفوا عنه، ضائقين بخصال لا تلائم العصر الحديث، وما يحتاج أهله فيه من التيسير والتقريب، لأنهم يحتاجون إلى السرعة، ولأن الوقت الكثير منهم محسوب عليهم، ولأن جهد الكثير منهم». لا يثبت لما تحتاج إليه القراءة في هذا الكتاب من الأناة والصبر وفراغ البال، وقد ألف الكتاب لقوم لم يكن طول الكتب يزعجهم، ولم يكونوا يطمئنون إلى

الأحاديث التي تساق إليهم غير مسندة إلى أصحابها، ثم تغيرت الظروف، فإذا قليل من ملوك الأيوبيين يذكر هذا الكتاب فيشكو من طوله وكثرة أسانيده، وكثرة ما فيه من التكرار.. ويتقدم إلى عالم جليل، هو محمد بن سالم الموصلي، في حذف ما كان يرى فيه من الفضول ويتم له ذلك، فهو إذاً قد ألف كتابه لهذا الملك ومعاصريه، فلم يرضهم وحدهم، وإنما أرضى أجيالاً لا تحصى بعد هذا العصر الذي عاش فيه بقرون، وسنجد فيه أدباً قيّماً، وقصصاً رائعاً، وتاريخاً نافعاً، سنجد ذلك كله في غير جهد ولا إضاعة وقت، ولا تكلف في إطالة بحث.

ثم قال الدكتور طه، وكأنه يتذكر موقفه من كتاب الشيخ الخضري «تهذيب الأغاني»: ولست أخفي على القراء، أني أضيق باختصار الكتب، ولا أطمئن إليه، وإني أقرأ كتاب الأغاني وأستمتع بأسانيده، ولكن لابد مما ليس منه بد، فليس كل الناس قادراً على أن يفرغ للأغاني وأمثاله من كتب القدماء، ونحن بين اثنين، إما أن ننشر هذا الكتاب، يقرأه وينتفع به من لا يملك من الوقت والجهد لقراءة الأغاني، وإما أن نُخلي بين الأدب العربي القديم وبين النسيان، يلقي عليه أستاره الكثاف، وواضح أني

أوثر الأولى، فقراءة مختصرة لكتاب الأغاني خير من أن يجهل الكتاب ويجهل مختصره، ويجهل الأدب العربي كله، ومن أجل هذا أقبلنا على نشر هذا الكتاب ليقرأه أوساط المثقفين، للمعلم من جهة، ويقرأه خاصتهم للموازنة بينه وبين الأصل الذي اختصر منه، وهو بعد ذلك تراث قديم لا ينبغي أن يضاع».

فإذا قارنا بين ما قاله الدكتور بشأن كتاب - تجريد الأغاني -، الذي أشرف على تحقيقه، وما قاله بشأن «المهذب»، الذي قام به الأستاذ الخضري، نجده يتراجع سريعاً سريعاً، وكان عليه أن يقول إنه نقد كتاب - مهذب الأغاني -، نقداً عنيفاً خالف الصواب الذي يعتقده الآن، وهل كان الدكتور طه حسين حين هاجم كتاب المهذب يجهل أن قراء اليوم غير قراء العصور الغابرة، وأنهم في حاجة إلى تيسير كتاب الأغاني على نحو ما قام به الأستاذ محمد الخضري؟ لم يكن يجهل ذلك، ولكنه بعد مضي خمسة وثلاثين عاماً، أنصف كتاب التجريد لابن واصل، فكان ذلك إنصافاً لكتاب - مهذب الأغاني -، وبالمقارنة بين الكتابين، نجد أن المهذب أوفى وأكمل، حيث رتب الشعراء وفق القبائل وشرح وفسّر، وأكمل ما كان ناقصاً من قصائد الأصل،

وهذا يجعل له المقام الأول بين ما قرأنا من الكتب الخاصة بالأغاني.

وإن كان الشيء بالشيء يذكر، فإني أذكر ثانية من هذا القبيل وقع فيها الدكتور طه حسين، فحين أظهر الكاتب الكبير مصطفى لطفي المنفلوطي رواية - ماجدولين - ملخصة بأسلوبه الأدبي الرائع، وحازت قبول القراء، إذ طبعت أكثر من عشرين طبعة، ثار الدكتور طه حسين وقال إن المنفلوطي شوّه الأصل واختصر، ولا يجوز الاختصار في قصة أدبية، ورمى المنفلوطي بالأمية، وأنه بعيد عن مفهوم الفن الأصيل، ورد عليه الدكتور منصور فهمي عدة ردود، أشار إلى ملخصها المرحوم الأستاذ أنور الجندي في الطبعة الثالثة من كتابه «معارك أدبية».. ثم بعد ذلك نجد الدكتور طه نفسه يصدر كتابي "صوت باريس" و"لحظات"، وقد جمعا ملخصات مبتورة لقصص فرنسية، فهل كان ما حرمه على المنفلوطي حلالاً له؟ وإذا كانت مجدولين لا يمكن تلخيصها، لأن الفن القصصي لا يلخص، فلماذا لخّص الدكتور عشرات القصص، وجمعها بعد أن نشرها في الصحف والمجلات؟!

وبعد: فلعل كتاب الأغاني أصبح سعيد الحظ، حين دارت حوله هذه المناقشات، وحين تفرّغ الباحثون لتلخيصه في عدة أجزاء، وهو ما لم يحدث كثيراً لكتاب آخر من كتب التراث، على هذا النحو المبسوط الفسيح.

* * *

طه حسين وشعراء العصر (*)

تحدث الدكتور طه حسين كثيراً عن شعراء عصره، فأبدى رأيه في اتجاههم الفني، منصفاً تارة ومتحاملاً تارة أخرى، وقد نشر آراءه في أمهات الصحف فصادفت دوياً شديداً، ما بين مؤيد ومعارض، ثم جمع أكثرها في بعض ما ألف من كتب النقد والأدب، فأصبح لدى الدارس خلاصة ذات قيمة لهذه الآراء، وأن مراجعتها يفيد كثيراً في رصد الاتجاه النقدي المعاصر من ناحية، وفي رصد ما يعتور آراء الدكتور من تناقض في كثير من الأحيان، إذ يبايع شاعراً من كبار الشعراء بريادة الشعر، ثم يعلن له أنه ينكر هذه المبايعة، زاعماً أنه لم يقم بها في يوم من الأيام، مع أنها مسجلة ومدوّنة في الصحف وذائعة مشتهرة بين الدارسين.. وسأحاول في هذه العجالة أن أشير إلى بعض نشاط

(*) ألقي هذا البحث في مركز حمد الجاسر الثقافي بتاريخ 1418/5/7هـ الموافق 2007/5/24م.

الدكتور في هذا الاتجاه، فأعرض موجزاً لما قال عن بعض شعراء العصر شيوخاً وشباناً، وأبين مدى توفيقه فيما أصدر من أحكام، ومدى إسرافه فيما جانبه من الصواب.. ولا أخفي إعجابي بالدكتور طه حسين في أكثر ما كتبت، حتى إن بعض الصديق لقبني بـ - الطحسني -.. وسأبدأ حديثي بموقف للدكتور طه حسين، سجله في إحدى المجلات زاعماً أنه لم يبايع أحداً من الشعراء بإمارة الشعر، واتخذ من هذا الموقف خيطاً دقيقاً لمتابعة ما كان من أمر الدكتور طه حسين من شعراء العصر لينجلي الرأي الصائب حسبما هو مسجل مشهود في الآراء الذائعة.

حديث في صحيفة بيروت المساء

سجل الدكتور طه حديثاً مع محرر صحيفة بيروت المساء، نشرته الجريدة تحت عنوان: «طه حسين يبايع عمر أبا ريشة»، وقد لخصه الأستاذ أنور المعداوي بمجلة الرسالة الصادرة في 24 من يناير 1949، حيث قال الدكتور متحدثاً إلى مندوب الجريدة، بعد تسأله عن دنيا الشعر والشعراء بعد رحيل شوقي وحافظ، وعن رأيه في الشاعر علي محمود طه، فقال الدكتور: «إن

مكانة الشاعرين قد ظل مع الأسف شاغراً لم يُملأ، وأن الشاعر علي محمود طه لا يعرف قواعد اللغة العربية، وقد حاولت عبثاً أن أفهّمه بأن فعل الأمر من سقى، يختلف مع المفرد المذكر عنه مع المفردة المؤنثة، ولكنه لم يفهم، هل تصدق بأن تقول في الحالتين «اسقنيها»، مع أنه يجب أن يقول للمفرد المذكر وللمفردة المؤنثة «اسقينها»، ولكنه للأسف لا يعرف قواعد اللغة العربية.. ثم تحول الدكتور إلى الشاعر السوري عمر أبي ريشة، ليشيد بفنه وبمزاياه، وليخصّه بعطفه وتقديره، وليتحدث عن أثر شعره في نفسه.. وخلص من ذلك كله إلى أنه ليس هناك شاعر معاصر يستحق إعجابه وبيعته غير عمر أبي ريشة».

ثم عقب على ذلك الأستاذ أنور المعداوي، فتساءل: «هل حدث حقاً هذا الذي قاله الدكتور طه حسين، وإذا كان ففي شرع أي ميزان من موازين النقد يجوز للناقد أن يقدّر أقدار الشعراء على ضوء خطأ نحوي أو لغوي يقعون فيه؟ وإذا أبيح للدكتور أن ينظر إلى الشاعر المصري هذه النظرة التي تنكر كل موهبة من مواهبه وتلغي مكانته في عالم شعراء الطبيعة لمجرد خطأ واحد وقع فيه، ففي أي مكان ياترى يمكن أن نضع شاعراً كالمتنبي،

وقد حفل شعره بكثير من الأخطاء اللغوية.. ولو كان في المجال متسع للإفاضة لقدمت لقراء الرسالة نماذج من شعر الشاعرين، يريد علي محمود طه وعمر أبا ريشة، مع دراسة نقدية لهذه النماذج، دراسة تطيل الوقوف طاقة وطاقة وعند موهبة وموهبة، وعند أفق وأفق.. وهذا الميزان الذي يجب أن يقام للشاعرين ليحدد الفارق في مجال التحليق بين قدرة جناح وجناح».. هذا ما قاله المعداوي في الرسالة، وقد قرأ الدكتور طه حسين ما كتبه عنه، فسارع برد في العدد التالي، الصادر بتاريخ 31 يناير 1949، قال فيه:

«أخي الزيات: نقلت الرسالة في عددها الأخير حديثاً عني في إحدى الصحف البيروتية، ونسب إليَّ فيه أني أغض من شأن صديقي الأستاذ علي محمود طه، وأبايع صديقي الأستاذ عمر أبي ريشة.. فأحب أن أؤكد أني لم أبايع هذا ولم أغض من ذاك.. وما كان لي أن أفعل، فأنا أحب الشاعرين جميعاً، وأحفظ لهما مودة ثابتة، وإذا لم تخن الذاكرة، فقد كتبت فصلاً خاصاً منذ زمن طويل، أثنيت فيه بالحق على شعر الأستاذ علي محمود طه، ولا يغيّر من رأيي أنه يخطئ في العربية هنا وهناك، وما أكثر

ما يخطئ الشعراء والكتاب المعاصرون في العربية، وأظنك توافقني على أن صحة اللغة شرط أساسي من شروط الشعر الجيّد».. ومضى يقول:

أما الأستاذ عمر أبو ريشة، فقد قلت غير مرة ومازلت أقول إني أكبر شعره وأعجب به، وليس هنا التفضيل لهذا الإعجاب، ولكن الإعجاب بشاعر شيء آخر، ومبايعته شيء آخر، وما أعرف أني بايعت شاعراً أو كاتباً قط، وما أظن أني سأبايع شاعراً أو كاتباً قط، فهذا نوع من السخف لم أشارك، ولا أريد أن أشارك فيه.. وكنت دائماً شديد الحرص على هذه الحرية، التي تتيح للناقد أن يقول للأديب أخطأت، إن أخطأ، وأصبت إن أصاب، وقد جاوزت السن التي ينزل الناس فيها على حريتهم، فليطمئن الكاتب الأديب الذي دافع مشكوراً عن صديقي الأستاذ علي محمود طه، فقد دافع عنه في غير حاجة للدفاع، وليقرأ إن شاء حديثاً لي عن الأستاذ علي محمود طه، صوّرت فيه رأيي في جيّد الشعر ورديئه، وفي صوابه وخطئه، وهذا الفصل في الجزء الثالث من – حديث الأربعاء –، كتب منذ خمسة عشر عاماً، لم يتغيّر رأيي في الشاعر الصديق إلى الآن».

هذا ما كتبه الدكتور طه حسين، تعليقاً على ما نشر في مجلة بيروت المساء، وهو يتضمن شيئين هامين، لا ينبغي أن يفوت الناقد أن يقف عندهما.. أما الشيء الأول، فرأيه القديم عن الشاعر علي محمود طه، وأما الشيء الآخر فقوله: «إنه لم يبايع أحداً من الكتاب والشعراء إطلاقاً، وما أظنه سيبايع أحداً، فهذا سخف لا يرتضيه».. وسأقوم بالتعليق على هذين الأمرين في إيجاز لا يسمح لي بالتطويل.

حديث طه عن علي محمود طه

أما حديث الدكتور عن علي محمود طه في حديث الأربعاء، فقد بدأه بحديث طويل عن الأدب بعامة، لا علاقة له بالشاعر، ثم اتجه إلى صميم الموضوع، فقال:

«إن معرفتي لشاعرنا المهندس قد أرضتني، لأن شخصيته الفنية محببة حقاً، فيها خفة الروح، وعذوبة النفس، وفيها هذه الحيرة العميقة التي لا حد لها، كأنها محيط لم يوجد على الأرض.. هذه الحيرة التي تصور الشاعر ملاحاً تائهاً حقاً، والتي تقذفه من شك إلى شك، ومن وهم إلى وهم، والتي لا تستقر على حقيقة حتى تزعجه عنها إزعاجاً، وتدفعه دفعاً

عنها، وتقذف به إلى حقيقة أخرى لا يكاد يدنو منها حتى يراها أشد هولاً وأعظم نكراً.. وإذا هو يهرب منها ويجد في الهرب»، ثم قال:

«لقد صحبت الملاح التائه في قصيدة سماها: «الله والشاعر»، فأحسست كل هذا الذي صورته لك آنفاً.. رأيت رجلاً لا هو بالشاك المطمئن إلى الشك، ولا هو بالمستيقن المطمئن إلى اليقين، ولا هو بالمنكر المستريح إلى الإنكار، وإنما هو رجل مضطرب حقاً، يؤمن بالقضاء والقدر، ثم يثور على القضاء والقدر.. يرضى بأحكام الله ثم يجادل فيها.. يشكو ثم يستسلم، ويستسلم ثم يشكو.. وأكبر الظن أنه لو استقر لكان أشقى الناس، فهو سعيد بحيرته».

وبعد أن نبه إلى معان وصور لدى الشاعر، ليست من المألوف في الحياة الشرقية، وإنما هي تقليد لما يقول شعراء الغرب، وقال إنه يحسن هذا اللون من الأدب، ويراه تشريفاً للأدب العربي، ورياضة للذوق العربي، على أن يُسيغ ما لم يتعوّد من قبل.. وبعد ذلك نظر إلى أسلوب الشاعر فقال: «إن الذي يعجبه في شعره أنه حلو الألفاظ، جيّد اختيار الكلام، وأن لألفاظه

ومعانيه رونقاً أخاذاً، تألفه النفس، وتكلف به، وتستزيد منه.. وأن في شعره موسيقى قلما نظفر بها في شعر كثير من المحدثين، وأنه قد استطاع أن يلائم إلى حد بعيد، لا بين جمال اللفظ وجمال المعنى فحسب، بل بين التجديد والاحتفاظ باللغة في جمالها وروائها وجزالتها».. وأفاض الناقد في هذا المنحى بما يُعد تقديراً رائعاً للشاعر، وهو به جدير.. ثم قال في ختام نقده:

«أريد بعد هذه الملاحظات – وقد ساق عدة أمثلة مسطورة في «حديث الأربعاء» –، أن أثني على الشاعر أجمل الثناء: وأن أقول له رأيي في صراحة لا سبيل فيها إلى الغموض والالتواء، إنه شاعر مجيد حقاً، ولكنه لايزال مبتدئاً، فهو في حاجة إلى العناية باللغة وأصولها وتعرّف أسرارها ودقائقها، فلا ينبغي للشعراء الذين يستحقون هذا الاسم، أن يكون علمهم باللغة محدوداً.. وأنا واثق أن الشاعر إن عُني بلغته ونحوه وقافيته، وتوخى ما ألّف في خفة التصوير ورشاقته ودقته، فسيكون له شأن في تاريخ الشعر العربي الحديث».

هذا ما قال الأستاذ العميد عن الشاعر علي محمود طه، فيما كتبه عنه في «حديث الأربعاء».. أما ما يقال عن زعمه، بأنه

لم يبايع أحداً بإمارة الشعر، وأنه لا يحب أن يشارك في هذا السخف، فهو ما ترفضه الحقائق الصريحة التي لا يستطيع الدكتور أن يمحوها، وقد سجلت في الصحف والجرائد، وتناقلها الأدباء، وكانت موضع انتقاد صارخ، لمن رأوا لدى الدكتور اندفاعاً متهالكاً على مبايعة الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد بالشعر، لا لأنه يؤمن بشاعريته، فقد تحدث عنها بالنقد الجارف بعد رحيل العقاد، إذ لم يستطع أن يواجهه بما يضمر في نفسه دون إعلان وإنما بادر الدكتور بمبايعة العقاد تملقاً واسترضاءً له، في موقف سياسي، أشير إليه لتصبح الحقائق، دون لبس أو غموض.

قصة المبايعة

أما قصة المبايعة، فقد رواها بالتفصيل الأستاذ رجاء النقاش بجريدة الأهرام الصادرة في 2000/12/25، حيث قال عبر عنوان: «طه حسين يبايع العقاد أميراً للشعراء»: «وقف طه حسين في مسرح الأزبكية بالقاهرة في مساء الجمعة 1934/4/27م، ليلقي خطاباً في حفلة تكريم، أقيمت للعقاد، فقال: كنا أيها السادة نشفق على الشعر العربي، وكنا نخاف عليه أن يرتحل سلطانه

عن مصر.. وكنا نتحدث حين مات الشاعران العظيمان شوقي وحافظ، على راية الشعر العربي أين تكون؟ ومن يرفعها للشعراء لستظلوا بها.. كنا نسأل هذا السؤال، وكنت أسأل هذا السؤال لماذا؟ لأني كنت أرى شعر العقاد على علو مكانته وجلال خطره شعراً خاصاً مقصوراً على المثقفين والمترفين في الأدب، وكنت أسأل هذا السؤال: هل آن للشعر الجديد أن يصور مجد العرب وأمال المصريين، أن ينشط ويقوى؟ انتظرت، فلم أجد للمقلدين حركة ونشاطاً، فإذا المدرسة القديمة قد ماتت بموت شوقي وحافظ، وإذا بالمدرسة الجديدة قد أخذت تؤدي حقها وتنهض بواجبها، فترضي المصريين والعرب جميعاً، والقلب المصري والعواطف المصرية، لا ترضى أن تصور كما كان يصورها شوقي وحافظ، وإنما تريد وتأبى إلا أن تصور تصويراً جديداً.. هذا التصوير هو الذي حمل الملايين على إكبار العقاد، وإذاً لا بأس على الشعر العربي والأدب العربي، وعلى مكانة مصر في الشعر والأدب!»..

ثم يقول طه: ضعوا لواء الشعر في يد العقاد، وقولوا

للأدباء والشعراء أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء، فقد رفعه لكم صاحبه..

ثم يقول الأستاذ رجاء النقاش تعقيباً على هذا القول: وصاحب اللواء المقصود في كلام طه حسين هو العقاد، الذي جعله طه حسين أميراً للشعر. وعندما نفكر في رأي طه حسين بتنصيب العقاد أميراً للشعراء، نجد أنه رأي شخصي لا يعتمد على أدلة موضوعية.

هذا ما قاله طه حسين وسجلته الجرائد، ولا سبيل إلى إنكاره.. وأذكر أن حملة صاخبة قامت على الدكتور طه في أكثر من جريدة، كما أذكر أن الشاعر محمد حسن النجيمي، قد نظم في مجلة الفتح قصيدة تهكمية، أساء فيها إلى الأستاذ العميد.

كما أراد بعض الشعراء المحافظين، من أمثال محمد الهراوي ومحمد الأسمر وأحمد الكاشف وحسن القاياتي، أن يمعنوا في السخرية، فاهتدوا إلى نظّام يكسر الأبيات، وهو موظف بدار الكتب، وأقاموا له حفلاً لمبايعته بالإمارة، ونظموا شعراً تهكمياً، يجده القارئ مسجلاً في ديوان محمد الأسمر.

خليل مطران

تناسى طه حسين خليل مطران، وهو يتحدث عن التجديد، مع أنه أشار إلى تجديده مرات كثيرة، وفي كتابه - حافظ وشوقي -، تحدث عن تجديده وقال إنه مثل العقاد.. ثم مضت عدة أعوام، فكتب الدكتور طه حسين فصلاً في جريدة الأهرام، في صورة خطاب للأستاذ خليل مطران، بتاريخ 1947/3/30، قال فيه: «إنك لتعرف مكانتك في قلبي، ومنزلتك في نفسي، وتعرف إعجابي بخلقك العظيم، وإكباري لأدبك الرفيع، وإعلاني في كل قطر زرته من أقطار الأرض في الشرق والغرب، وإلى كل من تحدثت إليه في الشعر من الشرقيين والغربيين، أنك زعيم الأدب المعاصر، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين، لا يُستثنى منهم أحد، ولا يُفرّق بين المجددين والمقلدين، وإنما أسميهم جميعاً بأسمائهم، غير متحفظ ولا متردد، ولا ملجلج ولا مجمجم، وإنما هو اللفظ الصريح، أرسله واضحاً جلياً، لا التواء فيه ولا غموض.. علّمت المقلدين كيف يرتقون بتقليدهم، وعلمت المجددين كيف ينزعون أنفسهم عن الغلو.. وعلمت أولئك وهؤلاء، أن الفن حر كريم.. أنت حميت حافظاً من أن يُسرف في المحافظة،

وحميت شوقي من أن يسرف في التجديد، وأنت رسمت للمعاصرين من الشعراء هذه الطريق الوسطى، التي تُمسك على الأدب العربي شخصيته، وتتيح له أن يسلك طريقه إلى الرقي والكمال، وقد حاولوا أن يتبعوك في هذا الطريق، فطار بعضهم بجناح، واستسلم بعضهم فأراح.. وأقمت أنت على قمة الشعر الحديث شيخاً جليلاً وقوراً».

وما كاد هذا الخطاب ينشر في جريدة الأهرام، حتى بادر الأستاذ محمود أبو رية بكتابة تعليق نشره بمجلة الرسالة يوم 1947/4/7، تحت عنوان: «أي القولين نصدق؟».. فسجل ما قاله طه حسين عن مطران، ثم قال: إننا سمعنا الدكتور طه حسين نفسه، منذ ثلاث عشرة سنة يقول في حفلة تكريم العقاد.. «إن العقاد هو الصورة الناطقة، واللسان الخالد، والمرآة الصافية المجلوة، التي حفظت صورة مصر الناطقة، وأبقتها ذخراً للأجيال القادمة، أنا سعيد جداً، أن أعلن رأيي في صراحة، وأن أقول، إني لا أؤمن في هذا العصر الحديث بشاعر، كما أؤمن بالعقاد، وأنا أعرف حق المعرفة، وأقدر كما ينبغي نتيجة هذه المقالة، التي أعلن سعيداً مغتبطاً.. أعلم هذا حق العلم، وأعلنه مقتنعاً به، متحملاً

تبعاته.. إني أؤمن به وحده، لأني أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء، وأكبر العقاد وأؤمن به وحده دون غيره من الشعراء في هذا العصر، لأنه يصور لي هذا المثل الأعلى في الشعر، هذا المثل الأعلى، الذي يجمع بين جمال الشعر العربي القديم، وبين أمل المصري الحديث.. دعوا لواء الشعر في يد العقاد، وقولوا للأدباء والشعراء: أسرعوا واستظلوا به، فقد رفعه لكم صاحبه».. ثم قال الأستاذ أبو رية: «هذا حكم الدكتور طه حسين بالأمس في زعامة الشعر الحديث، وذلك قضاؤه، الذي قضى به اليوم – في مقاله عن مطران –، نعرضهما أمام الأدباء جميعاً، ليروا رأيهم».

والحق أن الدكتور طه حسين، كان من كتاب حزب الأحرار الدستوريين، وكان يهاجم الوفد، ثم انضم إليه في سنة 1934، وكان العقاد كاتب الوفد الأول، وصاحب الحظوة عند جمهور الوفديين، وطه حسين لا يمكن أن يقاس عليه في الكتابة السياسية، وهو في موضعه الجديد حريص على استرضائه، ووجد حفلة تكريم تقام للعقاد، فأراد أن يسترضيه على حساب الشعر العربي، فأعلن رأيه الخطير، وهو بذلك يضحي بمكانته

النقدية، لأن العقاد شاعر بارز، ولكنه لا يبلغ أن يكون أميراً للشعراء، مع وجود شاعر كبير كخليل مطران يومئذ في مصر، وفي العراق مثلاً شعراء كبار مجلين، مثل الزهاوي والرصافي والجواهري.

شوقي وحافظ

وما كان تعقيب الأستاذ محمود أبو رية يظهر في مجلة الرسالة، حتى تلاه تعقيب آخر نشره الدكتور عز الدين الأمين، من شعراء السودان، بالعدد الصادر بتاريخ 1947/4/28، تحت عنوان: «بل أي الأقوال نصدق؟»، قال فيه: «قرأت ما كتبه الأستاذ محمود أبو رية بالعدد – 718 –، عن حكم الدكتور طه حسين للعقاد منذ ثلاث عشرة سنة، وعن حكمه لمطران اليوم، وأقول: إن الدكتور قد حكم من قبل ذلك لشوقي وحافظ بما حكم به للعقاد ومطران، حيث قال في كتابه «حافظ وشوقي»: «وكلا الشاعرين قد رفعا لمصر مجداً بعيداً في السماء، وكلا الشاعرين قد غذيا قلب الشرق العربي نصف قرن بأحسن الغذاء، فهما أشعر أهل الشرق العربي منذ مات المتنبي وأبو العلاء من غير شك، وهما

ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة التي بدأت في نجد، وانتهت في القاهرة، وهما أشعر العرب في عصرهما»!

ومعنى ذلك بصراحة، أنهما أشعر من العقاد ومطران!.. ولابد أن نعرض لبعض ما قال الدكتور عن شوقي وحافظ في كتابه عنهما، لأنه يدل على نقد يصيب مرة ويخطئ أخرى، وإن كان الدكتور كثير الرفق بحافظ، يغفر له ما لا يغفر لشوقي من الهنات، فهو يقول مثلاً عن قصيدة شوقي التي قالها في انتصار الترك على اليونان، ومطلعها:

الله أكبر كم في الفتح من عجب   يا خالد الترك. جدُد خالد العرب

يقول: «إن شوقي شاعر يقلد القدماء، فلا يمكن أن ينظر إليه إلا بعين القدماء، ولا ينبغي أن يقاس إلا بمقاييسهم»، ص 34.. وأن القصيدة فارغة إلا من الألفاظ، ليس وراءها شيء، وأن أبا تمام حين قال قصيدته في فتح عمورية، التي مطلعها:

السيف أصدق إنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

قد قدم إلى شوقي قوافيه وشيئاً غير قليل من ألفاظه ومعانيه.. وقد أخطأ الدكتور حين انتقد قول شوقي:

يوم كبدر، فخيل الحق راقصة   على الصعيد، وخيل الله في السحب

زاعماً أن هذا التشبيه لا يلائم العصر الحاضر، بل كان يلائم عصر المعتصم، حين كان المسلمون يجـ هدون الروم بقيادة المعتصم، لأن المعتصم خليفة، وهو يجاهد للدين، أما مصطفى كمال فلم يجاهد للدين، وهذا غلو، لأن يوم بدر يجب أن يذكر في مجال الفخر.. وكان مصطفى كمال يقود جيش الخلافة قبل أن يعمل على سقوطها، فكانت فرحة المسلمين به شديدة، وكان الشعور الإسلامي متوهجاً! وإذا كان مصطفى كمال قد نكص بعد ذلك عن الخلافة، فشوقي لم يكن يعلم الغيب، وقد عنّفه أعظم تعنيف حين قال فيه:

مع أبيات جيدة كان لها صداها في العالم الإسلامي..

إن الغرور سقى الرئيس بكاسه   كيف احتيالك في صريع الراح

الإشادة ببدر العظيمة واجب في كل ذكرى، لأنها أول معركة انتصر فيها الإسلام، وكانت فاتحة لغزوات الفرس والروم التي انتصر فيها خالد بن الوليد رضي الله عنه.. وقد أشار شوقي إلى ذلك حين قال: «يا خالد الترك جدّد خالد العرب».. ويقول

الدكتور طه عن حافظ، ص (130): «رحم الله حافظاً؛ لم يكن ليعيش لنفسه بنفسه، وإنما كانت مصر كلها، بل الشرق كله، بل الإنسانية كلها في كثير من الأحيان، تعيش في هذا الرجل، تحس بحسه، وتنام بعقله، وتنطق بلسانه.. ولا أعرف من شعراء هذه الأيام شاعراً جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه وحياة شعبه كحافظ».. وأكبر الظن أن هذا الكلام يصدق على حافظ قبل أن يلتحق بوظيفته الحكومية في دار الكتب، غير أنه تراجع عن ذلك، حرصاً على مستقبله المادي، كما يصدق على شوقي، بعد أن رجع من المنفى وترك حياة العصر، لأنه كان قبل ذلك لا ينطق بلسان الشعب، أما بعد تحرره من قيود القصر، فقد كان أبعد أثراً من حافظ في تمثيل شعور الأمة المصرية ومشاعر الشرق جميعه، وكان الإنصاف يستدعي توضيح هذه الحقائق، ليأخذ كل شاعر حقه دون تطفيف.

وقد ختم طه حسين كتابه بموازنة بين الشاعرين، ص «191»، قال فيها: «إنني لا أستطيع أن أقول إن أحداً من الشاعرين خير من صاحبه على الإطلاق، ولكن شوقي لم يبلغ مبلغ حافظ في الرثاء، ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير

نفس الشعب وآلامه وآماله، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان، لم يبلغ شوقي من هذا مبلغ حافظ، وهو بعد أخصب من حافظ طبيعة، وأغنى منه مادة، وأنفذ منه بصيرة، وأسبق منه إلى المعاني، وأروع منه في تقليد الشعراء المتقدمين، لأن حافظاً كان يقلد في الألفاظ والصور، وكان شوقي يقلد فيها وفي المعاني أيضاً، ولشوقي فنون لم يحسنها حافظ.. وشوقي منشئ الشعر التمثيلي في اللغة العربية.. ويلتقي الرجلان في كثير، ويفترق الرجلان في كثير، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حقاً في إقامة مجدنا الحديث».. إن هذه موازنة عادلة لا شك في نزاهتها، وإنني أوافق الدكتور طه حسين على قول: «إن حافظاً كان أحسن من شوقي في قصائد الرثاء، لأن الجزء الثالث من الشوقيات، يتضمن من قصائد الرثاء القوية ما يضع شوقي في كفة حافظ، وهي قصائد تُقرأ لا تُسمع، أما قصائد حافظ في الرثاء فكانت تُسمع في الحفلات فيصفق لها الجمهور، فإذا قرئت ربما كانت أقل روعة من قصائد شوقي، ولعل مرد ذلك يرجع إلى قوة إلقاء حافظ، وهذه خاصية تضفي على الشعر مزايا، وعند شاعرنا الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزاوي هذه الميزة التي عند حافظ.

الدكتور إبراهيم ناجي

تحدث الدكتور طه حسين عن الدكتور إبراهيم ناجي، من خلال ديوانه - من وراء الغمام -، بالجزء الثالث من حديث الأربعاء، كما تحدث عن علي محمود طه، ولكنه كان عنيفاً مع ناجي عنفاً جاوز الرفق والمودة، وكان عليه أن يعرف أن الشاعر لايزال شاباً في مفتتح حياته، وأن الاكتمال التام لا يمكن أن يتاح له في هذه السن الباكرة، وأن في حسناته ما يدعو إلى الرفق في تناول مآخذه، ولكن الدكتور يريد أن يمسك عصا الأستاذية الصارمة ليضرب بها في غير لين، فهو يقول مثلاً، في ص (170): «ونحن نكذب شاعرنا الطبيب إن زعمنا له أنه نابغة، بل نحن نكذبه إن زعمنا له أنه عظيم الحظ من الامتياز، وإنما هو شاعر مجيد تألفه النفس، ويصبو إليه القلب، ويأنس إليه قارئه أحياناً، ويطرب له سامعه دائماً، فإذا نظرنا إليه نظرة الناقد المحلل الذي يريد أن يقسم الشعر إنصافاً أو أثلاثاً أو أرباعاً، لم يكن يثبت لنا، أو يصبر على نقد، وإنما يدركه الإعياء قبل أن يدركنا، ويفرّ عنه الجمال الفني قبل أن يفر عنا الصبر على الدرس والنقد والتحليل.. هو بين هؤلاء الشعراء الذين يحسن أن تستمتع بما

في شعرهم من الجمال الفني، كما يتمتع بجمال الوردة الرقيقة الناضرة، دون أن تشتط عليها بالتقليب والتعذيب.. هو شاعر هيّن ليّن، رقيق حلو الصوت، عذب النفس، خفيف الروح، قوي الجناح، ولكن إلى حد، لا يستطيع أن يتجاوز الرياض المألوفة، ولا أن يرتفع في الجو ارتفاعاً بعيد المدى، وإنما قصاراه أن يتنقل في هذه الرياض، التي تنبت في المدينة أو ما حولها، ولا تكاد تبعد عنها كثيراً، وهو إذا ألمّ بحديقة من الحدائق أو جنة من الجنات، لا يحب أن يقف على أشجارها الضخمة الشامخة في السماء، وإنما يحب أن يقع على أشجارها المعتدلة الهيّنة، ويختار من هذه الأشجار أغصانها الرطبة اللدنة، التي تثير في النفس حناناً إليها، لا إكباراً لها وإشفاقاً منها، وهو شاعر رقيق ولكنه ليس مسرفاً في العمق، ولا مسرفاً في السعة، ولا مسرفاً في الحب الذي يحرق القلوب تحريقاً، ويمزق النفوس تمزيقاً، شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى التي تذهب بك كل مذهب، وتهيم بك فيما تعرف وما لا تعرف من الأجواء».

إن الدكتور طه حسين، قد مضى في التشبيه بالأشجار

والحدائق والأجواز العالية، ليقول إن الشاعر لم يرتفع إلى هذه الأجواز في الفضاء العالي، وقد نسي أن ناجي يتحدث في الغزل والشوق والحنين، ولم يتحدث عن الملاحم أو البحار أو الجبال، وموضوعه الغزلي، يميل إلى الرقة والحنين والشوق، ولا يميل إلى الجزالة والضجة والصياح.. فإذا طلبنا منه أن يخرج إلى هذه السبحات العالية، فإننا نطلب منه أن يتجاوز الغزل إلى الملاحم والأوصاف المتعلقة بالمديح والهجاء.. وما قاله الدكتور طه على جميع الشعراء الغزليين من أمثال جميل بثينة وقيس ليلى وكثيّر عزة، فهل يوصف هؤلاء بأنهم وقفوا على الغصون الرقيقة ولم يصعدوا إلى الأشجار العالية في الأدغال.. إن لكل شاعر جوه وميدانه، وقد كان العقاد رحمه الله أقرب إلى الواقع من الدكتور طه، حين وصف شعر ناجي بأنه شعر الرقة العاطفية، والرقة العاطفية، هي سمة رائعة من سمات الصدق الفني والصدق النفسي معاً.. وقد رأينا الغزل في شعر ذي الرمة مهجوراً لا ينشده أحد، لأنه مال في غزله إلى الفخامة وقوة الألفاظ، وخلطه بوصف الفلوات والجبال والوحوش.. ولو اقتصر ذو الرمة في غزله على ما اقتصر عليه جميل وقيس وعروة بن حزام، لصادف شعره موقع القبول.

إيليا أبو ماضي

تعرض الشاعر المهجري الكبير إيليا أبو ماضي إلى هجوم حاد لا مبرر له من الدكتور طه حسين، إذ أراد الدكتور أن يعصف بكل ما جاء في الجداول من إبداع فني رائع بدعوى أن الشاعر تساهل في ألفاظه فلا يأتي بها جزلة رنانة، وأفرط إفراطاً في بيان قيمة الألفاظ وأثرها في جلاء المعاني.. وكان على الناقد أن يذكر للشاعر المهجري حظه من التجديد الفني حين أتى بمبتكراته من المعاني والأخيلة والصور، جعلت لشعره ذيوعاً كبيراً بين القارئين، بحيث صار عن يقين أكبر شعراء المهجر. كان على الدكتور أن يلتفت إلى ابتكاره التجديدي في هذه الصور السهلة التي تمس شغاف القلوب، وتخف الألسنة إلى حفظها والاستشهاد بها.. ونرى في جملة من قصائده أنها أصبحت غرّة في جبين الشعر العربي.. ترك الدكتور طه ذلك كله، ليقول إن ألفاظ الشاعر ليست شعرية، وأن اللفظ المختار هو الذي يرفع قيمة الشعر.. قد يكون هذا الكلام مقبولاً لا نقاش فيه، ولكن من غير المقبول أن ينكر على الشاعر إبداعه التصويري ووثوبه الفكري، وسهولته التي جذبت إليه مئات القراء، ليقول إن الألفاظ

ضعيفة، ويقف عند ذلك! وإذا اضطر الناقد أن يعترف بجدة المعاني وطرافة التصوير، ساق ذلك النقد، فهو يقول: «ومن المظاهر البيّنة لضعف الشاعر وضعف الذوق الموسيقي عنده قصيدته - الأشباح الثلاثة -، فهي من جيّد الشعر إذا نظرت إلى أغراضها ومعناها وفلسفتها، أراد الشاعر أن يصور فيها أطوار الحياة من الطفولة والشباب والشيخوخة، فتراءى لنفسه طفلاً وشاباً وشيخاً، وتحدث إلى نفسه في تلك الأطوار حديثاً كله حكمة وعظة، ولكنه اختار وزناً قلّما يقصد إليه الشعر، وهو البحر المتدارك، فاقرأ معي هذه الأبيات، فستلاحظ ما فيها من الضعف الموسيقي الذي يدعو إلى الضحك حين يجب الاعتبار، وستلاحظ في الوقت نفسه شيئاً من فساد النحو عند الشاعر يغنينا عن أن نضرب لك الأمثال مما في الديوان من خطأ لا يحتمل من شاعر مجيد، ص (226)..

ما بالك منكمشاً كمدا　　قم نلعب في فيء الشجر
ونهز الأغصن والعمدا　　ونذود الطير عن الثمر
أو نضع خيلاً من قصب　　أو طيارات من ورق
ومدًى وسيوفاً من خشب　　ونجول ونركض في الطرق

فكل هذه الأفعال وقعت في جواب الأمر، ومن حقها أن تجزم، ولكن الشاعر لا يحفل بهذا الحق، وليته أعرض عنه إعراضاً تاماً فرفعها كلها والتمس لنفسه علّة عند أصحاب العلل من النحويين، ولكنه جزم حين استقام الوزن على الجزم، ورفع حين استقام الوزن على الرفع، فأخضع النحو للعروض، أو قل لم يحفل بالنحو ولا بالعروض».. ونلاحظ أن الشاعر آثر الرفع ولم يجزم إلا في رأي الدكتور طه.. وإذا كان الرفع ملتمساً عند أصحاب النحو، فلا إشكال، ولكن الدكتور طه يتلمس الخطأ تلمساً ويدور حوله، كأنّ النحو كل شيء في ديوان الجداول!

لقد نظر الدكتور إلى إيليا أبي ماضي نظرة المتلمس لاصطياد المآخذ، وإذا اعترف له بجودة المعنى وحسن الاهتداء إلى المتأمل، فلماذا لم يضرب مثالاً واحداً لذلك، يجعله ممن يضع الموازين بالقسط فلا يظلم نفساً شيئاً!؟

وبعد:

فهذه شجون مختلفة عن آراء الدكتور طه حسين في بعض شعراء العصر، وألاحظ أنه يريد أن يمسك عصا الأستاذية

في كـل ما يكتب.. فـهو يتحدث عن شـوقي وحـافظ ومطران، وكأنه يتـحدث عن شـباب دون مـستـواه، وهـذا مـوضـع الـخـطأ، لأنــهم سبقـوه فـي الميدان الأدبـي، وكـان طالبـاً بالأزهـر، وأسـمـاء شـوقـي وحـافـظ ومطران ترن فـي الصـحف العربية رنيناً عالياً، إذ كـانـوا زعمـاء الشـعر دون منازع، ولعل الأولى بمثل الدكتور طه أن يعرف لـهم مكانتـهم فـي الريادة الأدبية.. ولـعلـي أقـول إن الـدكـتـور أثنـى علـى مـطـران فـي بـعض مـا كـتـب عنـه وهـذا حـق، لأنـه ربـمـا أراد إغضـاب قـوم آخرين.. وثناؤه الأخير على مطران حـق من الناحـية الموضـوعية، لا يمارى فيه.

أما حديثه عن علـي محمود طه وإبراهيم ناجي وإيليا أبي مـاضـي، فـهو حـديث الـذي ينظر من شـاهـق مـرتـفـع إلـى سـفـوح مـتـواضـعة، وهـذه الروح تجافـي الجانب العلمي في الـكـثير، وكـان عليه أن يكون أحكم وأعدل، لاسيما مع إيليا أبي مـاضـي، الـذي فتـح فـتـحـاً جـديداً فـي الأدب الـعربـي، وكـان مـتـفـرداً فـي اتجـاهـه الـوجـدانـي والإنـسـانـي والـوطـنـي.. ومـهـمـا يـكـن من شـيء، فـإن الدكتور طه حسين علم من أعلام الأدب في الشـرق العربي، ولابد أن تكون أحكامه الأدبية مصدر أخذ ورد، وسؤال وجواب.

في ذكرى عميد الأدب العربي

قصة حياة طويلة ومضنية وهي صورة من الكبد الذي يعيشه الإنسان وقدر عليه، وليس له فيه خيار ولا مفر، فالكبد شمول بالقياس إلى الإنسان وربما اختلف حجم الشمول من إنسان إلى آخر وفق ظروف ومواقف تكبر فيها المعاناة أو تقل غير أن الشيء المسلم به أن الكبد أساس في هذه الحياة الدنيا مهما اختلفت صوره ومدى تأثيره في حياة إنسان أو آخر.

وليس من سلاح يستطيع احتمال هذا الكبد أو مقاومته إلا الصبر، ولا يكون الصبر إلا حيث يكون الإيمان الصادق، فتترسخ في النفس بذور الاحتمال حتى لا يهمها ضغط الحياة ومفاجآتها، وما تأتي به من جديد يصل تصويرها بالعجائب كما يقول الشاعر القديم.

منذ الثامن والعشرين من شهر أكتوبر وأنا أتحين الفرص

لأكتب عن رجل في ذكرى رحيله الخامسة وما أكثر الذين كتبوا عنه مدحاً وقدحاً، وإن كانت الأخرى أكثر، والصورة القادحة مهيضة، تغلفها شهوة الكلام والافتئات وحتى الظلم، لأنها إفرازات هوى ورواسب ماض، وأحابيل مترهلة لا تقوى على التصدي الجاد ولا مقاومة الرأي بالرأي، وإنما هي تسلل في ليالي دامسة حالكة، تفتن بالبريق، ولا تستطيع أن تصل إلى الجوهر لأنها لا تملك عدته، وإنما هي تهدم وتغالط وترتكب الأخطاء، فقد خلت الساحة من الرجل الذي يملك أن يسكت بالحجة والحق وحين اختفى تصدر الساحة غير أهلها، وكانوا لا يجرؤون على المرور من جنباتها من تلك الرهبة، لأنهم عزل من السلاح وفي فراغ من الشجاعة التي تفرض المواجهة واقتحام الميادين بعدتها وأعدادها.

سمعنا كثيراً من هولاء الصائحين ولو أنهم التزموا جانب الحق وجانب العدل وحسبوا ما على الرجل وما له لقبلنا منهم الرأي، بعداً عن الغيرة، وتجرداً من الهوى وخلوصاً إلى الحق الصراح، غير أن الذين وعوا أو استطاعوا أن يعوا هذا المسلك الشجاع قليلون جداً، وكانت الأكثرية هي المتصدية تنهش في

لحم الرجل وتسفه آراءه وتتهمه بالسرقة والبهتان وقلة الحيلة، وضعف الحجة وسوء الطوية وفساد الرأي وفراغ النفس.

مجرد أوهام ورواسب في النفوس وتقليد لا يحتكم إلى عقل ولا تجرد رأي، وإنما هو انسياق بلا روية وبغير بصيرة، ولا يخرج عن معنى، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، وليس هذا بفكر يتبع، ولا برأي يسمع، وإنما هو غثاء وهراء، غير أن المنطق الحق أن يبارز الإنسان خصمه جهاراً، وبعد إنذار واستعداد هكذا الشجاعة والمسلك السوي.

أما أن يشهر إنسان سيفه ويتقدم في ساحة ليس فيها مقاتل، بل ليس فيها أحد، ويأخذ يجوب ميداناً ليس فيه سواه، فما أشبه هذا بالذي أصابه مس فاختل توازنه، وظن أنه يتقدم من بطل ليتقاتل معه وقد أعلن للناس ليشهدوا الموقف، وينبغي ألا يحضر إلا من كان ذا قلب شجاع وصبر على المكاره، وتحمل مقاومة النفس وهي تشهد الدماء، نازفة من أحد المقاتلين أو من كليهما حتى يسقط أحدهما أو كلاهما على أرض المعركة ويصفق أو يأسى الشهود وينصرفون عن هذا المشهد وقد ترك في نفوسهم آثاره وأوزاره.

هذا في تصوري ما حدث لبعض الأقلام التي تصدت أو صدئت فأخذت تسجر الكلام وقد رحل الرجل بحسناته وسيئاته بين يدي ربه، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه، وكان ينبغي المواجهة وقد كانت من بعض من تصدى لآراء الرجل.

وبعد أن قدم الراحل تلك الحسنات في إسلامياته التي قرأناها وشهدناها تمثل في التلفاز، باهرة، لأنها تصور مرحلة من أخطر المراحل في ظهور الإسلام وما لاقى أتباعه من عنت الكفرة وما تحملوا في سبيله من بلاء، ولكنهم صبروا لأنهم آمنوا فكان إيمانهم سياجاً دونه الموت الزؤام، والنفس فداء للدعوة، ولم تستطع القوى الشرسة أن تنال من تلك النفوس القوية بالإيمان، ولم يستطع صناديد الكفر أن يخترقوا ذاك السياج الإيماني بكل وسائلهم ودهائهم وحقدهم.

تجد ذلك في – على هامش السيرة وفي الوعد الحق –. والشيخان، إلى جانب عثمان وعلي وبنوه، وما إلى هذه الكتب التي ألفها صاحبها عن قناعة كما أعتقد، وهو تراجع عن رأي انحرف به فلج واعوج، وتجنى على نفسه به، ولقي من التصدي

والتصحيح لرأيه الخاطئ ما يستحق أن يواجه به وهو يتحمل وزر ما ارتكب، وهذا لا يعني مطاردته حياً وميتاً، وإنما محاسبته حياً، أما وقد رحل فإنه ينبغي على أولي النهى أن يذكروا محاسنه أو أن يصمتوا، أما أن يأكلوا لحمه ميتاً بمنهج فيه كثير من التجني، فذلك غير سبيل الإصلاح والمصلحين لانتفاء العدلية فيه، لغياب الطرف الآخر.

وانبرى نفر معدودون يردون وينكرون ما سمعوا وما رأوا، وكان منهجهم في الرد والنقاش في منتهى الأدب والأخلاق، إذ ردوا الزيف من التهم والأقوال التي لا تسندها حجة وإنما هي دعاوى وأقاصيص مختلفة وأراء فجة وتلافيق واهية واهنة.

وماتزال أصوات نشاز، لا تدرس ولا تمحص لتقول رأياً يؤخذ به وحجة فيها إقناع وحقائق لا تحتمل الشك، وإنما هي هذه الأصوات تدب وتنهش وتفتعل لتقول أي شيء بعيداً عن منهج الدرس وأدب النفس.

في أدب طه حسين متعة وجمال وبعد تأمل واستنتاجات لا يرقى إليها في منطق الإقناع إلا العباقرة، ولا ينكر على الرجل

العبقرية إلا غير متذوق وغير ذواقة لجمال الأدب، وروعة الأداء في الدرس الذي نجده عند طه حسين.

والذين جاءوا بعده يدرسون الأدب الجاهلي والأموي والعباسي والمعاصر، بعضهم لم يخالفه كثيراً، وبعضهم لم يأت بجديد، وإنما هو مقلد في أقل مستوى تعبيري وديباجة أداء، ودقة تناول، لأفق واسع، يحلق وهو يقيم الدليل ويصور الواقع ويقدم البرهان، وحتى المخالفين لآراء طه حسين في الشعر الذي عكف على درسه طويلاً، لم يأتوا بأدلة تقاوم آراء الرجل وتبطلها وتأتي ببدائل تناقض ما ذهب إليه طه.

وشغل طه حسين الناس حياً وميتاً، كما شغلهم المتنبي أكثر من ألف عام، وقد صحب الدكتور العميد المتنبي وأنصفه في هذه المصاحبة، فطه يقف عند البيت من الشعر للمتنبي ليقول لقارئه انظر الجمال في التركيب والألفاظ المتناسقة وقوة المعاني وروعة الأداء، كما يقف على الأبيات، يفتتها كما يصنع الكيماوي والمحلل، والخبير في تخصصاته.

ويقف طه على البيت الضعيف ليريك التكلف والصنعة

المفتعلة وعدم التوفيق في اختيار اللفظ وبعد المعنى عن القصد فيسحرك الكاتب بما يسوق من أدلة وتحليل، فلا تملك إلا أن تأخذ بآرائه لأنه يلمسك بتلك البراعة والقدرة الفائقة موضع القوة وموضع الضعف في البيت والمقطع والقصيدة فيضطرك أن توافقه وأن تمضي معه، بقناعة المتأمل الذي يبهره الرأي المتعمق والمقاييس التي تأتي بالدليل لغة ومعنى وديباجة ومسلكاً ومنحى.

ورغم أن طه متأثر بأبي العلاء وكلف به، يؤثره على الكثيرين من فحول الشعراء، ويأنس به ويلازمه ويرى فيه الشاعر الفيلسوف المترفع القوي الإرادة البعيد عن التدني، فيه إباء النفس وعزتها، لا يرخص شعره ولا يتزلف به ولا يبيعه، فهو قانع باليسير من سبل الحياة غير طموح إلى جاه، وغير مكترث بلذات الحياة وزخرفها ومباهجها، وذلها وعنائها وصخبها وبؤسها رغم ضآلة مكاسبه منها ولو أرادها لكانت له.

رغم ذلك.. أي هذا الميل غير المتحفظ إلى أبي العلاء، وهذا الكلف عند طه بصاحبه، في منهجه الحياتي وبعده عن البهرج والصدارة إلا من وفاء لبعض من اختصهم بثنائه عن رابطة تجمع بينه وبين من مدح أو رثى، فإن طه حسين كان منصفاً للمتنبي،

يكبره ويعنى بدراسة شعره، ويذكر مواقفه وقوة شاعريته، وبعد صوته وحكمته، فخصص له كتاباً هو أحد المراجع القوية الجادة في دراسة الشاعر وشعره وطموحه وأحلامه وآماله، وجولاته بين الكوفة وحلب ومصر من بدء حياته حتى مماته.

ولعل أنضر أيام المتنبي وروعة شعره، في تلك الحقبة التي صاحب فيها سيف الدولة الحمداني في حلب، تلك الفترة من الجهاد والفتوحات الإسلامية والنصر، وكان المتنبي ذلك الصوت الجهوري الذي يهز الأصقاع ويحمس الجند، فيدفعهم إلى القتال والصبر، ويزرع في نفوسهم الشجاعة والبأس والإقدام حتى إذا ما ترك سيف الدولة بعد أن أسمعه تلك الميمية التي مطلعها:

واحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمي وحالي عنده سقم

إلى أن قال:

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا ... ليحدثن بمن ودعتهم ندم

فكان ما توقع، لقد ندم سيف الدول على فراق المتنبي، الصوت المقاتل مع الجند والمدوي في الوغى يجلجل في الأودية والآكام والقفار، يحث على القتال والموت، كان ذلك الشعر سيوفاً

بتارة لا تخشى الهزيمة وكانت تلك النفوس التي تغلغل فيها ذلك الشعر الناري لا تهاب الموت ولا تخشى الردى.

وكما ندم سيف الدولة.. ندم المتنبي نفسه، على ذلك الفراق والمجد الذي عاش فيه وأنشد أروع قصيدة ودرر أناشيده، وبعد ألف عام يأتي شاعر معاصر ينشد في ذكرى المتنبي فيقول لسيف الدولة:

يا ابن حمدان أنت لولا أبي الطيـ ب أنى لذكرك التخليد
أنت أوليته العطايا جزافا والعطايا مع الزمان تبيد
أنت لولاه ما رأيناك في السا ح وللحرب ضجة وبنود

قصيدة طويلة للدكتور أمجد الطرابلسي من روح المتنبي وديباجته ونفسه رغم بعد الزمن.

ومعذرة لهذا الاستطراد، فقد شغلني المتنبي عن طه حسين، ولكن طه حسين قد أفراد للمتنبي كتاباً فكان هذا التداخل في الحديث بين الشاعر والكاتب، وأنا أتحدث عن طه حسين وأدبه فكان لابد من موقف مع الدرس في شيء من أثر العميد، وليس هذا الذي أكتبه دراسة، فذلك تخصصات الباحثين،

ولا يؤدبه كلمة عابرة في جريدة سيارة تكتب على عجل وتظهر في عجل، وما أردأ الأدب إلا العجلة والسرعة، وليس تلك وهذه سبيل الأدب الجاد ولا التأمل الدقيق، ورحم الله طه حسين فقد ترك آثاراً جديرة بالدرس والتأمل بتجرد من الهوى، وبعد عن السخف من سقط الكلام فليس ذلك سبيل الدارس الواعي الحق الذي يريد أن يقول فيسمع لرأيه ويؤخذ بحكمه.

* * *

الحكيم في مجمع اللغة

منذ ثلاث وعشرين سنة، أي من يوم أن دخل الأستاذ توفيق الحكيم.. عضواً في مجمع اللغة العربية بتاريخ 17 من مايو سنة 1954م استقبله طه حسين بكلمة، قال فيها: صديقي الأستاذ توفيق الحكيم، حسب الناس لك وحسبوا عليك».. وامتد حديث الأستاذ العميد أربعين دقيقة، وخرج الناس لا يدرون، هل مدح طه توفيقاً أم ذمه؟

منذ ذلك الوقت، لبثت أتطلع إلى كلمة الدكتور طه حسين، ولعل ذرابة لسان طه وبلاغته، وتخصصه في الخطابة كان المقدم في استقبال الكثيرين من أعضاء مجمع الخالدين الجدد، يتحدث عنهم، ويتحدث إليهم، ويذكر أشياء عن دراساتهم، وطباعهم وعاداتهم، وما يحبون وما يكرهون؛ يداعبهم تارة، ويغمزهم أخرى، يمدح وينتقد في أسلوب بين الجد تارة، والفكاهة تارة أخرى، حتى يؤدي هذه المهمة، ويلقي على العضو ما يريد أن

يقوله له ويعرض لتاريخه.. «هويته» على المجمعين، وكأنه تقليد. اتبع في استقبال أي عضو جديد، تحت قبة هذا البرلمان.

وبالأمس نقل إلى الصديق «أبو ماجد»(*) وقد سمع بحرصي على الوقوف على كلمة طه في توفيق، نقل إليَّ صورة من هذه الكلمة من مجلة المجمع اللغوي بمصر، فحفلت بها، وفرحت، لأني حصلت على شيء ضائع مني وقرأت كلمة طه حسين في تسع صفحات، وهي مزاج من الثناء والنقد.. فقد بدأ طه حديثه إلى صاحبه بقوله: «خطر لي أن أصطنع في استقبالك مذهب الجاحظ، حين عرض لأحمد بن عبدالوهاب»، فقال في أول التربيع والتدوير: إن أحمد بن عبدالوهاب كان مفرط القصر، وكان يزعم مع ذلك أنه مفرط الطول، وكان مربعاً وكان يزعم مع ذلك أنه مدور وكان كبير السن، متقادم الميلاد، وكان يزعم مع ذلك أنه حديث السن والميلاد، ومضى طه حسين يقول: فما أظن مذهباً يليق باستقبالك إلا مذهب الجاحظ هذا، لأنك خلقت من نفسك شخصية لا يمكن أن تؤدي إلا على هذا النحو، فأنت تتكلف من الخصال ما ليس فيك. أنت جواد، وتزعم أنك بخيل، وأنت ماهر ماكر، ومداور مناور، وتزعم مع ذلك.. أنك

(*) الأخ فيصل حمود الملصي.

ساذج لا تفرق بين ما ينفع، وأنت صاحب جد في حياتك، وصاحب جد منتج، وقد ألقيت في روع الناس أنك لا تحسن إلا العبث والدعابة، انظروا إلى هذه المزاوجة بين المتناقضات، وإلى هذا اللعب بالألفاظ، وتغلب المعاني.

بهذه النغمة التي قدمت مثالاً منها، بدأ طه حسين حديثه في استقبال صديقه توفيق الحكيم في مجمع اللغة العربية. وقد اصطنع طه حسين لغة، لا يترتب عليها لا سلب ولا إيجاب، وهي براعة عرف بها العميد.

ولعل في نفسه شيئاً، أراد أن يقوله لتوفيق الحكيم وعنه أمام مجمع الكبار.. وكانت هذه فرصته المتاحة.

وإذا عدنا إلى الماضي، نجد أن مناقشات دارت بين طه وتوفيق على صفحات مجلة - الرسالة - المصرية، لصاحبها الأستاذ أحمد حسن الزيات منذ صدورها.. في عام 1932م حول الشخصية المصرية وبلورتها في الأدب المصري وفنونه الحديثة.

وكان طه حسين يأخذ على توفيق الحكيم أخطاءه في اللغة العربية. وحين نقلب صفحات كتاب - وثائق من كواليس الأدباء - لتوفيق الحكيم الذي صدر عن مؤسسة أخبار اليوم في شهر

فبراير 1977م، وهو الذي يشتمل على رسائل موجهة للحكيم. ووسائل صدرت منه لأبويه وأصدقائه. منذ سنة 1924م.. إلى عام 1954م نجد رسائل متبادلة بين توفيق وطه وغالباً ما يكون طه في أحد المصايف الإيطالية والفرنسية، وتوفيق في مصر أو في جهة ما، كباريس أو النمسا، وتصور هذه الرسائل الصداقة والشوق إلى اللقاء، وأحاديث عن الأدب والفكر، وفكاهات ومداعبات.. من جانب طه حسين وكان توفيق الحكيم، ينشر بجانب كل رسالة.. إيضاحاً لها، سواء التي يتلقاها أو التي تصدر عنه، وأكثر الرسائل كانت الواردة إليه.

ربما كانت الرسائل.. فيها أشياء شكلية، وكان في النفوس ما فيها، بين طه حسين وتوفيق الحكيم وهي رسائل قصار.. فيها شيء من تحفظ واحتياط ويعرض طه حسين في كلمته.. بتوفيق الحكيم، فيقول: والمدهش أنك بعد أن تخرجت من كلية الحقوق وأريد لك.. أن تكون محامياً، لم – تفلح – في المحاماة، ولم تفلح في المحاماة لأنك شغلت بشيء آخر غير المحاماة بشيء كنا أيام شبابنا.. نكره أن نشغل به غير جد الأمر وكنا نعبث حين يتاح لنا الفراغ الذي يجوز لنا فيه العبث، شغلت بتمثيل عكاشة وأصحابه

عن المحاماة وجدها، وعن الحياة وجدها أيضاً، وحتى يئس منك أبوك أوكاد ييأس، وحتى ذهب الناصحون إليه يغرونه ويريدونه أن يبعدك عن مصر، لتبعد عن هذه البيئة التي كانوا يظنون أنك لم تخلق لها، وأبعدك أبوك إلى باريس.. لتتأنن فيها دراسة القانون، ولتعود فتسلك طريقك إلى القضاء.

ويمضي طه في هذا التعريض فيقول: لأنك حين ذهبت إلى باريس لم - تفلح - في القانون كما أنك لم تفلح فيه حين كنت طالباً في كلية الحقوق.

هذا هو النقد المرير، الذي جوبه به توفيق وهو يضع قدمه في اليوم الأول على عتبة مجمع اللغة العربية. ويمضي طه قائلاً لتوفيق: - عدت من باريس دون أن تحمل منها شهادة الدكتوراه أو شيئاً يشبه شهادة الدكتوراه في القانون.. عدت من باريس لا تحمل شهادة كما عاد توفيق دياب - من لندن، لا يحمل شهادة».. وسنعرض للأستاذ توفيق دياب إن شاء الله يوم استقبل عضواً في مجمع اللغة، وقدمه طه حسين.

كان توفيق الحكيم وهو بمصر، يكتب تمثيليات لمسرح - عكاشة -، وهذا هو الذي يشير إليه طه حسين، ويصوره بأنه

شغل به توفيق عن المحاماة، وكان أبوه، وقد تقدمت به السن يريده أن يصبح قاضياً مثله، ليرتاح هو، وقد سلك القضاء، ونعلم أن توفيقاً اشتغل في النيابة بعد تخرجه في كلية الحقوق بمصر.. ويصور عمله، كتابه الممتع - يوميات نائب في الأرياف - وهو من أجمل ما كتب.

ولعل طه حسين، قد شعر وهو يستقبل صديقه أنه أثقل عليه، حين وصفه بالفشل في دراسة القانون في مصر وباريس، في كلمته اللاذعة.. فأراد أن يخفف عنه، فقال: رجعت من باريس إذاً لا تحمل شهادة ولكنك تحمل شيئاً خيراً من الشهادة، تحمل بعض هذه الكتب ؛ التي عرفناها فيما بعد ثم عرفك الناس، حين ظهر كتابك الأول - أهل الكهف - وهي هذه القصة التمثيلية الرائعة التي عرضت فيها لأول مرة مشكلة خطيرة ولمسائل جديرة بالعناية وهي مسألة الزمن.. والزمن بالقياس إلى وطنك هذا: مصر -.

ومضى طه حسين، يثني على الكتاب، الذين كانوا يحاولون أن ينتجوا في التمثيل - هكذا يصرح طه حسين، بالثناء على قصة أهل الكهف، ويصفها بالإعجاب والإمتاع.

ونحن نعلم أن توفيقاً حين ذهب إلى باريس ليكمل دراسته في القانون. ويعود بالدكتوراه فيه، استهواه الأدب وهو في طبيعته، فغلب على عزمه، وغير اتجاهه، ولم يحقق أمل أبيه فيه، بالتخصص في دراسة القانون.

ويأخذ طه حسين في الحديث إلى توفيق وعنه، فيقول: كنت طالباً لاعباً، ولكنك على غير إرادة منك، كنت كاتباً جاداً، لم تكن تتكلف هذا الجد وإنما كنت تدفع إليه دفعاً بقوة ما أظنك عرفتها، أو حققتها إلى الآن، وأخص ما تمتاز به، هو أنك في فنك مسير لا مخير، فأنت لا تختار وإنما يختار لك، وأنت لا تريد وإنما تراد على ما تكتب.

ثم يثني طه على قصة – عودة الروح – لتوفيق فيقول: وكذلك كان الشعب المصري حين صورته في هذه القصة وأشهد لقد صورته فأحسنت تصويره ولم تصوره فتحسن تصويره فحسب، ولكنك أضفت إلى هذا التصوير شيئاً من ذات نفسك، وهذا الشيء ؛ هو الذي عرفت به طبيعة الشعب المصري فأحسنت تعريفه، فهو شعب يجهل نفسه، وهو على جهله بنفسه يقدر نفسه، يعرفها في ضميره الخفي، ويجهلها .. في ضميره الشعوري، كما يقول أستاذنا الرئيس لطفي السيد»..

ويمضي طه حسين في أسلوبه هذا، ولا أستطيع أن أقول إنه متناقض ولكنه مزيج من الجد والهزل، والعنف في كلمة طه، والهزل أكثر من الثناء، وانظره يقول - قد أعطيت من نفسك للناس صورة توشك أن تكون صورة مضحكة، فلا يتحدث الناس عنك ألا بأنك بخيل أشد البخل، متهالك على المال، أكثر مما كان يتهالك عليه بخلاء الجاحظ، لا يذكر بالقياس إليك.. سهل بن هارون، ولا الكندي، ولا ابن المؤمل، ولا غير هؤلاء، الذين تحدث عنهم الجاحظ.. في بخلهم وحرصهم، وتهالكهم على المال، ولا تكاد تجلس في مجلس إلا أخذ أصحابك يجادلونك في البخل والجود، وفي الحرص والإنفاق وفي السماحة والكزازة.. والطريف أنك ترضى عن هذا كل الرضا، وتحاول.. أن تضيف إلى نفسك من هذا البخل ألواناً وأشكالاً ؛ ما أعرف أن شيئاً منها يتصل بنفسك حقاً»..

ونكمل الصورة في الوقوف على كلمة طه حسين: «أنت إذاً طائفة من المتناقضات.. أنت في فنك حين تعالج هذا الفن الطبيعي غير متكلم ولا متعجل، كأنما تغرف من بحر، كما كان يقول القدماء ؛ ولكنك في حياتك الاجتماعية مصنوع متكلف،

متعمل، بعيد كل البعد عن الحياة الاجتماعية المألوفة ؛ جعلت نفسك موضوعاً للتندر، فالناس إذا ذكروك، تندروا وضحكوا، وسخروا أحياناً».

ويمضي طه في القول: «والناس يعرفونك بالبخل أكثر مما يعرفونك بالكرم، لأن الكرم شيء طبيعي لا تكلف فيه، والناس يتحدثون عن البخلاء وقلما يتحدثون عن الكرماء، والناس يتحدثون عن أصحاب السذاجة، وقلما يتحدثون عن أصحاب التفكير العميق، والناس يتحدثون عن الخائفين المشفقين، الذين يعدون أنفسهم جبناء، أكثر مما يتحدثون عن الذين لا يخافون.. ويستدرك طه فيقول: «والناس يعرفون فيك صورة ليس بينها وبين شخصك الحقيقي صلة من قريب أو بعيد».. ويعرج طه في حديثه، بشيء من نصح لصديقه توفيق، كأنما يوصيه ويحذره، فيقول: «فكن يا صديقي ما شئت أن تكون خارج المجمع، ولكن إذا دخلت المجمع، فانظر إلى أقرب أعضائه، إلى الصرامة والحزم، والجد المر، انظر إلى العقاد مثلاً، وسر سيرته، ولا أظن تفلح في هذا المجمع بحال من الأحوال»..

أسلوب عجيب من طه حسين في هذا الاستقبال، كأن في نفسه شيئاً من توفيق الحكيم ؛ وإلا لماذا سلك هذا المسلك العنيف ؟ ولا نعلم أن المداعبة تؤدي إلى هذا النهج في استقبال زميل في مجمع الكبار وصديق قديم..

بعد انتهاء طه حسين من إلقاء كلمته في استقبال توفيق الحكيم.. وقف الحكيم، وشكر أعضاء المجمع اللغوي، وتحدث عن عبدالعزيز فهمي سلفه، كما هي عادة العضو الجديد ؛ وذكر مواقف فهمي الشجاعة، وعرّج على واصف غالي وزير خارجية مصر السابق، الذي اختير ليحل محل عبدالعزيز فهمي في عضوية المجلس واعتذر، ذلك أنه لم يكتب شيئاً باللغة العربية كما يقول الحكيم في كواليس الأدباء، وهو يتحدث عن اختياره – أي توفيق – عضواً للمرة الثانية في المجمع وكانت الأولى سنة 1949 أو 1950م، فاعتذر حين أبلغه المرحوم أحمد أمين، وكان أحد مرشحيه، أما الثاني المشارك في اختيار الحكيم في المرتين، فهو الدكتور منصور فهمي، الذي كان يشغل منصب الأمين العام للمجمع.

وكان واصف غالي كما يقول الحكيم - معروفاً ببلاغته في اللغة الفرنسية إلى حد أدهش الفرنسيين أنفسهم، يوم خطب في مجلس النواب الفرنسي باعتباره وزيراً لخارجية مصر.

قال توفيق الحكيم حين وقف بعد طه حسين وكلمته.. التي ذكرتها في استقباله: يتحدث إلى المجمعيين: لقد وضعتموني مشكورين في كرسي مخيف، كرسي رجل من أشجع رجال مصر في التاريخ المعاصر، هو: عبدالعزيز فهمي.

ومضى يتحدث عن عبدالعزيز فهمي في كلمته كلها، التي شغلت أربع صفحات من مجلة المجمع. والطريف ولعله من الحق، أنه تجاهل طه حسين الذي استقبله. وتحدث إليه وعنه ولم يذكره بخير أو شر. كأنه لم يكن، وإنما وجه كلامه إلى أعضاء المجس، ثم مضى يتحدث عن سلفه، وما قدم للأدب من خلال ثقافته العربية والفرنسية، وهذا أقل ما يجب أن يفعله الحكيم.

وحين نقلت صلحات - وثائق من كواليس الأدباء - الذي أشرت إليه.. نجد توفيق الحكيم يقول: فقد كانت هواية طه حسين.. أن يكتب المقدمات للكتب التي تصدر، وخاصة إذا كانت لأصحاب المكانة، والأهمية في نظره..

وأخذ يستعرض من كتب له ولهم مقدمات مثل الشاعر خليل مطران، والبشري، وأحمد أمين وغيرهم، ويقول توفيق: حتى ممن كانوا أكبر منه سناً، وأقدم مكانة مثل خليل مطران، الذي في سن أستاذه لطفي السيد، فلما صدرت الطبعة الثانية من – أهل الكهف – اقترح أن يقدم لها، فلم أتحمس لذلك في نفسي لأني أكره المقدمات ؛ وقد نشرت الطبعة الأولى بغير تقديم ولكن أظهرت الموافقة والرضا ؛ وإن كنت لم أهتم بعد ذلك بالأمر وانظروا إلى جملة أقدم مكانة – وغمز الحكيم ، أي أن خليل مطران أكبر من طه مركزاً أدبياً.

هذا الموقف من توفيق.. أمام طه حسين، ربما ترك شيئاً في نفس طه فتحامل ؛ لما يمكن أن يحسب تكبراً، ولعل طه أسرها في نفسه، ولم يبدها.. وقد أشار طه حسين إلى شيء من ذلك في كتابه – فصول في الأدب والنقد ؛ بقوله – ونتحدث عن أهل الكهف، وعن طبعة ثانية تذاع بين الناس، فأقترح أنا أن أقدمها إلى الجمهور، ويظهر الأستاذ يعني توفيق الحكيم وأصدقاؤه الرضا بذلك والابتهاج له، ثم يلقى الستار ويرفع، وقد تمت الطبعة الثانية من أهل الكهف ؛ وأبطأت أنا بالمقدمة أسبوعين فينشر الكتاب بغير مقدمة، وبغير أن يتحدث إلى أحد في ذلك، فيسوءني ذلك بعض الشيء..

ويعقب توفيق في الكواليس على ذلك بقوله: ولكن الظاهر أن الحساسية عند طه حسين كانت تضخم له الأشياء وأمثالها مما كان يتراكم في نفسه دون أن يظهره إلى أحد تصور فيه أنني أسيء إليه عمداً لدوافع سياسية في كواليس الأدباء - لتوفيق الحكيم - نجد الأثر الذي تركه طه حسين في نفس توفيق، ربما من خصوصية قديمة يضاف إليها، الكلمة الساخنة العنيفة، التي استقبله بها، في أول أيام توفيق بمجمع اللغة العربية، يوم اختير عضواً فيه.

ونقرأ للحكيم قوله في الكواليس «فلا عجب إذن أن يظن بي طه حسين الظنون.. لذلك بادرت أعلن أن أكبر سلطة لا تستطيع أن تفسد الصداقة التي بيننا، وصافيته، وإن كان أهل الحسد كما كان يقول.. يحاولون دائماً إفساد الصداقات، ومع ذلك، فهذه الحساسية يعني عند طه - كانت دائماً مصدر متاعب، ولا أنسى كلمة لصديق الطرفين أحمد أمين، كان دائماً يرددها عن طه حسين قائلاً: إن صداقته متعبة، وعداوته متعبة..

إذاً هناك رواسب، ربما كان سببها حساسية طه حسين، وعلى جانب آخر، عدم تقدير توفيق لهذه الحساسية، أو إهماله لها.

ويعقب توفيق في الكواليس على ترشيحه عضواً في المجمع في مايو 1954م بواسطة أحمد أمين ومنصور فهمي، فيقول: «وكان المفروض أن الذي يستقبلني.. هو أحمد أمين أو منصور فهمي.. ولكن طه حسين اتصل بي، وسألني بالتليفون.. هل لديي مانع، من أن يكون هو الذي يستقبلني؟ فلم يكن هناك بد من الموافقة ؛ حتى لا أجرح إحساسه، وأكرر معه الموقف نفسه، يوم عرض أن يقدم الطبعة الثانية من «أهل الكهف» ؛ وأنا أعرف حساسية طه، وحرصه على تقديم واستقبال من يختارهم، واستقبلني بالفعل».

ولم يعقب الحكيم في الكواليس، كما لم يذكر في كلمته في المجمع شيئاً عن استقبال طه حسين، وإنما لزم الصمت، ولم يذكر في الكواليس، إلا حساسية طه وسعي أهل الحسد بإفساد الصداقات.

وهكذا، نكمل هذه الوقفة، وأكبر الظن، أن الموضوع قد استوفى نصيبه في هذا الاستعراض ؛ولا يتطلب مني مزيداً من تعقب، وكان الدافع إلى هذه الوقفات.. حرصي على قراءة كلمة طه حسين في استقبال الحكيم، منذ ألقاها، قبل ثلاث وعشرين

سنة.. هذا التاريخ كان عام 1402هـ، 1982م، يوم أصدرت كتابي: «في معترك الحياة»..

وشكراً للصديق أبي ماجد الذي بلغني هذه الرغبة.. وموعدنا.. في وقفة أخرى.. إن شاء الله، مع الأستاذ محمد توفيق دياب، يوم دخل مجمع اللغة، واستقبال الدكتور طه حسين له، ورده على ذلك.

* * *

استقبال ديـاب

يبهرك الدكتور طه حسين إذا وقف خطيباً فيملأ نفسك غبطة وأدباً وجمالاً، وهو يتدفق كالجدول الرقراق الذي تداعبه النسمة الحالمة في أيام الربيع الزاهية، وفي أيام الصيف اللافحة، فيملأ نفسك خرير الماء وحفيف أوراق الشجر وتملأها الخضرة التي تغمر حوافي الجدول وما حوله.

إن طه خطيب مفوّه ما في ذلك شك، فهو لا يتلجلج، ولا تغلق عليه أبواب ونوافذ القول، وهو قد انتهج مسلك الخطابة منذ كان مدرساً في كلية الآداب المصرية، يلقي دروسه على طلبته من موارد قراءاته الواسعة في فنون الآداب، وتكونت فيه تلك القدرة الباهرة، فيما يلقي من محاضرات، واتخذ لنفسه أسلوباً يميزه عن غيره، أجمل ما فيه تلك السلاسة والقوة والعمق، في بلاغة متميزة ولغة جادة رصينة، ذلك أنه ابن الأزهر وفيقهه في لغته وفقهه.

وحين وصل قطار الدكتور طه حسين إلى مجمع اللغة العربية بمصر، ليحط فيه رحله بعد تطواف طويل على أثباج السياسة والأدب والخصومات التي لا تكاد تنتهي حتى تشتعل من جديد.

حين وصل طه حسين إلى هذه المحطة الأخيرة من ترحاله الطويل، كان الخطيب الذي يستقبل الأعضاء الجدد في المجمع، ولا أقول إنه الوحيد في ذلك، وكان كذلك البارز والأكثر استعداداً، بما وهب من فصاحة لسان، وقوة شخصية، ولكنه كان البارز والأكثر استعداداً؛ بما وهب من فصاحة لسان، وقوة شخصية، وقدرة على العمق في استقصاء حياة ومسلك العضو الذي يستقبله، وما يتخلل حديثه من جد يبلغ القسوة والعنف وشيء من هزل يخفف به تلك الحدة، التي يخشى من صرامتها أن تسيء إلى الزميل الجديد. وغالباً ما يكون هناك روابط طه والضيف الجديد على المجمع، وطه في هذا المنهج نموذج فريد اختاره وارتضى منحاه.

وقد وقفنا في الشهر الماضي في حلقات متتابعة من زاويتي اليومية «معالم» بهذه الصحيفة على خطاب طه حسين في

استقبال صديقه توفيق الحكيم، فعنف به أشد العنف، حتى أن توفيقاً حين وقف يلقي كلمته لم يشر إلى خطاب الاستقبال بشيء، لا من بعيد ولا من قريب، من قسوة ما سمع وهو يلج باب المجمع كعضو فيه، ولعله فوجئ بهذا العنف، وما كان يتوقعه، لأنه ضيف جديد، ولعله أغلق عليه فلم يستطع أن يدافع عن نفسه، وهو يعلم أنه أمام خصم عنيد سرد في كلمته - أي طه - شيئاً كثيراً عن تاريخ توفيق الحكيم مما لا يجادل فيه لأنه واقع، وما كان ليكشف عن الواقع في حفل التكريم والضيافة.

وفي يوم 8 من مارس من سنة 1954 وقف الدكتور طه حسين كعادته، يستقبل الضيف الجديد الأستاذ محمد توفيق دياب في مجمع الخالدين - كما أطلق عليه - في عهد رئاسة أستاذ الجيل لطفي السيد. لهذا المجمع، وشغلت كلمة طه في استقبال توفيق دياب ست صفحات ونصفاً من مجلة المجمع، ولم ينج توفيق من لذعات لسان طه، وقد استهل طه حديثه إليه بقوله:

«أحمد إليك الله على أن وصلت إلينا سالماً بعد رحلة طويلة شاقة، وسفر غير قاصد في طريق قد بثت فيه عقاب، أي عقاب، كيف.. وقد اختارك المجمع لعضويته في إبريل الماضي ولم يأذن لك بالوصول إلينا إلا في فبراير الماضي، ذلك لأن مفاتيح دارنا

هذه ليست إلينا وإنما هي إلى وزراء المعارف، يستأذنون في استعمالها بمجلس الوزراء ثم يأذنون للأعضاء الجدد بالوصول إلى زملائهم الذين سبقوهم إلى هذه الدار».

ويمضي طه حسين في القول: «ومع ذلك فأحسبك أقربنا داراً إلى هذا المجمع، فانظر إلى الدار وبعد المزار، واذكر قول أبي العلاء:

فيا دارها بالخيف أن مزارها

قريب، ولكن دون ذلك أهوال

ثم يتحول طه حسين إلى الحديث عن شخصية دياب، فيذكر أنه عرفه منذ زمن بعيد، أبياً، لا يحب الخضوع للنظم، فأصابه بعض الشطط من ذلك، منذ كان صبياً، واقرأوا ما يقوله طه عنه:

«وإذا ذكرت العصيان فإنما أذكره وأنا ألحظك في سنيك الأولى، ثم حين كنت صبياً تختلف إلى الكتاب، ثم حين اختلفت بعد ذلك إلى المدرسة الابتدائية في حي من أحياء القاهرة فكنت دائماً تلميذاً سيء السيرة في فصلك ومدرستك، لا تحب نظام

المدرسة ولا تحب أمر الأستاذ والناظر ولا تحب الكتب المقررة، وإنما تتبع هواك وتعمل كما تريد أنت لا كما تريد لك نظم التربية و - البيداجوجيا -.

ويأخذ طه حسين في سيرة صاحبه، وأنه ما كاد يخلص من المدرسة الابتدائية حتى التحق بالثانوية، ولكنه لم يستقر فيها فيقول له: «فمازلت تعبث وتلهو، ولكنه عبث جاد ولهو صارم، تقرأ في غير ما يطلب إليك أن تقرأ فيه، وتسمع لغير ما ينبغي أن تسمع له، وتطيع نظماً أخرى.. لا تأتيك من المدرسة وإنما تأتيك من نفسك الجامحة وقلبك هذا العصي الذي لا يحب الطاعة، ولا يرضاها».

ويشير طه حسين في حديثه إلى أن محمد توفيق دياب لم يستقر في المدرسة الثانوية الحكومية بسبب مسلكه الجامح فتحول إلى مدرسة أهلية لعلها تساير - عبثه - كما يشير طه، ولكن النتائج لم تختلف، فاضطرت أسرته أن تنقله من القاهرة إلى الإسكندرية لعله يتروض ويرتاض النظم فيعنى بالدراسة حتى ينال الشهادة الثانوية، وذهب دياب إلى الإسكندرية مكرهاً وكان بذلك بارماً ضيقاً.

ولكن حاله لم تتغير فظل عصياً أبياً، يؤثر ما يريد على ما يراد له، كما يعبر طه حسين، ورغم أن دياباً، كما يصوره العميد، درس على هواه لا هوى المدرسة، فقد أتيح له أن يحصل على الشهادة الثانوية في سرعة وكان من أوائل الناجحين.

ورحل دياب إلى بريطانيا وفي ذلك يقول طه حسين: «ثم أردت أن تطلب العلم حيث تحب أنت، لا حيث يحب لك أهلك وذووك، فرحلت إلى بلاد الإنجليز وهناك لم تحفل بالنظم الجامعية البريطانية، كما لم تحفل بالنظم التعليمية المصرية، فدرست في بلاد الإنجليز على هواك أيضاً وليس لهذا كله معنى إلا أنك لم تكن تلميذاً طائعاً، إنما كنت تلميذاً من النوع الذي ينصرف عنه المعلمون والنظارة وأساتذة الجامعات ومديروها».

«درست في بريطانيا العظمى كما شئت أنت، والغريب أنك أحسنت الدرس وبلغت من العلم ما أحببت، أو بعض ما أحببت، فالذي أعرفه أن حاجتك إلى المعرفة لا تنقضي، ولكنك لم تعد من بلاد الإنجليز بإجازة معينة، ولكنك عدت منه بشيء غريب قلما يعود به الطلاب الذين يرسلون إلى الخارج، عدت وفي نفسك ميل

إلى هذه النزعات، نزعات التصوف الذي يخرج الناس عن عاداتهم أحياناً».

هكذا ينساب طه حسين يتحدث إلى صاحبه وعنه في يوم استقبال الأستاذ محمد توفيق دياب في عضوية مجمع اللغة العربية بمصر.

ونمضي في الموضوع حول كلمة طه حسين، ورد الضيف الجديد ونمضي في على كلمة الخطيب الذي استقبله، وتحدث إليه، وتحدث عنه، مصوراً شخصية القادم الجديد، وما اكتنفها وهي تضرب في الأرض، تصيب وتخطئ وكأن طه حسين قد وقف نفسه، يمسك بميزان دقيق، كأنه ميزان الجواهر الغالية، أو كأنه صراف ماهر، يميز سليم العملات من مغشوشها، من أول نظرة، أو فحص سريع. أو هكذا يضع طه من يندب.. نفسه لاستقبالهم.

ونتابع حديث عميد الأدب العربي، فنراه يذكر صاحبه بأيام خلت، كان فيها طه ودكتور محمد حسين هيكل ودياب شباباً، متحمسين، وكانت حماستهم، كأنها نار تتأجج في الصدور والرؤوس، كان يقول طه، من أجل استقلال مصر، وكان ثلاثتهم..

يقيمون المعارك، ضد الزعيم سعد زغلول وضد حزب الوفد مع آخرين من الذين يسلكون مسلكهم حتى يشتط النقد، فيقدمون إلى القضاء..

ويذكر طه حسن أن تلك الأيام كانت رائعة، لأنه وزملاءه كانوا يصدرون فيها عن نفوس صادقة، وقلوب مؤمنة، تريد الخلاص لمصر، والحرية والاعتزاز.

يعود دكتور طه حسين إلى الماضي وذكر الشباب وعنفه، وهو يحادث صاحبه محمد توفيق دياب فيقول: «كنت خصماً لسعد، وحين انحرف أصدقاؤك السياسيون عن سياستهم لك، وأرادوها دكتاتورية طاغية، انحرفت عنهم، وحاربتهم في قوة أي قوة، وفي عنف أي عنف، وضحيت في ذلك بمنصبك، وأقبلت على مغامرة.. عرفت أولها ولم تعرف آخرها، أتذكر خصومتك للكتاتورية الثانية، دكتاتورية صدقي رحمه الله؟، ما أظن أن مرارة السجن قد ذهبت آثارها من نفسك».

ويمضي طه يسرد الأحداث في التاريخ، ومن التاريخ، ويعقب بقوله: «إنها أيام قد خلت بخيرها وشرها، غير أنها تركت آثاراً في نفسه. ونفوس زملائه لا تمحى» ويؤكد أنهم كانوا

ينهضون بالواجب وكانوا يحتملون الشدائد في سبيله، وكانت الخطوب تعترض عنف الشباب وقوته، ومغامراته وكانت حياتهم لا تعرف إلى الاستقرار سبيلاً، ونستمع إلى طه يخاطب صاحبه، محمد توفيق دياب، ويعرج به كأنه يقرأ من صفحات مكتوبة أمامه: «وما أكثر المغامرات التي دفعت إليك في حياتك تلك التي لم تعرف نظاماً ولا استقراراً، وإنما مضت على سجيتها أشبه شيء بالسيل الذي لم يتخذ لنفسه طريقاً مرسومة، كهذه الطرق التي تحفرها، لأنه إنما يجري حيث استطاع أن يجري، ويندفع في غير وجه، حيث استطاع أن يدفع». هكذا يصور طه صاحبه في غير مصانعة، ولا احتياط، ولا تحفظ أمام نخبة من المفكرين الكبار.

ويعقب بعد هذا، مخاطباً صاحبه فيقول له: «هكذا كنت، وأخشى أن تكون قد بقيت كما كنت، وأخشى أن تكون الشيخوخة التي وصلت إليها لم تستطع أن تردك.. إلى شيء من الأناة والمهل، والرشد الاجتماعي الذي يأخذ الناس بالحياة الهادئة الوادعة المطمئنة».

صراحة، لا تنقصها الصراحة، في هذه الألفاظ المحددة

الشكل والمعاني يلقي بها طه حسين، وكأنه مطمئن إلى أن صاحبه يتقبلها، لأنها تصوره حقاً، ليس في ذلك تجن ولا افتراء رغم عنف التعبير أحياناً.

ثم يشير طه إلى أن أعضاء مجمع اللغة العربية، لم يختاروا توفيقاً عن عبث، ولا عن مجرد حبهم له، والرغبة في زملائه، وإنما اختاروه، لأنهم - يقدرونه -.

هذا هو بيت القصيد في هذه القفلة التي تعقب ما يشبه الهجوم في كلمة استقبال، وطه لبق، يحسن اللعب بالمعاني والألفاظ، ولماح يشتد حيناً، ويلين حيناً آخر، ليصل إلى غايته، وهو حين يتحدث أو يكتب، لا تأخذه المصانعة، ولا يشتط إلى حد الجفوة التي لا تحمل، فهو يوائم بين المواقف في هذه الدبلوماسية الأدبية العميقة.

وتنتهي وقفة طه حسين، موجهاً الحديث إلى زميله الجديد، أو الجديد القديم، فيقول: «حقاً لست من العلماء الذين يملأون الدنيا بكتبهم، ويحصون مجلداتهم بالعشرات، فلا أكاد أعرف لك إلا شيئاً قليلاً من المجلدات وأحسبه كتاباً واحداً، ولكنك ملأت الدنيا ثقافة بمحاضراتك أيام الشباب ملأتها ثقافة

تمس بها الحياة الاجتماعية وتمس بها حياة الناس اليومية، علمت الشباب بأدبك، كيف يحبون الأدب، وعلمته بجدالك وبخصامك كيف يصلب في الحق، ويجادل عنه، ويخاصم فيه، وعلمته بملاحظاتك الاجتماعية كيف يهتدي إلى الخير وينصرف عن الشر، وعلمته قبل كل شيء كيف يحب الجمال الفني الأدبي» إلخ..

تصوير جميل حقاً، في روعة أداء وتسلسل سلس.. في الأفكار، مثل الجدول الرقراق.

ونختتم وقفة طه حسين، عند هذه السطور، وهو يتحدث عن أعضاء مجمع اللغة العربية، فيقول لصاحبه عنهم: «كلهم قد أدى واجبه، وأن له أن يطمع في الراحة، ولكن المزية الخاصة لهذا المجمع ولأمثاله من المجامع في هذه: أنه يأخذ الذين استحقوا الراحة بأن يعملوا ويعملوا، ويتكلفوا التعب والجهد، ويحتملوا الشقاء والعناء، ليؤدوا حق الواجب، وليقولوا للشباب: إن الواجب شيء يجب أن يصحب الإنسان، منذ يعقل إلى أن يموت».

نعم: الواجب شيء يؤديه الإنسان حباً في ممارسته، منذ يعقل إلى أن يموت. ونحن نذكر به الشباب، وننبههم إليه، أولئك الصادر منهم.

وبعد أن شرّق وغرّب طه حسين، في رحلة طويلة من الذكريات كأنه أراد أن يقصها، ليذكر بها صاحبه، ويسمعها لزملائه أعضاء المجمع ان له، أن يعود إلى كرسيه ليستمع إلى كلمة المحتفى به. ماذا سيقول، وبماذا يرد على الهجوم والإطراء، اللذين مزج بينهما طه في هذا المزاج الطريف، بكل ما في النقد من كره، وما في الإطراء من حب بالقياس إلى النفس البشرية؟

وقف محمد توفيق دياب، ودخل في الموضوع مباشرة، مشيراً إلى مستقبله، فقال: «ها أنتم أولاء قد سمعتم من صديقي الألمعي، الذي تفضل باستقبالي هذه الروائع من كلمات، وإن كنت أغضي حياء من الثناء الجميل الذي أغدقه على شخصي في سخاء يشبه الإسراف، لكنه ثناء على حلاوته يمازجه غير قليل من الملح، وقديماً علمنا من بعض الطهاة أن لابد من شيء من الملح، يضاف إلى بعض صنوف الحلوى، كيما تشتهي، وتستساغ».

هكذا بدأ تعليق دياب، فقد فهم بعمق ما قاله طه حسين، وكأنه يسجل كل كلمة قالها طه، ولكنه لا يدقق كثيراً وهو يلقي كلمته، كرد على كلمة الاستقبال، وشكراً لأعضاء مجمع العربية

الذي اختاره، ويقول عن كلمة طه: «وملح هذا الاستقبال الذي حظيت به من صديقي طه، وهو يعدد - القرصات - المهذبة، التي كثيراً ما يلوي بها - لحوم - أصدقائه لياً رقيقاً، كلما واته الفرص»، ويمضي في القول: «هذه الوصفة، المعسولة المملوحة، لابد لنا من الاستمتاع بها على يد الدكتور طه، حتى لتقبل على كل سانحة من قرصها في سرور وبهجة لأنها قرصات مستطرفة، تقع من النفوس وقع الدغدغة، والتحميش من الأبدان».

الأستاذ دياب، يحسن الظن بصاحبه، ويرد بروح رياضية على أساس، أن ما قيل في استقباله هو من قبيل المداعبة، ولكن هناك إشارات، وهو إضافة الملح إلى بعض أصناف الحلوى، كي تشتهي كما ينسب ذلك إلى الطهاة وأنه تعلم منهم. وفي هذا غمز قوي لقولة طه حسين.

ويشير الأستاذ دياب، بأنه زار طه حسين في منزله الحافل بالعلوم والآداب والفنون، قبل أن يلج باب مجمع اللغة العربية، وأنه وجد في هذه الزيارة شيئاً من الامتحان، وأنه أحس بشيء من التهيب بداخله من هذا الأستاذ.. «الذي تعود.. أن يكون فارساً، ولم أتعود أن أكون فريسة».

ويأخذ الأستاذ دياب في الحديث: «لم يكن الامتحان الذي فرضه على اختباراً في الأدب، ولا في اللغة، ولا في شيء يمت إلى ذلك بسبب، ولو أراد الدكتور أن ينزل بي هذه المحنة لأسقطني من حالق، ولو حاول ذلك معي، لتمردت عليه، كما تمردت على المألوف من مناهج الدراسة، والمطروق من سبل الشهادات العالية، وما فوق العالية، كشأني الذي وصفه الدكتور طه بلساني، من فوق هذا المنبر منذ لحظات قصار».

تعبير دياب فيه اتزان، ولكن معانيه أعمق من ألفاظه، واسمعوا هذا التعبير الموجز، ولكنه ذو معان عريضة: «وروح الجماعة، تزين للجماعة أن تسخر إذا سخر قائدها، وأن تتواقر وتجد إذا جد وتواقر، ومن عسى أن تكون هذه الجماعة المثقفة في هذا اليوم الرحيب، سوى البطل الذي يعلو منبر الخطابة ليستقبل العضو الجديد، في حفلة رسمية، من الغرباء، والقرباء».

وقبل، أن نترك الأستاذ دياب يتحول في كلمته إلى سلفه الدكتور «فارس نمر»، ماراً بحديث، أو كلمات عابرات.. عن أستاذ الجيل، لطفي السيد، ودوره معه أيام سعد زغلول.

قبل، أن نترك الأستاذ دياب ونحن بين استقباله، يستمع ويتحدث ؛ نسمعه ونقرأه في هذه الكلمات القصار عن طه حسين.

«وأشكر صديقي طه الذي أوسعني مدحاً، حتى أخجلني ولكنه خجل ليس يخلو من زهو وغبطة، أشكر عسله وملحه، وفكاهته وجده، وأشكر عبقريته التي - جعلت - من صبي القرية، وكم في القرى من صبية يعدون بالملايين، ومن طالب الأزهر. وكم في الأزهر من طلاب يعدون بالألوف.. أشكر هذه العبقرية التي سمت بطه حسين إلى الذروة العليا من الثقافة والأدب، أدب الشرق، وأدب الغرب على السواء».

وهكذا نختتم هذه الوقفة، وقد اضطررت، إلى عدم الإطالة، حتى لا يكون الإملال، ولا الإيجاز الذي يفقد بهاء المعنى.

* * *

ســوق عكــاظ

إننا إذا انتصرنا في النهوض بلغتنا، فإن ثقافتنا إذا أخذت حقها من الاهتمام والإنفاق ونهضنا بالجوانب الثقافية في ميادينها، بحيث لا تكون ثقافتنا هشة لا يعوّل عليها، وإنما هي ارتقاء عبر منابرها ومنتدياتها ومراكز ثقافية تنشأ لتكون روافد قوية للثقافة نراهن عليها عبر مشاركاتنا في الوطن العربي، وكذلك إذا أعطينا الثقافة حقها الذي ينبغي أن تناله، وإذا ارتقى بها اهتمامنا، بحيث ننشئ - سوق عكاظ -، ثم نشرع في توسيع دوائر هذه السوق لتصبح مرتاد رموز الثقافة العربية وغير العربية، يقصدها مرتادو المعرفة من كل أنحاء العالم، فسوق عكاظ قيمتها في رأيي لا تقل عن قيمة جامعة تنشأ في مدينة ويهيأ لها كل ما ينهض بها في أداء رسالتها الراقية القوية؛ وربما أكثر من قيمة جامعة.. إن سوق عكاظ التي بدأت اليوم بعد

توقف أربعة عشر قرناً، نريدها أن تعلو قيمة واهتماما، نريد عكاظاً سوقاً دولية لا لفاخرة السيارات الروزرايز وأمثالها من نفائس المركبات، أو أسواق الذهب التي تقام في الدول الأوربية، لا نريد عكاظاً رمزاً تاريخياً يدب دبيباً على الاستحياء، وإنما أريدها في مقدمة المشروعات والمرافق التي تهتم بها الدولة، بل التي تأتي في مقدمات اهتمامها، إذا كنا حقاً ندرك قيمة الثقافة الحقة، ونريد أن نعمل لرقيها في مهد العرب، وإذا استشعرنا قيمة هذه السوق في جاهليتها ، كيف كانت تلقى من اهتمام في الجزيرة العربية، يسعى إليها كبار الشعراء ومن يحفلون بالأدب الراقي، عبر اهتمام في التلقي لتقديم شعر متميز يحظى بمحكمين لهم كعب عال في فهم الشعر وقيمته،.. واليوم نريد أن ندعو إلى هذه السوق أعلام الشعر والأدب والرواية والقصص، ليعلو شأنها حين يقصدها العالم من مختلف أرجاء الدنيا، ويبقى أياماً وليالي في منتدى عالمياً للمعرفة، هذا مقصد كبير للسياحة؛ ولعل سمو الأمير سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز يجنح إلى التحاور مع سمو أمير منطقة مكة المكرمة في جعل سوق عكاظ ملتقى عالمياً، تفتح أبوابها وتشرع ساحاتها، وتسهل سبل

الساعين إليها من كل مكان في العالم عبر موسم سنوي في مناخ غير حار، كأن يختار له شهر فبراير أو مارس من كل عام ، وذلك بعد أن يشيد هذا المركز الكبير فيه كل متطلبات الحياة المباحة من فنادق وحركة حياة ؛ ليكون سوق عكاظ كمدينة البندقية " في إيطاليا يقصدها أهلوها ، فالمعرفة كما قال المتنبي:

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة　　إن المعارف في أهل النهى ذمم

لست أحلم، ولكنى أرجو وآمل أن تنطلق سوق عكاظ، ليس على المستوى البدائي الذي يتكئ على عكازين ليقف، أو التي يسعى إليها عبر هذه المحاولات الضعيفة الضئيلة، وإنما أريد أن يكون لها انفتاح على العالم العربي والإسلامي والغربي في كل أرجاء القارات أو بالتحديد اليابسة، وأرجو أن يكون للقطاع الخاص نصيب المشاركة والدفع وتحقيق الحلم الذي - بلا حدود - ما ينفق في تشييدها والاهتمام بها، وسيكون لها عائد كبير في شطر السياحة، إذا استطعنا أن نحسن تنفيذها على مستوى العالمية، تلبى طموح الذين يمتد نظرهم أمامهم بعيداً بعيداً، والخيال الطموح يبدأ من زاوية حادة ونافذة، ثم ينداح المشروع

الباذخ، يقصده العالم الذي يعنى بالفكر والسياحة فيه وما حوله، والمدن السياحية في العالم لعلها بدأت بتخيل، ثم ظهرت كمشروعات كبيرة ، أصبحت معالم للدول التي انشأتها ودعمتها وجعلتها هدفاً ليس مغامرة تعروها الرياح، ولكنها إعمار لمشروعات كبار، لأن وراءها طموحات لا حدود لها.

وإذا ازدهرت الثقافة في سوقها العكاظي، فإن غداً جميلاً يلوح أمام أعيننا عبر هذا المشروع الذي أسميه اليوم حلماً، وسيتبعه مقومات أساسية، لحياتنا بعامة وهو «الإحصاء» وإذا تحقق ذلك فإن ازدهار التنمية في بلادنا بحول الله وقوته ستكون في قمة ازدهارها، فالثقافة القوية هي رافد كبير للتنمية، إذا نجحت وازدهرت، وبجانبها إحصاءات دقيقة.. وهكذا الحياة عبر خطوات ومشروعات تنهض بالأهداف المبتغاة، وتدعمها عزائم وآراء بناة طموحة، والأمة القادرة التي تبني للغد القريب والبعيد، تستطيع أن تحقق المستحيل إذا أرادات ؛ بعيداً عن التردد والتفكير في العقبات والعراقيل، لأن الطموح المتزن لا يركن إلى التردد وتعطيل التفكير الجموح القوى، فالأمم اليوم في الشرق والغرب ارتقت إلى أبعاد بعيدة جداً، لأنها طامحة

وشجاعة، ولا يوجد في مخيلتها شيء اسمه مستحيل وغير مأمون في نتائجه ، وأمام عيني هذا الشاهد:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا

وأقول منًى، إن تكن حقاً تكن أحسنى المنى، وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً»..

لعلي أشير وأبدأ بالإعلام الثقافي وتنمية المجتمع ؛ وإن ثقافة الفرد ومراحلها. ولا ريب أن العجز الذي نلاحظه في مجتمعنا ؛ يبدأ من الطفولة المبكرة؛ وما يتبع ذلك من عدم متابعة الأسرة في المنزل توسعة مدارك ناشئتنا بالثقافة العامة وغرس حب القراءة؛ وإلغاء اعتمادهم على الخادمات والسائق والتلفاز وغير ذلك من أسباب اللهو وقتل الوقت؛ وكأن الأم رمت بحملها ومسؤولياتها إلى غيرها ؛ تخلت عن أن تكون مدرسة كما قال القائل ؛ وكذلك الأب لم يعد مسؤولاً إلا على الجانب المالي في الإنفاق وليس مسؤولا عما سواه ! وأين هما الأم والأب من قول من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم: كلكم راع ؛ وكل راع مسؤول عن رعيته، ويا ضياع الأمانة التي أبت السموات

والأرض والجبال أن يحملنها، وحملها الإنسان ؛ إنه كان ظلوماً جهولاً»..

إن تخلى عمودي الأسرة الأم والأب عن هذه الأمانة يؤدي إلى فراغ وإلى ما يشبه الضياع بدءاً من الضعف الذي نراه في مرحلة التأسيس، وسوء أداء المدارس والجامعات ؛ لتكون المحصلة ما قال أبو الطيب المتنبي: «أرق على أرق»..

أرى أنّ النهوض بالثقافة والتنمية الاقتصادية أرى أنه يتلخص في بعض النقاط التالية وثم أمور أخرى عدا ما أقول:

1 - بذل ما يمكن بذله في سبيل الهدف المنشود والعمل له، كالتعليم والتحصيل العلمي الجاد ، ويشمل جميع المراحل الدراسية ؛ وأهمها - مراحل التأسيس المبكّر -، ويكون ذلك بالتربية الحسنة في المنزل والمدرسة، ودُور التعليم المهيأة لذلك، والمنهاج المختار والمتقبل؛ والإدارة الناجحة، والمعلم المخلص ذي التحصيل العلمي العالي والعمل الجاد الدؤوب نحو الهدف المطلوب!

2 - خشونة العيش، والحد من الترف والتدليع وإعطاء الطفل كل

ما يريد من وسائل اللعب والاتصال والسمعيات والمرئيات ؛ التي لم يبذل أي جهد في إنتاجها أو تصنيعها أو اختراعها، ذلك أننا مستهلكون لهذه المنتجات عوض أن نتعمق في ثقافتها ونغوص إلى الأسرار الواقعة وراء انشائها فالآلة لا دور لها في الرقي إن لم تكن مصحوبة بثقافة الآلة ؛ والتي تجني الدول المنتجة من ورائها الأموال الطائلة.. ولعل هذه الملهيات الرخيصة سبب في تخلف وتأخر التحصيل العلمي لدى طلابنا وطالباتنا، ولا أدل على ذلك من أن أهل المعرفة قبل عقود غير بعيدة لم يكن لديهم وسائل التعليم الحديثة، ومع ذلك بذلوا الجهد وتفوقوا بإصرارهم وحبهم للمعرفة، ولم يكن عندهم وسائل اللهو بأنواعها التي تزحم حياتنا اليوم.؛ ونرى شرائح من المواطنين والمقيمين، أحكموا ذريتهم فلم يتلهوا بما يضعف تحصيلهم الدراسي فكانوا متفوقين وبارزين ، لان وراءهم رقابة ومتابعة حقة..

3 - ينبغي وضع أهداف واضحة وعملية، تندرج في منظومة مدروسة من أجل الوصول إلى ما نصبو إليه في زمن محدد ومعلوم، عبر سبل واضحة وقابلة للقياس المستمر، والتعديل والتطوير نحو بلوغ الهدف؛ ومثال ذلك ما وصلت إليه اليابان

بعد تدميرها في الحرب العالمية الثانية، وهي دولة لا تملك أي موارد طبيعية؛ ومع ذلك فقد انطلقت من صفر الصفر بخطى متدرجة منذ البداية؛ مع التركيز على الإتقان والعمل الدؤوب نحو التقدم ؛ أدى الإصرار والطموح لدى الشعب الياباني أن أصبحت بلادهم أغنى دول العالم وأحسنهم تصنيعاً لكل شيء تقريباً: سيارات؛ أجهزة تكييف وتنظيف وثلاجات ومطابخ ؛ حاسوب؛ أجهزة كهربائية، الإلكترونية.. إلخ»، وذلك من خلال الرؤية الواضحة والعمل القوي الجاد ؛ والتأكد من جدوى المنتج ، والقفز إلى الهدف، مع أنها دولة تستورد المواد الخام ثم تصنّعها، ثم تصدر منتجها إلى الأسواق الدولية ؛ وقد غزت من سبقها من الدول الصناعية الكبرى في أوروبا وأمريكا، وذلك في زمن دون القياسي، في أقل من نصف قرن ، بعد أن طحنتها تلك الحرب الكونية التي أشرت إليها؛ غير أن الشعب الطموح ذي الإرادة لا يموت، لأنه أراد الحياة !

- التركيز على الشباب حماة وأمل المستقبل ؛ وتكريس كل شيء للنهوض بهم ؛ والسعي لتحسين أوضاعهم وتهذيب طباعهم ؛ وتعويدهم على الجد والمثابرة والعمل والتعلم

وريادة المعرفة وعدم الرضا بالقليل من العلم والطموح الذي يزحزح الجبال، ويحقق للأمة أهدافها العظيمة وعزتها ونصرها، كما فعل أسلامنا وقادة المسلمين الأبطال الذين انطلقوا من هنا، وبنوا أمجاد الأمة في الأندلس ودمشق والعراق، وفي كل مكان مهد طريقه الفاتحون ومنهم أسامة بن زيد، وأبو حذيفة الباهلي، وطارق بن زياد وكثير ما هم.

5 - ولابد من القيادة الحكيمة التي تعي هذه الأدوار؛ وتبذل ما في وسعها لتحقيق الأهداف الكبار للوصول إليها ؛ مع وجود البطانة الصالحة التي تنصح لله وفي الله ؟ وتعمل بجد واجتهاد وتطور ؛ وتعدل في الخطط ما ينبغي أن تكون ؛ متكلة على الله، ثم على القدرات التي تنهض بما يوكل إليها تدعمها مشورة ناصحة صادقة مخلصة مع الأخذ بالأسباب. كل ذلك في مرضاة الله لخدمة الوطن والإسلام والمسلمين ؛ وكأني بأبي الطيب يردد على مسمعي:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

إن التنمية والثقافة رافدان أساسيان لرقي أي أمة تبني

حياة أفضل وأرقى بلا حدود؛ وإذا أردت الدقة في تقديم أحد الهدفين، فإن الجادين الصادقين ، يقولون - الثقافة - ؛ بالمعنى المؤكد - المعرفة بشموليتها ؛ إذ لا يمكن أن تبنى - تنمية - ناجحة تلبى رغبة طموحة للحاضر والمستقبل إلا من خلال علوم ذات تخصص لهذا النداء الحق؛ وحين تتحقق العلوم التي بها إعمار الكون وتطوره ورقيه بلا حدود، فإن الثقافة توأم العلوم ليكون التكامل الأمثل في أي بقعة على وجه البسيطة ؛ فأعطني تعليماً راقياً متكاملاً ؛ أعطك تنمية قوية ناجحة لخمسين سنة قادمة عبر خطط خمسية، لا تقف في طريقها عوائق ولا مثبطات تعطل المسيرة؛ لاسيما وأن المال يدعم هذه الأهداف أو الأحلام، لأن الحديث على الورق حلم وأمل ؛ والذي يحقق الآمال بعد عون الله هو الإرادة.

حينما أركز على التعليم في المراحل الأولى وما يتبع ذلك من التطلعات البعيدة المدى، فإن الثقافة مبناها تعليم عال قويم، وحين تتركز قواعد التعليم ويصبح الوطن في قمة أوجه، فإن الثقافة ترقى إذا أتيح لها ركائزها التي تنهض عليها وبها؛ والثقافة ليست وليدة فراغ ولا كيان وقتي، وإنما هي عماد، وبناء

قواعد قوية من بث المعرفة الحقة الجادة، ومرد هذا كله تعليم قوي عال طموح تقوده قدرات وأهداف لا تعرف الملل، ولا تركن إلى دعة وركود وتقصير وعدم اكتراث، لأن كل عمل ينشد النجح لا يكون إلا قوياً رائداً بلا حدود !

* * *

من شاغلي الناس[*]!

لم يعد أبو الطيّب المتنبي هو شاغل الناس وحده لأكثر من عشرة قرون، ذلك أننا نجد في العصر الحديث من شغل الناس منذ ثمانية عقود، وإلى اليوم، وإلى الغد القريب والبعيد..

أبو الطيب المتنبي، حينما تفجرت شاعريته في عصر ذهبي متفتح ، رغم الأحداث والجهاد، ولأن المتنبي كان ثورة شعرية قوة وحكماً ونزعة إبداعية في تحدٍ اكتسح فيه الساحة، لأنه قوي وشجاع وعظيم، فقامت ثورة ضده حياً وميتاً، وأصبح يُكنى بشاغل الناس، والإنسان ذو الشأن القوي المصادم والنزّاع إلى الزعامة والتحدي بحق، يكثر خصومه وأعداؤه ومؤيدوه عبر

(*) نشرت بتواريخ 22 من جمادى الأولى 1425هـ 10 من يوليو 2004م ، 24 من جمادى الأولى 1425هـ 17 من يوليو 2004م، 29 من جمادى الأولى 1425هـ 17 من يوليو 2004م ، 2 من جمادى الآخرة 1425هـ 17 من يوليو 2004م، صحيفة الجزيرة.

أحقاب الزمان، كذلك كان المتنبي في الماضي وإلى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكذلك حال طه حسين في العصر الحديث، وستظل ذكراه والاختلاف في ثقافته وآرائه ومعاركه، لأنه قوي وصلب وعبقري.!

إن الذي تكثر معاركه في الحياة، يكثر خصومه، وأكبر شاهد على ذلك في العصر الحديث، الدكتور طه حسين، والأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، والدكاترة زكي مبارك، والأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي وغيرهم، مع اختلاف الأنماط والتوجهات، فمثل زكي مبارك، يمكن إدراجه في عداد الذين يمارسون المصارعة.. وهناك من يمكن أن نسميهم مسالمين، الذين يؤثرون العافية ، فهم شبه أمناء أو آمنين إلى حد كبير، غير أن النقد يطالهم، لأنهم كتبوا ونظموا الشعر، ومارسوا النقد، وأنشأوا الرواية والقصة والمسرحية إلخ.. إذاً فالنقد والمعارك بعامة ديدن الحياة.. ولعلنا من استقراء الأيام، ندرك أن أصحاب الحرفة الواحدة أو المتشابهة دائمو العداوات والحسد والكراهية، إلا من سلم الله، وهذا يذكر بقول الشاعر عمر بن أبي ربيعة في قصيدته المشهورة: «ليت هنداً أنجزتنا ما تعد» ، وهو القائل:

حسـداً حمّلـنه من اجـلـها   وقديما كان في الناس الحسد

نشرت مجلة القافلة، التي تصدرها الأرامكو، في عددها الصادرة في مايو - يونيو 2004م، ربيع الأول - ربيع الآخر 1425هـ، رأيين لكاتبين: سامح كريم، جهاد فاضل، كل منهما سلك منحى يختلف عن صاحبه، ورأيت أن الأستاذ سامح كان موضوعياً، وفّق إلى الصواب، أو هو نهج الكاتب المتقن المتمكن، على حين أن الأستاذ/ جهاد، مضى في درب لا يوصل إلى منهجية الحكم والدرس النقدي، ذلك أنه اتكأ فيما كتب على آراء خصوم الأستاذ العميد، وإن كان في آخر حديثه قال: «وفي اعتقادنا أن صورة طه حسين الحقيقية لا تُلتمس فيما يقوله هؤلاء الخصوم والأعداء عنه، ولا كذلك فيما يقوله تلاميذه ومريدوه، بل إنها تلتمس فيما يقوله الفريقان معاً».

ودعوني أقف مع الرأيين، لكنني أترك المعتدل بآخرة، لأن توجه جهاد لم يكن سوياً، ذلك أن آراء الخصوم لا يعتد بها، وعلى الأقل فهي عندي وعند المقسطين، تحتاج إلى نظرة تحليلية من الذي يتعرض للدرس النقدي، ولم يمارس ذلك الأستاذ

فاضل، والقارئ الفطن يرى أن كتابته هامشية لا يعوّل عليها في موازين الرأي المعتدل.!

إن الكاتب الذي يتولى الحكم في الدرس النقدي، لا يعوّل على آراء الخصوم ولو بعين واحدة، إلا بعد أن يحلل ما قالوا وما أبرموا وما حكموا، والأستاذ جهاد لم يفعل شيئا من ذلك، بل ركز وحشد آراء أكثر الخصوم، لكن دوره كدارس وحكم، يحتم عليه أن يقرأ تلك الآراء ويغربلها، ثم يقدم نتاج درسه الذي يعتقد أنه الحق أو قريبا منه..

وخلال قراءتي للرأيين المختلفين في الرؤية، رأيت أن الأستاذ سامح قد وفق ، لأنه سلك سبل الإنصاف والصواب.. ولعل رأي الأستاذ جهاد انطلق من توجه صحافي لا يعوّل عليه ولا يُعتد به ، لأنه ليس دراسة، ولا بحثاً يصلح مرجعية ودرساً، فهو ذو ملامح لقراءات شتى، قدمت بلا تحليل ودون غربلة، وآراء الخصوم لم تكن من الأيام مرجعية يتكأ عليها، ويستشهد بها في مجال الحكم والدرس والبحث، لذلك أرى أن ما قدمه جهاد فاضل عن طه حسين لا قيمة له، ولا وزن، ولا مرجعية.. ويبدو أن

القافلة وهي تسير، ليس فيها ميزان يُقوّم ما ينشر، وإن كانت تورطت في استكتاب جهاد، فكان ينبغي أن يعلق محررها الثقافي في وعي على هذه الآراء الفجة الململمة ، والنقل غير المدروس.!

يتحدث الأستاذ سامح كريم، فيذكر أن الحكومة المصرية يومئذ، وذلك في شهر فبراير 1932م: «أرادت حكومة صدقي باشا منح الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب لأربعة من السياسيين والأعيان»، غير أن الأسماء المختارة لمنحها الدكتوراه الفخرية ليس لأحد منهم علاقة بالأدب ، ثم إن هذا التوجه اعتداء على حرمة الجامعة، ولذلك رفض طه حسين عميد كلية الآداب الاستجابة لطلب رئيس الحكومة صدقي باشا، فطلب صدقي إلى وزير المعارف حلمي عيسى باشا: «أن يدعو طه حسين إلى مكتبه، وأن يعرض عليه الأمر مرة ثانية، غير أن طه حسين أصر على موقفه، ونشرت الصحافة خبر هذه المقابلة»، ورأت الحكومة إزاء رفض عميد كلية الآداب لما طلب إليه، استبدال كلية الآداب بالانتقال إلى كلية الحقوق، بعد أن قال طه حسين لوزير المعارف: «يا باشا عميد كلية الآداب ليس عمدة، تصدر إليه الأوامر

فينفذها على الفور، أنا كعميد للآداب لن أوافق على إعطاء الدكتوراه الفخرية لأحد لمجرد أنه من الأعيان أو السياسيين.. لا أوافق، ولا أستطيع حتى أن أعرض هذا الأمر على مجلس كلية الآداب، لأن أعضاء هذا المجلس لن يوافقوا».

غضب وزير المعارف من رفض طه حسين تنفيذ الأمر، فرد بغضب، وقال لطه: «أنت لا تسمع الكلام، حنشوف من ينفذ كلامه»، وهذا التهديد يمثل إنذاراً إلى عميد كلية الآداب ، وكانت النتيجة، صدور قرار بنقل طه حسين من كلية الآداب إلى ديوان وزارة المعارف، ونفذ العميد أمر النقل حيث ترك عمادة الكلية ، ولكنه رفض العمل، وشرع في حملته على حكومة صدقي في الصحف، لأنها حاولت الاعتداء على حرمة الجامعة.. ونتج عن ذلك، أن طلب صدقي من طه حسين التعاون مع وزير المعارف، لكي يعيده إلى عمادة كلية الآداب ويلغي قرار النقل.!

يقول الأستاذ سامح كريم: «لقد فرض هؤلاء الرجال، وفي مقدمتهم طه حسين بحيويتهم المتدفقة ، وعلمهم الزاخر، وتجاربهم الثرية ، فرضوا أنفسهم على عصرهم فرضاً.. ومن هنا نقول إن الذي أفسح لطه حسين طريقه إلى عمادة الأدب

العربي، كان طه حسين ابن عصره وابن زمانه، والذي جعله عميداً للأدب العربي ومؤثرا في عقول أجيال وأجيال، هو طه حسين الطاقة المبدعة لفلسفة هي ابنة زمانها وتجاربها، والذي جعل طه حسين عميدا للأدب العربي هو طه حسين رائد النزعة الإنسانية في الفكر العربي الحديث، والذي جعل طه حسين عميداً للأدب العربي، هو طه حسين الذي فتح للأدب العربي آفاقاً عالمية..».

وهكذا ! يعدد الأستاذ سامح ، مواقف الأستاذ العميد في النضال بقلمه وعلمه وعمله، وتضحياته من أجل رفع لواء الحرية الفكرية في شتى مرافق الحياة، إلى جانب إقامة سبل نقدية جديدة، وموازين للنقد الذي تعمق الآثار الأدبية والفكرية، ولقد حافظ على لسانه العربي الفصيح ، ودافع عن اللغة العربية، ودعا إلى حماية اللسان العربي المبين.!

أريد أن أعلن، أن هذه الوقفات وغيرها مما أخط، لا أقصد بها الدفاع عن الدكتور طه، ذلك أن للناس عيوباً وأن لهم أعيناً كما قيل، فطه حسين له تلك الأخطاء الكبار في شبابه، وللناس أخطاء كما يعلن الحديث النبوي: «كل ابن آدم خطّاء».. وفي

ساحة الأحاديث الأدبية وفلك دورانها، ندور معها ونتحدث، وأن هذه الوقفة مردها أنني قرأت حديث رجلين عن طه حسين، فرأيت أحدهما يتبع المنهج الصحيح في الكتابة، وهو الأستاذ سامح كريم، ورأيت الآخر ركز فيما كتب على آثار الخصوم والحاسدين، وحتى الذين قال الأستاذ جهاد فاضل إنهم من أصدقائه وطلابه زاغوا حسبما قرأت ما نقله الكاتب، وربما حصر الرأي في السلبيات.!

ويشير الكاتب أن طه حسين له محاولات شعرية، وأنه لم يدع أنه شاعر، ومع ذلك فخصومه يشهرون به.. وقد قرأت في زمن ماض أن الدكتور طه، أعلن أنه حاول أن ينظم الشعر، ولما لم يحسن منه شيئا هجر محاولته.. وحين يجنح خصومه إلى التشهير به في أمر قد حسمه صاحبه، فإن مرد هذا العبث فراغ وسوء أدب.. وكنت أنتظر من كاتب التصدي إلى هذا العيب والسخف، ولكنه لم يقل شيئاً، وهذا شيء محسوب عليه، وعلى أي كاتب يتصدى للدرس الأدبي والخوض فيه..

والمحقق الكبير الأستاذ محمود محمد شاكر، يأخذ على طه حسين في تفسيره لبعض أبيات المتنبي، وما قاله الأستاذ

شاكر جور وظلم لطه حسين، غير أن هذا المنطلق مرده ما شجر من خلافات بين الرجلين، لكن في رأيي أن ذلك لا يهبط إلى الاتهام بانعدام الذوق، وطه حسين يخطئ والشيخ محمود شاكر يخطئ، و«كلكم خطاؤون». وإذا قال طه حسين إن القرن الثالث الهجري عصر شك ومجون، وبجانب ذلك فإنه عصر علم وزهد وتدين، فأرى أن طه حسين لم يخطئ، ومن الذي يبرئ الأزمان والبشر فيها مما يرتكبه الناس من انحرافات ، وفي الوقت نفسه، ففي الزمن ذاته علماء وصالحون، والجميع بشر..!

قد نتفق مع الدكتور محمد الهادي الطرابلسي، على ما في إملاءات طه حسين من التكرار، غير أن خطب طه حسين أقوى من إملاءاته، أما قلة المعنى فليس ذلك صحيحاً.. أما ما قاله المازني من أن ما ينسب إلى طه حسين يدل على أكثر من طه حسين، ويرجع ذلك إلى قول العميد: «قرأت، ورأيت، وشهدت »، والمازني يدرك المعنى الذي يعنيه الدكتور طه، غير أنه كعادته، يسخر ويعبث.. ورأي فتحي غانم في طه بأن لغته لا تقطع في شيء أبداً، فلا يعوّل عليه، ففتحي غانم كاتب رواية وليس ناقداً يحتاج لحكمه ، وكذلك الحال في رأي إبراهيم المصري غير

المهذب وهو لا وزن لما قال، وكذلك رأي الرافعي، الذي يصف أسلوب طه حسين بالركاكة ومضغ الكلام.. والمحقق محمود محمد شاكر الذي يتهم العميد بانعدام حاسة التذوق الشعري، فهذا الاتهام لا صحة له، فالذي يقرأ كتاب في الأدب الجاهلي، حديث الأربعاء، من حديث الشعر والنثر يدحض افتراءات شاكر وغيره، وشاكر قال الكثير عن طه حسين، من ذلك أنه أخذ آراءه حين ألف كتابه – مع المتنبي –، لأن شاكراً أسبق، لكن هذا اللغط كله لا قيمة له، فهي أتهامات مرتجلة وينقصها الأدلة والحجة.. ومن هو جرجي زيدان كاتب الروايات العربية الملأى بالدس والسموم، كيف يأخذ منه طه حسين؟ أما الأغاني فهي مرجعية تاريخية، بما فيها من – عجر وبجر – كما يقال .. واتهام عزيز أحمد فهمي لأستاذه في مجلة الثقافة لأحمد أمين ، وهو ما نشر بالعدد الصادر في 4 سبتمبر 1945م، قد كون أوصافاً أخرى للعقاد، والزيات، والحكيم، وأحمد أمين، وأضفى ألقابا عليهم هي: إيطالي للعقاد، فرنسي لطه حسين، قبطي لأحمد أمين ، رومي لأحمد حسن الزيات، أمريكاني لتوفيق الحكيم، وأعطى نفسه صفة – هندي –، كل ذلك في سطور عبر صفحتين بعنوان: «باسبورتات»..

حشد الأستاذ جهاد فاضل الكثير من عبث القول، وهذه الحال ليست جديدة، فتلك هي الحياة وأهلوها عبر أزمانها، وإذا أراد إنسان أن يحشد كل ما قيل في الناس، فإنه يتعب نفسه فيما لا طائل من ورائه، وما ينبغي أن يشغل كاتب نفسه، بهذه الترهات التي لا حدود لها.. فجهاد يقول مثلاً: إن إسماعيل أدهم وصف طه حسين بأنه - لاعب له روح الطفل الذي يريد أن يلعب ويلهو، ولعبته كانت في كتابه «مع المتنبي» - ، وأرى أن طه حسين ظلم المتنبي في كتابه ذاك، ولكن لا ينبغي لمن يحترم نفسه، أن يمد لسانه بشيء من عبث الوصف، فالكبار هم الذين يحترمون ذاتهم، ويتعالون عن الصغائر.!

فيما قدمته مجلة القافلة من رأيين لكاتبين، ما يستحق الوقوف والتحاور معه، غير أني لا أميل إلى الإطالة التي قد تبدو مملة، ولو كانت في صميم الأدب ومتعته وجمالياته، لأنه يرتقي بالذوق إذا كان جميلا وبأداء جميل.!

* * *

على رسلك أيتها المتعثرة

«البرقوقي ومجلة البيان»، محاضرة كتبتها في أواخر عام 1424هـ، وخلال مطلع عام 1425هـ، خاطبني أخي المربي الأديب علي حسن العبادي، رئيس النادي الأدبي بالطائف، يريدني أن أشارك في نشاط ناديه، فاقترحت أن يكون الحديث عن – البرقوقي ومجلة البيان –، واتفقنا على أن يتم ذلك في صيف 1425هـ ، غير أن ظروفي وبرنامج النادي لم يتلاقيا.. وانتهى بنا المطاف إلى صيف 1426هـ، وقد كان، وألقيت ما كتبت مساء الثلاثاء 1426/6/13هـ، ثم شرعت بنشر تلك المحاضرة في حلقات بزاويتي في الجزيرة، بدءاً من 1426/8/29هـ .

وبعد نشر الحلقة الثانية، والمحاضرة قسمتها على أربع حلقات، جاءني هاتف مساء الاثنين 1426/9/7هـ، وكان المتحدث – «فايزة أحمد مصلح الحربي»، وقد أشرت إلى الحديث في

الحلقة الثالثة، المنشورة يوم السبت 1426/9/12هـ، قلت بإيجاز حقيقة ما كتبت، وأكدت أنني لم أطلع على أطروحة فايزة في الموضوع عينه، وأنني بعد المهاتفة، سعيت لشراء الكتاب من مكتبة الكنوز يوم الأربعاء 9 رمضان 1426هـ، واعتذرت بأدب، أنني لم أطلع على الكتاب، ولم يصلني هدية من صاحبته، وقدرت أن الموضوع قد انتهى عند العقلاء إلى هذا الحد.

غير أني فوجئت بمقالة منشورة في البلاد، يوم الأحد 1426/9/13هـ ، تقول صاحبته في عنوانه: «تعقيب على مقالات أبو مدين – «البرقوقي رسالتي والأمانة العلمية تقضي بالإشارة إلى ذلك.. ولست أدري عن أي أمانة تتحدث الفتاة؟ لأن الأمانة وهي ثقيلة وتعبها وأعباؤها، لا يعلم بها إلا الله.. الأمانة أيتها الفتاة ألا تتهمي ولا تظني ظن السوء فتكوني من القوم البور.. ومادمت لم تصدقي ما قلت، وإني لم أطلع على كتابك، فلم يبق إلا أن تقيمي قضية في المحكمة الشرعية، وأحضر أمام القاضي لأحلف أني لم أر كتابك إلا يوم الأربعاء التاسع من رمضان 1426هـ.. وإذا كنت لم تقتنعي بالحلف، وليس عندك بيّنة، فكلامك يصبح هراء، لا قيمة له.. ودليلي أن فايزة لم تقتنع بما قلت،

حين رأيتها تماري مراءً غير ظاهر، وتفتي وتدين كويتب غلبان، لا يملك الشهادة الجامعية ولا الدرجات العلمية من الأطروحات، مع أن الرسائل على ظهر من يشيل، في الأسواق في كل مكان، وكثير من الشهادات التي يفاخر بها أصحابها لا تساوي قيمة المداد الذي كتبت به، ودعنا من الجهد والعناء والسفر والبحث.. والألقاب العلمية ليست مقياساً للتفوق في المراتب والدرجات.. وطالبتنا ربما جهلت أن رفوف المكتبات ما أكثر ما أنست بالكثير من الأطروحات التي باهى بها أصحابها مثلك، لكن الآخرين لم يأمروا الناس بأن لا يشاركوهم في درس أدبي كما ادعيت أنت، سواء على مستواهم أو دونهم! فمالي أراك تتجاوزين حدك من المشروع إلى غير المشروع؟ واضطر بأن أصف حالك بأنه غرور وكبرياء، فعودي إن شئت!

لنفرض «جدلاً»، ومجال الجدل والخصام عريض عند المناطقة، لنفرض، أنني اطلعت على كتابها ، وكتبت ما كتبت، ولم أشرف بالإشارة إلى أطروحتها، فهل أنا مطالب بأي سبيل، أن أقول إنه صدر لفلانة رسالة ماجستير تعني بكذا!؟ أنا لست

نشرة أخبار، ولست صحافياً قشقاشاً يجري وراء الخبر، لأنه عمله ووظيفته!

إني أتحدى فايزة الحربي، أن تثبت لي وللقارئ سطراً واحدا أخذته من كتابها - رسالة ماجستير - أو غيره.. أما المعرفة فهي ملك مشاع للقادرين وحتى لغير القادرين من التلاميذ والمقلدين، فهل نراك شببت على الطوق فتتكلمين مخطئة ومغالطة في أمر ليس فيه شيء من حق!؟

أقول أنت وشأنك، إذا لم تصدقي في أنني كتبت بحثي عن البرقوقي وبيانه، واقتنيت منذ عامين بعض أعداد مجلته، وأملك ديوان المتنبي الذي حققه البرقوقي قبل أن تلدك أمك.. أعلم كل ذلك عن الرجل، دون حاجة لاطلاعي على كتابك، وقبل أن أراه.. وطلاب المعرفة إذا ركبهم الغرور فإنهم قد انتهوا، وعليهم إذا أرادوا أن يثبتوا وجوهم، ألا يتعالوا ويدّعو المعرفة وكأنها وقف عليهم.. وأعيذك من داء الكبرياء، فالكبرياء لله وحده.. وحين أقول لك إنني لم أر كتابك قبل شرائه، وأجدك لا تصدقين ما أقول، فهل ذلك يضيرك في شيء، إلا إذا كنت واحدة زمانك، وقد تمثلت قول أبي العلاء المعري:

أنا وإن كنت الأخير زمانه … لآت بما لم تستطعه الأوائل

وشيخ المعرة اعترضه فتى ذكي مثلك، فقال له: إن العرب قد جعلت الحروف الهجائية «29» حرفاً، فهات حرفاً إضافة يحتاج إليه، فصمت أبو العلاء وقال: هذا الفتى سيقتله ذكاؤه، وأنا أرجو ألا يجني عليك ذكاؤك!

لقد قلت لي عبر الهاتف، إنه لم يكتب غيرك عن البرقوقي ومجلة البيان، وقلت لك في آخر الحلقة (3) من حديثي عنهما، إنه كتب وألف، وأنت لم تطلعي ولم تنشر أطروحات أولئك، وذكرت لك أن رسالة ماجستير نوقشت في كلية اللغة العربية بالمنصورة، عن البرقوقي وبيانه منذ سبع عشرة سنة، أي منذ أن كنت أنت في المرحلة الابتدائية من التعليم.. غير أنك تجاهلت حين رددت عليَّ يوم الأحد 13 رمضان 1426هـ في البلاد، وطالب العلم الذي يحترم نفسه لا يدعي العصمة، ويزعم أنه «ابن جلا وطلاّع الثنايا» ومعروف حين يضع عمامته.. والوضع أيها الأستاذة النجيبة له أكثر من معنى، هل الوضع على الرأس أم على الأرض؟

إذاً أنت يا صغيرتي في حاجة إلى المزيد من المعرفة لكن إذا كنت تملكين عدتها، وإذا استندت على الادعاء، فإنك لن تكوني، ولن يرقى بك ما يتراءى لك من الوهم، بأنك أنت المجلية التي لا يشق لها غبار.. فرفقاً بنفسك، لأن الدرب أمامك طويل شاق وشائك، والادعاء يدفع إلى العثار والزلق، والشاعر القديم قال:

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها   فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

أنت في حاجة إلى المطالعة والدرس مع التواضع لتكوني، وإلا فإنك لن تكوني إذا كان عمادك الادعاء وعدم تصديق الناس وهم أمناء على ضمائرهم وأماناتهم، وقد لعن القرآن الكريم الكاذبين.. والادعاء بالباطل سماه الكتاب العزيز زهوق، إني أعيذك من داء الغرور، ذلك أنه قاتل، وأنت أمامك درب أزعم أنه طويل وعسير، غير أن الطامحين الصادقين قادرون بحول الله وقوته أن يصلوا إلى ما يطمحون إليه من العلم، إذا صدقوا في توجههم، والإرادة تردد قول الحق: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾.. وينبغي أن تدركي أن المعاني

مطروحة على الطريق أمام الغادي والرائح، كما قال الجاحظ، فليست ملكا لك وحدك، وحين تزعمين ذلك، فإنك تسيرين في درب الغرور، والله قد أعطى كل ما خلق نصيبه، والإنسان كما يقول الحديث النبوي ميسر لما خلق له.. وإذا كان أساتذتك في مرحلة البكالوريوس والماجستير لم يعلموك إياها، فاجنحي إلى ذلك التراث الغني بالكنوز، لتتزودي منه بما تستطيعين، إذا كنت قادرة، وإذا كنت طموحة، لتقفي على زاد ثري، وإذا أمعنت النظر بتجرد ورغبة الآمل والباحث، فسوف تنالين منه ما يهذب ويؤدب، ويبين لك طريق المعرفة الحقة، وليست القشور التي تذهب جفاء!

وإنني خلال استماعي لاحتجاجك الحاد عبر الهاتف، وما أفرزت خربشتك في البلاد، أدركت أنك لست النمط الذي يجدي معه التحاور الفكري، لأن بني الأيام أخياف، كما قال الشاعر ابن زيدون.. وأنا واثق أن الأيام سوف تهذب حجاجك، والعرب قالت: «نعم المؤدب الدهر »، وأدركت من مصاحبتي للحياة، أن الثقافة لا تبني خلقاً، ولكن المفيد منها يمحو الجهل، والجهل أنماط، منه ما ينزاح، ومنه ما هو باق حسب استعداد النفوس، وأنا أعذرك، لأنك جهلت مقالتي فعذلتني ، وعلمت أنك جاهلة فعذرتك.

أنت في حاجة إلى العودة إلى فصول الدراسة، لتتعلمي منها أدب الحوار وأدب الدرس وتأثيره العالي، وأنك مازلت في أول الدرب الأدبي العلمي، والطريق طويل أمام السارين والسائرين، الذين لهم طموح نحو الدرس والتهذيب والقدرة والقدوة الحسنة، إن أدب الحوار درس مهم، يحتاجه كثيرون وأنت منهم، وفي الجامعات من الجنسين من يحسن تقديم درس في أدب النفس قبل أدب الدرس، لكن التقبل والاعتراض وجهان لا يتقابلان ولا يلتقيان.. ويمكنك أن تتعلمي من دروس الأيام، ففيها حكم وعبر لمن يعتبر، وتحرز في أدب الخطاب، وخطاب الأدب.. وأكبر الظن أنك في حاجة إلى شيء من هذا وذاك.. وأخيراً، وليس آخراً.. كنت أود وما تغني الودادة، أن يكون عندك من التعليم رهانته الخلقية في مواجهة الحقائق، غير إن جنوح النفس إلى المغالطة والمكابرة يدفعها إلى البعد عن الحوار المفيد إلى ما سواه، بعيداً عن إقناع أصحاب النظر المحايد..

* * *

العماد الأصفهاني(*)!

إنه مؤلف كتاب: «خريدة القصر وجريدة أهل العصر»، وهي موسوعة أدبية جامعة، ترجمت لشعراء وكتاب البلاد الإسلامية في العراق، وبلاد العجم، والشام، والحجاز، واليمن، والأحساء، والقطيف، ومصر، وشمال أفريقية، والأندلس، وجزيرة صقلية، وغيرها، والعماد الأصفهاني كان معاصرا للحملة الصليبية على الشرق. إن هذه الموسوعة تعددت الفنون الأدبية فيها، فهي تشبه الحديقة الغنّاء، كما تعددت أجزاؤها، لذلك تعدد محققوها في الوطن العربي، حيث شرع بعض الباحثين في البلاد التي تناولت الموسوعة دراسة الأدب فيها شعراً ونثراً، حتى بلغ من تصدى لأجزائها نحو اثني عشر محققاً، ومازال كما قيل قسم بلاد العجم مخطوطاً لم يتم إخراجه، وقد صدر

(*) نشرت بتواريخ 17 من جمادى الأولى 1425هـ 5 يوليو 2004م، 17 من جمادى الأولى 1425هـ، 5 يوليو 2004م، صحيفة الجزيرة، العدد 11603.

ما تم تحقيقه منذ ثلاثين سنة في أقطار شتى، وأصبح من العسير الحصول على كل ما طبع كاملاً.

إن اسم ونسب العماد الأصفهاني هو: أبو عبدالله عماد الدين محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبدالله بن علي بن محمود هبة الله ابن أله، المعروف بالعماد الكاتب الأصفهاني.. وقد لقب الرجل بعدة ألقاب كعماد الدين الكاتب، أو العماد الكاتب، وأضيفت إليه ألقاب أخرى، مثل: الوزير العلاّمة، والإمام العالم، وينسب العماد إلى بيت فارس، كانت له السيادة والعزة في أصفهان.

جاء في رواية عن العماد، أنه ولد في أصفهان، يوم الاثنين الثاني من جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة هجرية، كما جاء في الجامع المختصر لابن السالمي (62/9). وفي البلد الذي ولد فيه تلقى تعليمه، فدرس القرآن الكريم والحديث الشريف وعلوم العربية، وفي سنة – 532 – هـ، سافر والده مع السلطان داود السلجوقي إلى الريّ فأخذه معه مع أخيه إلى.. قاشان ليلتحقا بالمدرسة المجدية، وبعد أن أقاما فيها سنة عادا

إلى أصفهان، وانتقل منها سنة – 534 – هـ إلى بغداد، فالتحق بالمدرسة التقنية على شط دجلة فمكث فيها ثلاث سنين، ثم التحق بعدها بالنظامية، وتزوّد من علومها على أيدى علمائها، فاتقن فنون الأدب، وبرز في الإنشاء ونظم الشعر، وأجازه بعض العلماء، منهم أبو منصور الرزاز وابن الحصين والفراوي والجواليقي، وسمع من ابن خيرون وعلي بن الصباغ.

ولما اتقن نظم الشعر والأدب، أخذ يتصل بالشعراء والأدباء كسيد الدولة الأنباري الشاعر والناثر وابن أفلح، وشرع يطلب العلم في بغداد ثماني سنوات إلى قرب نهاية عام 542هـ، ثم توجه إلى الموصل ومدح وزيرها ثم عاد إلى أصفهان فأخذ يطلب المزيد من العلم ، وفي سنة «548»هـ، صحب شيخه جمال الدين الخجندي إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وبعد الفراغ من ذلك ساح في البلاد، ثم عاد إلى بغداد واتخذها موطناً.

في سنة – 552 – هـ، اختاره الوزير عون الدين بن هبيرة ليكون نائبه في – واسط–، وفي سنة – 555 – هـ، نقله إلى البصرة ثم أعاده إلى واسط، وبقي فيها إلى سنة – 560 – هـ، وفي هذه السنة توفى ابن هبيرة، فاستبد الخليفة بأسر ابن هبيرة

وأعوانه واعتقل العماد مع من اعتقل من أبناء الوزير وزج بهم في السجن، وأخذ العماد يبعث إلى الخليفة – المستنجد – مستعطفاً في إطلاق سراحه، ويوم تحقق له ذلك، ووجد نفسه بلا عمل ولا معين.!

رحل العماد عن بغداد إلى الشام سنة – 562 – هـ، وفيها نور الدين محمود بن زنكي، وكذلك زميله في الدراسة كمال الدين بن الشهرزوري، فساعده على الالتحاق بديوان نور الدين، فعمل فيه وأصبح بارزا يرافق نور الدين في ترحاله، واتصل يومئذ بنجم الدين أيوب وولده صلاح الدين، وقام بالكثير من الأعمال التي وكلها إليه نور الدين، ومنها سفارته إلى دار الخلافة في بغداد سنة – 566 – هـ، وزادت ثقة نور الدين في العماد، فاختاره للتدريس في المدرسة العمادية، ثم جعله ناظرا لها سنة – 567 – هـ ثم أضاف إليه الإشراف على الديوان، وأصبح موضع تقدير نور الدين والرجل الأول في دولته.

استمر العماد رفيقاً لنور الدين في جهاده وحربه، وبقى مخلصاً له حتى توفي نور الدين سنة – 569 – هـ، فرثاه وبكاه بقصيدة، عدد فيها ميزات نور الدين، منها قوله:

الدين في ظلم لغيبة نوره والدهر في غمم لفقد أميره
فليندب الإسلام حامي أهله والشام حافظ ملكه وثغوره

ثم رحل العماد إلى الموصل، ثم عاد إلى الشام بعد أن علم بقدوم صلاح الدين إليها من مصر، طمعاً في أن يلتحق بديوان صلاح الدين لأنه كان يعرفه ووالده وعمه شيركوه ، لكن حلمه لم يتحقق، غير أنه سعى إلى القاضي الفاضل، فتوسط له لدى السلطان، وأصبح ينوب عن الفاضل في الكتابة خلال غيابه في مصر، ومضى العماد في جوار السلطان خلال حروبه ضد الصليبيين في الشام ومصر، ومدحه بقصائد أبرز فيها معاركه وانتصاراته، وصحبه في رحلته إلى مصر سنة – 582 – هـ، وكان العماد بجوار السلطان في معركة – حطّين – المظفرة، وجلس إلى جواره في خيمته وأمامه ملوك الصليبين في الأصفاد، ورآه وهو يبّر بقسمه فيقتل أمير الكرك الصليبي الذي اعتدى على الحجاج المسلمين وهم في طريقهم إلى الحجاز، وسجل ذلك في كتابيه: الفتح القسي والبرق الشامي، وحضر معه معاركه وفتوحاته في «عكا» والناصرة والصفورية وقيسارية ونابلس والفولة وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغزة ، وكثير من

الحصون والقلاع، ولكنه لم يشارك في فتح بيت المقدس سنة – 583 – هـ لمرض ألم به اضطره إلى العودة إلى دمشق، غير أنه سرعان ما التحق بركب السلطان بعد الفتح مباشرة، وكتب رسائل البشرى والنصر بقلمه، وحضر معه مفاوضات الهدنة بينه وبين ريتشارد قلب الأسد، وكتب كتاب الهدنة بتعبيره، في يوم الثلاثاء – 588/8/11هـ.

وبوفاة السلطان سنة 589هـ، تراجعت مكانة العماد، عند ابنه الأفضل علي، الذي تولى دمشق، وأخذ يكتب ويؤلف حتى توفي بعد مرض أصابه في يوم الاثنين أول أيام رمضان 597هـ، وقد رثاه لفيف من الشعراء، منهم ابن الساعاتي.

ومن أهم مؤلفات العماد: تعريب كتاب كيمياء السعادة: تأليف أبي حامد الغزالي، وكتاب نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، والبرق الشامي والفتح القسي، وعتبي الرمان في عقبي الحدثان، ونحلة الرحلة وحلبة العطلة، وخطفة البارق وعطفة الشارق ، وأهم كتبه في التراجم والتاريخ الأدبي: خريدة القصر وجريدة أهل العصر، وأتبعها بكتابه: ذيل الخريدة وسيل الجريدة أو السيل على الذيل، وله في الأدب كتب

أربعة هي: كتاب رسائله وديوان شعره وديوان دوبيت، وكتاب جمع فيه القصائد التي قيلت في مديح عمه العزيز، وكلها مفقودة، غير أن كتب الأدب والتاريخ حفظت الكثير من رسائله وقصائده ورباعياته.!

* * *

مصاحبة شاعر!

في مجال التعريف بالأمجاد، اخترنا أن تكون لنا «مصاحبة شاعر»، في الغابر والحاضر، هي بمثابة دراسة، تكون للقارئ وعياً وتعريفاً، وللنابه تذكيراً وتبصيراً.

والشعراء كثيرون عبر السنين، ومنهم من قتلهم البحث، كابن الرومي والمتنبي وبشار وأبي العتاهية.

واخترت في هذا الحديث وما قد يتلوه، أمثال المسيب بن علس، وأوس بن حجر، وبشر بن أبي خازم، وسلامة بن جندل، والمزرّد والشماخ.. وأضرابهم ممن لم تنلهم الدراسات الوافية.. بأقلام كتاب هذا العصر، فهم شبه مغمورين، وإن كانوا في دواوين الأدب مشهورين.

وهذه الحلقة عن شاعر يدعى الحسين بن الضحّاك، تناثر

شعره في طيات الكتب، فلا أحد يدري من شباب اليوم، من هو ابن الضحاك؟ ولذلك أردت أن أقوم بتعريفه.. وتقديم نماذج من شعره، في «مصاحبة شاعر».

هذا الشاعر ذكره أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني، وذكره الخطيب في تاريخ بغداد، وابن الصماد في شذرات الذهب، وابن المعتز في طبقات الشعراء، وياقوت في معجم الشعراء

وله ترجمة في عيون التواريخ، ومسالك الأبصار، ووفيات الأعيان لابن خلكان.

وهو أبو علي الحسين بن الضحاك، ابن ياسر الخليع الأشقر، باهلي بالولاء.. في قبيلة باهلة، وقيل: بالنسب، ويعد من شعراء الدولة العباسية، وكانت ولادته بالبصرة، وبها نشأ، ثم ارتحل.. إلى بغداد وأقام بها، وكانت تلك الإقامة.. في الأعوام الأخيرة من عهد هارون الرشيد.. المتوفى (193هـ).

فقنع ابن الضحاك هذا بمصاحبة صالح ابن هارون الرشيد، ثم ارتقى إلى منادمة أخيه الأمين، فلما تولى الأمين

الخلافة، كان من جلسائه.. والمقربين إليه، فأجزل عطاياه، وأسنى جوائزه.

وتروي كتب التاريخ، أن الحسن بن الضحاك.. تصرف تصرفاً غير كريم في مجلس الأمين، فأمر بجره من بين يده، وصرفه من عنده، وجاءه الناس يسألونه ما القصة، فقال لهم: أسأت أدبي ولم أسمع كلام الأمين، فعاقبني بمنع الوصول إليه. ثم رضي عنّي، وأمر بإحضاري، فحضرت وأنا خائف، فلما وصلت.. ضحك لي، وقال: لقد اختار الله لك بخلافي في السابق، وجرى القدر بما تحب، فوصلني بعشرة آلاف دينار، فدعوت له وشكرته، وحمدت الله على توفيقه، وقد حمل معي المال، فما كان يمضي أسبوع.. إلا والصلات والألطاف متبوعة.. من الجواهر والثياب والمال، فما جالسته بعد ذلك إلا وصلني، فكل شيء أنفقه.. فمن ذلك المال، وما ادخرت به من الصلات.

ثم لما قتل الأمين.. أكثر الحسين بن الضحاك من رثائه عليه والبكاء، وبالغ في ذلك، وشعره شاهد بهذا، حتى صار المأمون يحرمه من عطفه، بسبب ذلك زمناً غير قصير، ومازال يوسط لديه الكبراء.. حتى رضي عنه ووصله، وإن كان ذلك على

بعد الديار ومنع الاتصال، وما كان الرضا إلا بعد ستة أعوام من خلافته.. على أقل تقدير.!

واتصلت أسباب ابن الضحاك بالخليفة المعتصم وبنيه، فكان ينادمهم، ويجالس الأمراء، وتوالت عليه المنح والعطايا.. أيام الواثق وأخيه المتوكل، ثم المنتصر بن المتوكل.

وآخر شعر قاله.. كان في خلافة المنتصر بن المتوكل، المتوفى سنة (248هـ).

وتوقفت ملكته الشعرية لبلوغه من الكبر عتياً، فلم يذكر له شيء، في خلافة المستعين.

ولعل أيامه الباقية.. بعد المنتصر كانت ضعفاً وهزالاً، حتى توفى شاعرنا سنة (250هـ).. في خلافة المستعين.

ولقد نبغ في أيام حظوته الثانية بعد المأمون، شعراء أكثروا من مدائح الخلفاء والعظماء، كأبي تمام وعلي بن الجهم والبحتري.

قال عبدالستار أحمد فراج: ويبدو أن الحسين بن الضحاك أغناه عطايا الخلفاء وولاة العهد والأمراء.. عن استجداء من هم

أقل من ذلك شأناً، بل لعل ملازمته الخلفاء والأمراء صرفته عن أن ينظر إلى من هم دونهم مقاماً، وقد يكون له من عزة النفس ما يجعله يشعر أنه في مستوى أولئك الممدوحين، وليس هناك ما يدعوه.. إلى أن يطامن من كبريائه، مادام الله قد وهب له الحظوة عند أمراء المؤمنين».

ويحسن بنا في هذا الاستعراض.. أن نذكر أقوال العلماء والأدباء، في هذا الشاعر الذي نصاحبه.

قال له أبو نواس: أنت أشعر أهل زمانك.. في الغزل، وقال ابن مناذر الشاعر.. حين سمع قصيدته التي مطلعها:

بدلت من نفحات الورد بالآء ومن صبوحك درّ الإبل والشاء

حتى انتهى إلى قوله:

فضت خواتمها في نعت واصفها عن مثل رقرقة في عين مرهاء

فقال له ابن مناذر: حسبك قد استغنيت عن أن تزيد شيئاً، والله لو لم تقل في دهرك كله غير هذا البيت لفضلتك على سائر الواصفين من الشعراء.

وقال المبرد صاحب الكامل في الأدب: إنه أشعر المحدثين، حيث يقول:

أي ديباجة حسن   هيّجت لوعة حزني

وقال ثعلب النحوي.. حين سمع قوله:

لا وحبّيك لا أصا   فح بالدمـع مدمعا

إنه ما بقي من يقول مثل هذا.

وقال الرياشي، وكان ينشد شعره ويستحسنه، إنه أرق الناس طبعاً، وأكثرهم ملحاً؛ وأكملهم ظرفاً.

وفي كتاب أشعار أولاد الخلفاء: قال الصولي: سمعت بعض العلماء بالشعر يقول: أول الشعراء المتقدمين في الصنعة الأعشى، ثم الأخطل، ثم أبو نواس، ثم الحسين بن الضحاك، ثم عبدالله بن المعتز.

وفي كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز.. أن الحسين بن الضحاك له أشعار حجة، وهو أحد المغنين بالشعر، جيد المديح،

جيد الغزل، جيد الهجر، كثير المجون، صاحب جد وهزل، وهو عندهم في بحار أبي نواس، بل هو أنقى شعراً، وأقل تخليطاً منه.

وصاحبنا الشاعر.. يقول عنه صاحب الأغاني في ترجمته:

«شاعر أديب ظريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر، حلو المذهب، لشعره قبول ورونق صاف». وفي الأغاني كذلك: أن للحسن بن الضحاك مدائح.. في محمد الأمين كثيرة جياد، وكان كثير التعلق به.. والموالاة له، لكثرة أفضاله عليه وميله إليه وتقديمه إياه، وبلغ من حزنه عليه أنه خولط لما بلغه قتله.

وفي طبقات ابن المعتز، قال محمد بن عياد، قال لي المأمون وقد قدمت من البصرة: كيف ظريف شعرائكم وأظرف ظرفائكم، يعني الحسين بن الضحاك؟ قال ثم قال لي المأمون: ما قال فيَّ أحد من شعراء زماننا ما قاله فيَّ ابن الضحاك، فاكتب إليه.. فاستقدمه، وكان شاعرنا الحسين بن الضحاك عليلاً، وكان يخاف بوادر المأمون لما فرط منه، فقلت للمأمون: إنه عليل يا أمير المؤمنين، علته تمنعه من الحركة والسفر، قال: فخذ كتابي إلى

عامل خراجكم بالبصرة حتى يعطيه ثلاثين ألف درهم، فأخذت الكتاب بذلك، وأنفذته إليه.. فقبض المال».

ومما يرويه أبو الفرج في الأغاني.. أنه قال: دخلت على الواثق ذات يوم وفي السماء لطخ غيم، فقال لي ما الرأي عندك في هذا اليوم؟ فقلت: ما حكم به أمير المؤمنين وأشار، وأشار قبلي أحمد بن يوسف.. إذ قال:

ارى غيماً تؤلفه جنوب   واحسبه سيأتينا بهطل
فعين الراي ان تدعو باكل   فتاكله وتدعو لي باكل

فقال: أصبتما، فدعا بطعام والجلساء.

وفي كتاب الأغاني: تلاحى مخارق وشاعرنا الحسين بن الضحاك في أبي العتاهية وأبي نواس، أيهما أشعر؟ فاتفقا على اختيار شعر من شعريهما.. يتخايران فيه، فاختار ابن الضحاك شيئاً من شعر ابن هانئ جيداً قوياً، لمعرفته بذلك، واختار مخارق شيئاً من شعر أبي العتاهية ضعيفاً سخيفاً، استملحه لعلة علمه، ولما كان بينه وبين أبي العتاهية من المودة، وتخاطرا على مال،

وتحاكما إلى ما يرتضيه الواثق بالله لذلك، أبا محلّم الشاعر، وبعث فأحضره، فتحاكما إليه بالشعرين، فحكم لابن الضحاك، فتلكأ مخارق، وقال: لم أحسن اختيار الشعر، وابن الضحاك أعلم مني، واختيار الحسين أجود مني.

فلما وقع الاختيار على أن أبا نواس أشعر وأذهب في فنون الشعر، وأكثر استحساناً في جميع تصرفه، أمر الواثق بدفع الخطر إلى الحسين، وانكسر مخارق الشاعر، فما انتفع بالواثق بقية حياته.

وفي نهاية الأرب للنويري ما نصه:

قال الحسن بن الضحاك: كنت مع أبي نواس بمكة عام حج، فسمع صبياً يقرأ: **﴿يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه وإذا اظلم عليهم قاموا﴾**، فقال ابن هانئ.. بعد أن فكر ساعة:

وسيارة ضلت عن القصد بعد ما

تراد فهم افق من الليل مظلم

فاصغوا إلى صوت ونحن عصابة
وفينا فتى من نشوه يترنم
فلاحت لهم منا على النأي لمحة
كأن سناها ضوء نار تضرّم

فقال ابن الضحاك: ما سوق هذا المعنى من القرآن، ولكن من قول القائل:

وليل بهيم كلما قلت غورت
كواكبه عادت لنا تتزيّل
به الركب إمّا أومض البرق يمموا
وإن لم يلح، فالقوم بالسير جُهّل

قال عبدالستار أحمد فراج: على الرغم من شهرة الحسين ابن الضحاك.. وعلو منزلته وإبداعه في شعره.. لا يوجد له ديوان مجموع، وقد يكون منزوياً في بعض المكتبات الخاصة، شأنه في ذلك شأن بعض كتب المشهورين، اختفت دواوينهم.. كصالح بن عبدالقدوس، وسالم الخاسر، وعلي بن جبلة، ودعبل الخزاعي، ممن سبقوه أو عاصروه!».

وفي فهرست ابن النديم: أن شعر ابن الضحاك كان في مائة وخمسين ورقة. وهذا مما يقطع أن ديوانه كان مجموعاً.. ثم فقد.

* * *

وفي كثير من كتب الأدب.. إشارات إلى قصائد للحسين ابن الضحاك، تدل على أن شعره.. كان متداولاً بين الناس.

ويضاف إلى ذلك.. أن كثيراً من الشعر دُوِّن دون عزوه إلى القائلين، وكثيراً منه نسب إلى غير أصحابه. ولعل صاحبنا هذا كان من شعره ما هذا سبيله.!

وفي الأغاني لأبي الفرج، أن أبا نواس.. كان يأخذ معاني الحسين بن الضحاك، فيُغير عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبه الناس إلى أبي نواس، وله معان في الصفات.. أبدع فيها، وسبق إليها، فاستعارها أبو نواس.

ويقول الصولي: وليس يرون شعراً لأحد في المجون، إلا نحلوه أبا نواس، وكذا يفعلون في الصفات.

وقال صاحب لسان العرب.. في كتاب أخبار أبي نواس: كان أبو بحرين الهداهد شاعراً مجيداً، وكان لا يكاد يقول شيئاً إلا نسب لأبي نواس، وكذلك الحسين بن الضحاك، وقد غلب الكثير من شعرهما.

وقال ابن المعتز في طبقات الشعراء، وهو يذكر شعراً في المجون لوالبة بن الحباب، ثم يعقب عليه قائلاً: وهذا الشعر مما ينحله العامة أبا نواس وذلك غلط، لأن العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسب كل شعر في المجون إلى أبي نواس!

وفي موضع آخر يذكر شعر الحسين بن الضحاك، ويعقب عليه بقوله: وقد نسبت العوام هذا إلى أبي نواس، وذلك منحول، إنما هو للحسين بن الضحاك.

إن أبا نواس بعد أن عارض شعراً للحسين بن الضحاك وأخذ معانيه.. غضب الحسين وسبّه، فقال له أبو نواس: دع هذا عنك، فوالله لا قلت في الصفات شيئاً أبداً.. وأنا حيي إلا نسب إليَّ. وقد وقع ذلك فعلاً، فابن المعتز مع سابق قوله في طبقات الشعراء، نسب لأبي نواس شعراً هو للحسين بن الضحاك، وذلك

في كتاب «فصول التماثيل»، وهو لطيف الحجم مطبوع. مع أن الذي نسبه لأبي نواس لا يوجد في نسخ ديوانه المختلفة.

وفي كتاب «مصارع العشاق»، نسب لأعرابي شعر هو للحسين بن الضحاك.

ويذكر التاريخ.. أن وفاة الحسين بن الضحاك كانت في خلافة المستعين، سنة (250هـ)، وقيل سة «251هـ)، ولم تعرف السنة التي ولد فيها.

وفي الكامل لابن الأثير وعقد الجمان، وتاريخ بغداد، أنه ولد سنة «166هـ»، وأبو الفرج الأصفهاني يقول إنه عمّر عمراً طويلاً حتى قارب المائة.. ومعنى ذلك أنه ولد بين (150 و155هـ). ويؤيد ذلك ما روي في الأغاني، أن الحسين قال: لا أذكر السنة التي ولدت فيها، ولكني أذكر موت شعبة بن الحجاج سنة «160هـ»، ومعنى هذا.. أنه ولد قبله بنحو عشر سنين أو خمس سنين على أقل تقدير.

وفي الأغاني.. قال الحسين: كنت أنا وأبا نواس تربين،

نشأنا في مكان واحد، وتأدبنا بالبصرة، وكنا نحضر مجالس الأدباء متصاحبين، ثم خرج قبلي عن البصرة وأقام مدة.. واتصل بي ما آل إليه أمره، وبلغني إيثار السلطان وخاصته له، فخرجت عن البصرة إلى بغداد، ولقيت الناس ومدحتهم، وأخذت جوائزهم، وغدوت في الشعراء، وهذا كله في أيام الرشيد، إلا أني لم أصل إليه، واتصلت بابنه صالح، فكنت في خدمته، فغنى يوماً بهذا الصوت:

الآن زمَّ الجمال وفارق جيرة
وصاح غراب البين أنت حزين

فقال لي صالح: قل أنت في هذا المعنى شيئاً، فقلت:

الآن دبَّ حسَّاد وملَّ حبيب
وأورق عود الهجر أنت جنيب

إلى آخر القصيدة، فأمر بأن تغنى.. واتصلت بمحمد بن زبيدة في أيام أبيه وخدمته، ثم اتصلت خدمتي له في أيام خلافته.

والمأخوذ من مختلف الأقوال في سنه أنه عاش مائة وخمس أعوام، أو مائة وخمسة عشر عاماً.

وقد اعتذر من عدم خدمته المتوكل بكبر سنه، وهو يقول:

أما في الثمانين وفيتها عذير وإن أنا لم أعتذر
فكيف وقد جزته صاعداً مع الصاعدين بتسع آخر

ولعله ولد حوالي سنة «150هـ»، لأنه أراد أن يعفيه المتوكل من خدمته، وكان المتوكل في ثلاثين عاماً، وكان عذر الحسين أن عمره (86) عاماً، فقال:

أسلفت أسلافك فيما مضى من خدمتي إحدى وستينا
كنت ابن عشرين وخمس فقد وفيت بضعاً وثمانينا
إني المعروف بضعف القوى وإن تجلدت أحايينا
وإن تحملت على كبرتي خدمة أبناء الثلاثينا

ونستبيح لأنفسنا أن نقتطف بعض ما كتبه الدكتور العميد طه حسين في حديث الأربعاء، فهو خير ما يقدم للقارئ العربي عن هذا الشاعر قال الدكتور طه حسين: «شاعر ظريف.. شديد

الظرف، ربما انقطع نظيره في شعراء العصر العباسي كله، وهو مع ظرفه وإسرافه في المجون، قليل الفحش في اللفظ، غير متهالك على القول الآثم، والألفاظ المنكرة، ويتخيرها.. ولا يقصد إليها، وإنما يعرض لها إذا اضطر إليها اضطراراً.. وهو على ظرفه ورقة حاشيته وحرصه على نقاء اللفظ وطهره، شاعر بالمعنى الصحيح.. لهذه الكلمة، مجوّد إذا فكّر، مظفّر إذا بحث، موفّق إلى اللفظ المتين، والأسلوب الرصين، في غير جفوة.. ولا غلظة، لا يعرف التكلف في لفظ ولا معنى، وإنما ينطلق لسانه على سجيته، وسجيته سهلة، وسالمة غنية غزيرة المادة لا تكاد تنضب، ولا ينالها إعياء ولا كلال».

«كان خليعاً، بل كان يعرف بالخليع، وكان كثير المجون، مسرفاً فيه، وما أحسب أبا نواس سبقه إلى لذة أو بزّه في مأثم، ولكنه على خلاعته وإسرافه في المجون، وتهالكه على اللذات، احتفظ طول حياته بشيء من كرم الخلق، وطهارة العنصر، وجودة الأصل، كأنما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأخلاقه انزلاقاً، دون أن تترك فيها أثراً باقياً، وإنما الآثار التي

تتركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعبث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة».

«وكان الخفاء يبحثون عنه، ويحرصون على عشرته، ويبذلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والعطاء».

«شبهوه بأبي نواس، أو قل خلطوا بينه وبين أبي نواس، وأسرفوا في هذا الخلط أحياناً، حتى رووا لكل منهما شعر صاحبه.. وفي الحق أنك تجد في ديوان أبي نواس شعراً هو أشبه بالحسين، وتجد في أخبار الحسين شعراً هو أشبه بأبي نواس.. ولم يكن للقدماء من الدقة وقوة البحث، بحيث يصلون إلى التفرقة بين هذين الرجلين اللذين اشتد بينهما التشابه، حتى أصبحت التفرقة بينهما عسيرة على أشد الناس مهارة في النقد، وتعمقاً في البحث الأدبي. وكان الحسين نفسه يعلم أنه يشبه أبا نواس، وكان أبو نواس يعلم أنه يشبه الحسين. وكانت بينهما مودة، ولكن كان بينهما تنافس شديد، تنافس شديد أدبي، لم ينته بهما إلى شر فيما نعلم».

«ولم يكن الحسين فيلسوفاً، وإنما كان يلهو ويعبث في غير

فلسفة ومذهب.. أما أبو نواس، فلم يكن يخلو من فلسفة، وأن فلسفته كانت تقوم على ازدراء الناس والسخر منهم، والعبث بهم، وبما يتصل بحياتهم من أصول، ومن نظم وقواعد».

ولم يكن أبو نواس يستبيح العبث في الدين والأخلاق والحياة المادية وحدها، بل كان يستبيح العبث في الأدب والشعر أيضاً.. كان يؤثر نفسه بالخير في كل شيء، وكان يرى أنه شاعر مجيد.. وإذا كان شاعراً مجيداً فهو خليق أن يسبق الشعراء جميعاً إلى آيات الشعر في المجون والصفات، وكان يسبقهم جميعاً إلا الحسين بن الضحاك، فقد كانت للحسين في الصفة مهارة وألفاظ جياد، يتمنى أبو نواس لو ظفر بها، وسبق إليها، ولكن الحسين كان هو الظافر السابق، وكان ينشدها أبو نواس وغير أبي نواس، فكان أبو نواس إذا سمع شيئاً من هذا استحسنه، حسد الحسين عليه، وزعم أنه أحق بهذا الشعر من الحسين، وأن هذا الشعر لم يخلق إلا ليقوله هو، ثم ينصرف عن الحسين ويعود إليه، وقد أخذ معناه وصاغه في لفظ له، فإذا أظهر الحسين غضباً، ضحك أبو نواس وقال: دع عنك هذا فوالله لا يروى لك شيء في الصفات وأنا حيٌّ». وربما أراح أبو نواس

نفسه من عناء النقل والسرقة، فزعم القصيدة برمتها لنفسه، وصدّقه الناس، وتناقلوا القصيدة على أنها له».

«تحدث الرواة عن هذا بالشيء الكثير، وهو يمثل لنا ما كان للحسين وأبي نواس، من لين الخلق، وما كان يجمع بينهما من حسن العشرة، ومن الإخاء في الأدب واللهو، ولكنه يمثل لنا هذا التشابه الذي كان بين طبيعة الرجلين وشعرهما، فقد كان الرجلان مسرفين في المجون، متهالكين على الصفات، مشغوفين بها، وذكر آلات الطرب.. وكان مذهبهما في ذلك واحداً هو الوليد ابن يزيد؟ ثم ألم يتأثروا جميعاً بهذه الحياة البغدادية، وهذا اللهو البغدادي؟ ومع ذلك فالفرق بين الرجلين ظاهر لمن أراد أن يحقق، ظاهر في اللفظ، وظاهر في المعنى، وظاهر في الطبع أيضاً».

وقال الدكتور طه حسين كذلك في حديث الأربعاء: «كان أبو نواس ماجناً متهتكاً، يسخر من أصحاب اللغة، وهو لا يتجاوز حدود النحاة، ولا وجهة الصواب.. أما الحسين بن الضحاك، فكان طول حياته مستقلاً بالأمراء والخلفاء والوزراء والكتاب، مقصوراً عليهم، لا يكاد ينظم الشعر إلا لهم أو بمحضر منهم،

فكان بمعزل عما كان يضطر إليه أبو نواس، من التحدث إلى العامة ودهماء الناس.. وكان الحسين بحكم منزلته مضطراً إلى أن يصطنع هذه اللغة المختارة النقية، التي تصلح للارستقراطية، فقل الفحش جداً في شعره، وغلبت المتانة والرصانة على ألفاظه وأساليبه، وغلبت الجودة على معانيه».

«ثم لم يكن الحسين بن الضحاك يتخذ السخرية مذهباً، ولم يكن يعنيه أن يغيظ أئمة اللغة وأصحاب النحو، فكان في شعره هدوء واطمئنان، خلا منهما شعر أبي نواس، ولم يكن أقل من أبي نواس صدقاً ولا استرسالاً مع الطبيعة والسجية، لذلك لا تجد في شعره هذا الاحتشام المتكلّف، وله إلى ذلك ميزة، ربما لم يعظم منها حظ أبي نواس، وهي مفهومة جداً، لأنه كان يعاشر الأمراء.. وينشئ لهم، وقد أصبح شعره كله يتغنى فيه المغنون. ومن هنا أثر أو كاد القصار من بحور الشعر، ومن هنا اجتهد أن يضيف إليه أوزاناً موسيقية أخرى».

«وانظر إلى قوله:

قد غاب لا آب من يراقبنا وتام لا قام سامر الخدم

تجد جودة المعنى، وظهور حرص الشاعر على لذة هذا النغم الموسيقي الذي زاوج بين غاب وآب، وقام ونام. وهذا النحو الموسيقي كثير في شعر الحسين بن الضحاك».

وجملة القول في شخصية هذا الشاعر، أنه كان كأبي نواس، ولكنه أنقى منه لفظاً، وأعف منه لساناً، وأحرص منه على اختيار المتين من الكلام، ولم يكن يعدل أبا نواس في خفة الروح وحلاوة المجون، ولم يكن يبلغ أبا نواس في التهتك، ولم يكن أقل منه حرارة في العاطفة وصدقاً في اللهجة، ولكنه كان يمتاز عليه بالرجولة والوفاء، ولم يكن لأبي نواس في ذلك حظ عظيم. وكان أيضاً يمتاز عليه بسرعة التنقل فمن موضوع إلى موضوع إلى آخر تلك الاختلافات بين الرجلين.

ويجمل بنا عقب هذه الدراسة المقتضبة.. أن نقتطف من شعر الحسين بن الضحاك وقصائده أبياتاً تدل على سماته البارزة، وأسلوبه الرشيق، وطريقة نظمه، وتضمينه لألفاظ أبكار المعاني، والذي حفظ له التاريخ من شعره غيض من فيض، وأن أكثره ذهب أيدي الضياع.

ومن ذلك قوله في رثاء الأمين، من قصيدة ذكرها الشابشتي في كتاب الديارات، ص (22) وغيره:

يا خير أسرته وإن رغموا	إني عليك لَمُثبت أسفُ
الله يعلم أن لي كبداً	حرّى عليك ومقلةً تكِف
ولئن شجيت لما رزئت به	إني لأضمر فوق ما أصف
هلا بقيت لسد فاقتنا	أبداً، وكان لغيرك التلف
قد كان فيك لما مضى خلف	ولسوف يُعوز بعدك الخلف
هيهات بعدك أن يدوم لنا	عز، وأن يبقى لنا شرف
قد كنت لي أملا غَنيت به	فمضى، وحلّ محله الأسف

وفي أمالي المرتضى ج (2) ص (44).. من شعره:

وقد رمت أسباب السّلُو فخانني	ضمير عليه من هواك رقيب
إلى الله أشكو إذ ذكرت فلم يكن	لشكواي من عطف الحبيب نصيب
أغرك صفحي عن ذنوب كثيرة	وغضّي على أشياء منك تُريب
كأن لم يكن في الناس قبلي متيّم	ولم يك في الدنيا سواك حبيب

وفي كتاب الزهرة.. لمحمد بن داود الظاهري ص (145) من شعره:

هويتكمو جهدي وزدت على الجهد ... ولم أر فيكم من يقيم على العهد
فإن أُمس فيكم زاهداً بعد رغبة ... فبعد اختيار كان في وصلكم زهدي
لعمري لقد أغضيت فيكم على التي ... تجرعني المكروه من غصص الحقد
تأنيتكم بُقيا الصديق لتقصدوا ... وتأبون إلا أن تجوروا عن القصد
تعزوا بيأس عن هواي فإنني ... إذا انصرفت نفسي فهيهات من ردي
أبى القلب إلا نبوةً عن جميعكم ... كنبوتكم عني ففي السُحق والبعد
أرى الغدر ضداً للوفاء وإنني ... لأعلم أن الضد ينبو عن الضد
إذا خنتموا بالغيب عهدي فما لكم ... تدلّون إدلال المقيم على العهد
صلوا وافعلوا فعل المُدلّ بوصله ... وإلا فصدُّوا وافعلوا فعل ذي الصدّ
فوا أسفا من صبوة ضاع شكرها ... مضت سلفاً في غير أجر ولا حمد

وفي زهر الآداب ج (3) ص (121) من شعره:

وصف البدر حسن وجهك حتى ... خلت أني لمّا أراه أراكا
وإذا ما تنفس النرجس الغـ ... ضّ توهمته نسيم شذاكا
لأدومنّ يا حبيبي على العهد ... لهذا وذاك إذ حكياكا

وفي المحاسن للبيهقي ج (1) ص (212) من شعره:

أطيب الطيبات أمر ونهي ... لا يردان في الأمور الجسام
وامتطاء الخيول في كنف الأمـ ... ن بغير الإقدام والإحجام

وسماع الصهيل في لجب المو كب تحت اللواء والأعلام

وفي طبقات الشعراء لابن المعتز من شعره:

محب نال مكتتماً مناه واسعده الحبيب على هواه
أضاع اللهو انفس ما يعاني وما عذر المضيع لما عناه
فأصبح لا يلام بما جناه من التقصير إنسان سواه

هذا؛ ولما كان غالب شعر الحسين بن الضحاك يمتاز بالوصف واللهو وذكر المباذل والمجون، أضربنا عن ذكره صفحاً، وإنما اخترنا من شعره هذه النتف البريئة، وهي مرآة أسلوبه، ومنهج نظمه.

* * *

الملامح المميزة لثقافتنا الوطنية(*)!

من ملامح ثقافتنا الوطنية، أنها منفتحة على الآخر، أي البعد العربي.. منذ تكونت. وهذا التكوين مرده عدة روافد، أُلمح إليها عبر السطور التالية:

1 - المدرسون العرب.. الذين جاؤوا إلينا في وقت مبكر، فاختلطوا بالمجتمع، وقرؤوا أدبه، واختلطوا بأدباء البلاد.. في كل بلد حلُّوا فيه. وهم حين يعودون إلى بلادهم.. يحملون معهم تأثراتهم بالشرائح الأدبية التي اختلطوا بها.. من طبقة المثقفين، ومن المدرسين المواطنين زملائهم. وهم قد قرؤوا صحف البلاد وألموا بما ينشر فيها من ثقافة ومعرفة، ترتبط بالوطن، أي بلادنا.

(*) الاثنين 9 من شوال 1425هـ، 22 نوفمبر 2004م، صحيفة الجزيرة، العدد 11743، السبت 15 من شوال 1425هـ 27 نوفمبر 2004م، صحيفة الجزيرة، العدد 11748، الاثنين 17 من شوال 1425هـ، 29 نوفمبر 2004م، صحيفة الجزيرة، العدد 11750.

2 – والنموذج الثاني الأدباءُ الكبار.. الذين يزورون المملكة العربية السعودية، وخاصة إقليم الحجاز. في وقت مبكر، قبل حلول النهضة التعليمية التي انطلقت قبل نحو خمسة عقود. فقد زار الحرمين الكبارُ من أدباء مصر وتونسَ والجزائر، حجاجاً ومعتمرين.. وزيارات رسمية، لعل في مقدمتهم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد، والدكتور محمد حسين هيكل، الذي ألف كتابين، أحدهما: حياة محمد، ﷺ.. والآخر في منزل الوحي. والأستاذ إبراهيم عبدالقادر المازني، وقد ألّف كتيّبا أسماه: «رحلة الحجاز». ومن تونس الدكتور الفاضل بن عاشور، وقد حاضر في مدرسة الثغر النموذجية بجدة، وكذلك العالم الجليل محمد البشير الإبراهيمي وابن باديس، اللذان أقاما بعض الوقت في المدينة المنورة. وخلال نهضةِ البلاد.. بعد تدفق البترول، كان المثقفون يتوافدون على الوطن، منهم مدرسو مدرسة تحضير البعثات، في مكة المكرمة .. في زمن مبكر ؛ ثم لما نشأت جامعةُ الملك سعود بالرياض، والجامعةُ الإسلامية بالمدينة المنورة، وكليةُ الشريعة في مكة، والمعهدُ العلمي فيها، وكليةُ الشريعة في

الرياض، ودارُ التوحيد بالطائف. كلُّ هذه المجامع العلمية، غشيها معلمون مثقفون، اختلطوا بالمجتمع حين عاشوا فيه، وعايشوا أدبه ومعارفه.

والدكتور هيكل . كتب مقدمة ضافية لكتاب «وحي الصحراء» الذي كتبته كوكبة من شبان مكة المكرمة.. عام 1355 للهجرة. وذلك كان يوم زار البلاد، ومكث فيها بعض الوقت.

وقد أُعجب الرجلُ بحماسة وتطلعات تلك الطلعة.. في بداية النهضة، كما أُعجب بذلك الإنتاجِ الأدبي.. الذي أعجبه، فتحمس وكتب له مقدمة، تُثني على جهود أولئك النفر من الكاتبين والشعراء، وأعلن الدكتورُ هيكل أن إنتاج أولئك الشبان، يهدف إلى الإصلاح، وأن للبيئة أثرَها فيه ؛ فجاء واضحا في شعرهم ونثرهم. وأن أكثر النثر مرماه الإصلاح الاجتماعي، فقال: «وقلما يتصل الإصلاح بالبيئة.. إلا إذا أُريد الالتجاءُ إلى التحليل ومعرفة آثار هذه البيئة ؛ في نفسية الشعب؛ وترتيبِ الإصلاح على ما يتصل بهذه النفسية، وهذا ما لم نصلْ نحن في بلاد الشرق العربي، فنحن مانزال عند الأمور العامة من الإصلاح، ولانزال ننقل عن الغرب، ما أبدع من نظم، دون التعمق في بحث

هذه النظم، دون التعمق في بحث هذه النظم، من حيث ملاءمتها لبيئتنا الطبيعية. أما الشعر الحجازي فينم عن هذه البيئة التي أنبتت الشعراءَ الأقدميين». إن كلام الدكتور محمد حسين هيكل يؤكد ملامح أدبنا التي تنبع من البيئة التي صدر عنها، فهو صورة لها وانعكاس لهذه الحياة في بلادنا، جاء على ألسنة الشعراء والكتاب. وغيُرنا في الشرق، يتكئ على الغرب في نظمه ويعمل بها، بشهادة الدكتور هيكلٍ نفسه، أما بلادنا فلها ثوابتها السماوية، وهي أبقى وأعدل وأثبت وأعمق وأدق وأجل.

ويعلن الدكتور هيكل، وقد عاش بيننا ما أتيح له يومئذ. أنه مغتبط بما رأى وسمع من بساطة حياتنا، بعيداً عن الكظة الظاهرة في حياة الغرب، الفعلية والفنية والمادية والمدنية. ثم يقول: «والأدب نواة كل عملٍ وكلِ حياة، بل هو رحيق الحياة وروحُها. وأن كل نهضة سياسية، تحتاج إلى نهضة أدبية تؤازره؟. وتعرّف الرجلُ على الناشئة الذين قدّموا إليه آثارهم ليقرؤها؛ ثم يقدمها إلى القراء. فقال: ورأيت فيهم طموحا وأملاً وحرصاً على تحقيق هذا الأمل. أما وهذا شأنهم ، وهذه عزيمتهم الصادقة، فلهم أن يصوروا مستقبل بلادهم كما يشاؤون». ثم

قال: «عن النهضة الأدبية التي رآها عن قرب إنها: «آية من الله للناس، بأن النبع الذي غاض ماؤه، عاد إلى فيضه.. كما كان كشفُ عبدالمطلب عن زمزم، آيةَ الله للناس، بمقدم صاحب الرسالة». وقد تحقق لبلادنا، بفضل الله، تلك الآمال والطموحات، في النهضة التي نعيشها اليوم، خلال عقود قصار من عمر الزمن. بجد البناة، وسواعد الرجال، وصدق الإيمان. وصدق الله العظيم القائل: **﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾** فالحمد لله على فضله. فنحن مهما قلنا ومهما فعلنا لا نستطيع أن نحصي نعمَ الله علينا. نرجوه عز سلطانه أن يجعلنا من الشاكرين لأنعمه.

3 - وحين نعود إلى الوراء، نجد أديبا مثل الأستاذ محمد حسن عواد رحمه الله، يشارك في مسابقة شعرية في محطة الإذاعة البريطانية B.B.C القسم العربي، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أي منذ أكثر من نصف قرن، ويفوز بجائزة منها. ونقرأ مقدمةَ الدكتور طه حسين لديوان الشاعر حسن عبدالله القرشي «الأمسُ الضائع». قبل أربعين سنة، ويحلق الأستاذ العميد بخياله وفكره إلى منابت الشعر في الجزيرة

العربية، فيذكر بعض أسماءِ الشعراء المبرّزين. الذين كان لهم صوت وصدىً لشعرهم، لاسيما الشعرُ الغنائي، الذي يتناقله الرواة ويحفظه الناس، ويعلن الدكتور طه.. أن الحجاز يعود لسيرته الأولى، من خلال النهضة العلمية، في العصر الحديث، وهو يشيد بشعر الأستاذ القرشي.

4 - وأعرّج على الملتقى الثقافي، الذي انعقد في جدة، في عام 1374هـ. وهو اجتماعُ اللجنةِ الثقافية لجامعة الدولة العربية، شارك فيه وفود، من مصر والشام ولبنانَ والعراقِ وتونسَ والمغربِ واليمن، إلى جانب أدباءِ الدولة المضيفة.. ممثلة في وزارة المعارف، يوم كان خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز وزيراً للمعارف. وقد استمر الملتقى نحو أسبوع، زارت فيه الوفود الحرمين الشريفين، واستمعوا إلى خطبائها وشعرائها، واختلطوا بهم، وألمت الوفود المشاركة في الاجتماع بالحركة الأدبية في البلاد، من خلال الملتقيات، واطّلعوا على الزاد القليل من الكتب الأدبية المطبوعة. واستمعوا إلى صوتنا الثقافي.. في تلك المنتديات، عبرَ ذلك الاختلاطِ المباشر، وهم على أرضنا، واطّلعوا على نسخ من

مجلة (الرياض) التي أنشأها السيد أحمد عبيد وزملاؤه في جدة، مع مطلع تولي الملك سعود بن عبدالعزيز رحمه الله الحكم. حين استضافتهم مؤسسة الصحافة والنشر، التي كانت تطبع تلك المجلة.

وطُبعت بعض كتبنا الأدبية في مصر، واطلع عليها مثقفو الكنانة، وقبلها ظهرت بعضُ محاولات الشباب، مثل: نفثاتٌ من أدب الشباب الحجازي بدعم وتشجيع الرائدِ من الأوائل محمد سرور الصبان، معينِ الأدباء يومئذ. وظهر كتاب «خواطرُ مصرحة» للأستاذ العواد قبل سبعين سنة، والتوأمان للأستاذ عبدالقدوس الأنصاري، والمرصاد لإبراهيم فلالي. وقبله وحيُ الصحراءِ والتياراتُ الأدبيةُ للأستاذ عبدالله عبدالجبار ودواوينُ الشعراء، ومؤلفات الأدباء، حيث أخذت الكتب تُطبع وتنشر، ليقرؤها أدباء البلاد، وتُهدى إلى مثقفي الوطن العرب، لاسيما القريبُ من الجزيرة العربية، وشارك العوادُ والأستاذ عبدالعزيز الرفاعي في مؤتمر الأدباء في لبنان قبل أربعةِ عقود، كما شارك أدباؤنا فيما بعد في مؤتمرات الأدباء، التي أقيمت في الشام وغيرها من البلاد العربية.

6 – وكانت روافدُ البعثات التي شرّقت وغرّبت، إلى مصر أولاً، ثم إلى أوربا وأمريكا، لتتزود من الثقافة، وتدرسُ الهندسة والطبَ والاقتصادَ والزراعةَ والقانون، كان أولئك الرسلُ من حاملي زادِ الوطنِ الثقافي، إلى البلاد التي توجهوا إليها، للتزود من معارفها.

7 – ثم كانت الجامعات، التي سبقتها المعاهدُ العلمية، كانت غراساً للمعارف والثقافة العريضة، تخرّج فيها رجال، برزوا فيما شغلوا من مناصبَ في مؤسسات الدولة، ليجذّروا قواعد النهضة، لأن العلم والمعرفة هما قِوامُ الحياة، وعنوانُ أي نهضة على الأرض. والأمة الخاملة، هي التي لا تاريخ لها، ولا كيان فكري تتكئ عليه نهضتُها، لأن النهضة الحقة، ليست كتلاً مسلحةً، وليست مظاهر ومالاً، وإنما هي معارف، والحياة اقتصاد، ولا يكون اقتصادٌ إلا عبر علمٍ وثقافةٍ وفكر، والمثل أمامنا؛ أوربا في نهضتها، ثم اليابانُ بعد كبوتها في الحرب الكونية الثانية، حيث طحنتها الحرب، ولأنها أمةٌ ليست خاملة، فإنها لم تمت، وكذلك الحالُ في ألمانيا. إذاً نهضتنا المعرفية عبرَ التعليم الجاد، أبرزت كياننا

الثقافي في العالم، حيث نشارك في المؤسسات المعرفية والسياسية، والاقتصادية، من خلال كياننا وقدراتنا ونهضتنا الحيّة، ليكون لنا دورٌ ونبضٌ في الحياة العامة، ونحن نبني فوق ما بنى الأجداد.. في زمن مضى، لأن الثقافة، ألاَّ نتكئَ على الماضي، نستجرُ منه ثم ننام ، وإنما أن نضيف إلى التراث كل المستجدات المعرفية، التي تعيننا على بناء نهضة متطورة متجددة، نحو الارتقاء، لنلحق بالأمم التي شقت بعلمها وجدها سُبُلَها في حياة متقدمة ، لأنها أمة حية، «تنشئ الحياة وتبني».

8 – لقد قامت الأندية الأدبية.. منذ قيامها، خلال ثلاثٍ وعشرين سنة، لتشكل روافد جديدةً من التواصل الثقافي.. مع مثقفي الوطن العربي، ولكي تقدم المزيدَ من الأدب المحلي بملامحه، كأنموذج يُعنى بالجوانب الثقافية والدينية، والتاريخية والبيئية والتراثية.

9 – ومن مميزات ثقافتنا، أنها ملتزمة . ولا يعني ذلك الانطواءُ وترديدُ تراثِ الماضي، وغلقُ الأبواب على الجديد ، وإنما الالتزام الذي أعنيه، أن ثقافتنا تحكمها ثوابت، ليست عائقا

لـهـا ومـعـطـلـة، وإنـمـا هـي حـمـايـة مـن الانـزلاق وراء تـيـارات ضـررُهـا أكثر من نفعـهـا، إنـنـا طـلاب علـم ومـعـرفة، نـأبى الانغلاق، ولكننا كما يقول الشاعر القديم:

قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا زلقا عن غرّة زلجا

* * *

صحافة الأفراد وصحافة المؤسسات!

منذ أن قرأت في هذه الصحيفة بتاريخ 1427/6/13هـ، خبر إلقاء محاضرة في منتدى الأخ معتوق شلبي في مدينة الرياض، قدمها الأخ الدكتور حمود البدر عن صحافة الأفراد وصحافة المؤسسات، حرصت على قراءتها، لاسيما وأن الخبر جاء فيه أنه كان هناك صراع أيام صحافة الأفراد، ثم سارعت بإرسال سطور للصحيفة نفسها نفيت فيها ذلك الاتهام ونشرتها بتاريخ 1427/5/23هـ، ثم سعيت إلى أخي الأستاذ معتوق أن يفضل بمدي بنسخة من نص المحاضرة، فقال لي إن الدكتور حمود لم يعطه نصا، غير أن صاحب المنتدى وعدني بنسخة من شريط الفيديو الذي احتوى ما ألقى به الدكتور حمود البدر.. وجاءني الشريط فقرأته، وخلال هذه الوقفة في هذا الموضوع سألم بما قال المتحدث وما يعنّ لي في هذا الشأن.

والحديث الذي ألقى به الدكتور حمود في ذلك المنتدى، لا يمت إلى أي نوع مما يسمى محاضرة بصلة، وإنما قدم المتحدث، دردشة مفككة، جملة من هنا وأخرى من هناك، على حين أنه كان أمامه نص يمر به بين الحين والحين.. واستغربت أن أرى هذه الدردشة «من رجل أكاديمي، شغل مراكز في جامعة الملك سعود وغيرها، ثم كان أمين عام مجلس الشورى، وبعد ذلك عضواً فيه، وأنه عايش فترة من صحافة الأفراد وعمل فيها.. لا أتصور كيف لم يتحدث عن صحافة عمرها (75) خمس وسبعون سنة، منذ صدور أول عدد من «صوت الحجاز» في مكة المكرمة لصاحبها محمد صالح قزاز، ولا يذكر تلك الصحيفة ذات التاريخ العريق، وهي التي كانت امتداد البلاد السعودية في فترة متميزة أيام كان رئيس تحريرها الأستاذ عبدالله عريف، بعد أن أصبح صاحب الامتياز شركة الطباعة والنشر لصاحبها الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله.. ورأيت المتحدث يجمز عبر حديثه بلا ارتباط موضوعي، ورأيته كذلك يتوقف ليستذكر ماذا سيقول بعد، وهذه ليست حال رجل ملم بموضوع يريد أن يقدم من خلاله لحضور المنتدى ثم للتاريخ ما ينبغي تقديمه، ذلك أن الموضوع الذي أقحم الدكتور

البدر نفسه فيه في تلك الليلة ليس بسيطاً يمكن أن يقال فيه كلمات عابرة لا تلم بموضوعه بل الإحاطة والتحليل من خلال وقفات جادة ذات موضوعية، كما صنع الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ في كتابه: - الصحافة في الحجاز - ثم حوّل اسمه إلى: «الصحافة في المملكة العربية السعودية».. ولم أجد أي مرجعية لحديث الأخ حمود البدر، رغم مرور ثلاثة أرباع القرن على أول صحيفة للأفراد، وهي صوت الحجاز.. إذاً فإن خطاب الدكتور ليس ليفيد به أحداً، وإنما استجاب لدعوة صاحب المنتدى - ليسولف - للحاضرين، كلمة من هنا وجملة من هناك، ثم ليستمع إلى ما يمكن أن يسمى مناقشة ليجيب بقدر ما يتاح له، أو بقدر استطاعته، حتى إني رأيت أنه لم يأت باسم بريد الحجاز في جدة، الصحيفة التي أصدرها صاحب صوت الحجاز قبل إصداره لتلك في مكة المكرمة، وقد كانت صحيفة قوية في زمنها منذ بدئها؟ أعني - صوت الحجاز -..

وتحدث الدكتور عن الدمج الذي كان في عام 1378هـ حديث العابر العجل - ولو أتيح لي حضور ذلك الملتقى لقلت لأخي الدكتور حمود إنك لم تأت بشيء يفيد سامعيك؛ إلا عثرة

وددت لو أنها لم تحدث منك، بجانب زج اتهام لصحافة الأفراد لم يحدث، وهنا لم يقل به أحد قبلك ممن تحدث عن صحافة الأفراد وفي مقدمتهم الدكتور الشامخ.. المنزلق الذي كبا فيه المتحدث، وهو قوله: ليس لدي أمثلة على ما سأقوله سوى - مثلاً أن تكون صحيفة من الصحف متكلمة باسم القوميين العرب أو باسم البعثيين أو الاشتراكيين أو غيرهم، وهذا ما لا يراد له أن يكون موجوداً».. وأكمل هذا القول: «فجاءت عملية الاقتراح من القائمين على الإعلام في ذلك الوقت بأن ينظر في نزع الملكية الفردية وتكوين ملكية جماعية عن طريق مؤسسات» إلخ...

إن هذا الاتهام الباطل، لو جاء من غير الدكتور البدر من إنسان جاهل وحامل على صحافة الأفراد لهان الخطب، ومع ذلك لن يسكت عنه، وإنما يتصدى له المخلصون الصادقون بقوة ودحر وعنف، لأن صحافتنا عبر تاريخها الطويل إلى اليوم، لم تتهم بشيء مما رماها به الدكتور البدر، ذلك أنه لم يحدث البتة، فأصحاب تلك الصحف مواطنون مخلصون لدينهم ووطنهم وأمتهم عبر تلك العقود الطوال وما يزالون، وما أيسر كبوة إنسان ليس حريصاً على تحري الحق.. ولا اذكر أحداً شط،

وقال: إن السيد أحمد عبيد رحمه الله، بعد إيقاف «مجلة الرياض»، ذهب إلى مصر وأصدر مجلة باسم «صرخة العرب»، إذا كان الأخ البدر عناه بذلك التلميح، فإن مثل هذا العمل لا يتهم صاحبه بأنه عميل للقوميين العرب أو البعثيين أو الاشتراكيين أو غيرهم كما زج الدكتور البدر بهذا الاتهام الذي يهبط إلى مستوى الخيانة.. ولعلي أشير إلى شاهد واحد يبطل ذلك الافتراء جملة وتفصيلاً، فقد كان أصحاب الصحف الفردية في ملتقى مع الأمير - الملك فيصل بن عبدالعزيز في الرياض، وفي ذلك اليوم أعلن سمو ولي العهد اختيار الأستاذ عبد الله عريف أميناً للعاصمة المقدسة عام 1381هـ، وكان يومها مازال رئيساً لتحرير صحيفة البلاد السعودية، وكان ذلك بحضور مدير عام المطبوعات الأستاذ - حسن أشعري - ومازال الرجل حياً يرزق، ولم يبق اليوم من أصحاب الصحف الفردية سواي وكذلك الأستاذ - عبد الله أحمد شباط - الذي كان صاحب ورئيس تحرير صحيفة الخليج، التي كانت تصدر في الخبر.. قال الفيصل ساعتها للأخ حسن أشعري: «ارفع الرقابة عن الصحف، فأصحابها مواطنون وهم أدرى بمصلحة بلادهم».. لعل الأخ حمود البدر أو أي إنسان يريد أن يتأكد من هذا القول

أن يسأل الأستاذ الأشعري أو الأخ الشباط.. ورجل في شخصية الفيصل حاكماً وقامة فارهة وبعد نظر، لا يمكن أن يمنح هذه الثقة لمواطن غير أمين على مصلحة وطنه واحترام أمانته في وسيلة خطيرة هي الكلمة والاتجار بها!.. ولعلي أكمل بقية تخوين الدكتور البدر لأصحاب الصحف الفردية يومئذ فقال لا فض فوه: «وأصبحت بعض الصحف موالية لمناطق أخرى وجهات أخرى»، وقال: «ذلك كله ربما كان سبباً في التفكير إلى تحويل الصحافة إلى مؤسسات.. ولم يقل صاحبنا من هم صحافيو قومنا الذين لجأوا إلى دول أخرى في فترة من الفترات»، إلى آخر ما قال.. وعجيب من رجل يفترض فيه الوعي والحنكة والحرص على الصدق، فيزج باتهامات خطيرة لم تحدث قط، وأقول لصاحبي إذا كنت تملك أي دليل فأرجوك أن تعلنه، لأعلم، لأني لم أعلم بهذه المعلومات الخطيرة التي أفضلت بها.. وإنما الذي أعلمه أن أصحاب الصحف يومئذ وكتابها، كانوا في «القائمة السوداء لدى حكومة ثورة مصر وأنا أحدهم، بدليل أنني مررت مرة أيام الصراع بمطار القاهرة - عابراً -، فأخذ جواز سفري ووضعت عليَّ حراسة في المطار نحو أربع عشرة ساعة حتى غادرت،

وأوصلني حارسي العسكري إلى آخر على ظهر الطائرة، وقال له حين تركني هو هذا، قلت لهما: المجرم»..

وذكر المتحدث: «ولا شك أن التأثير أو الأسباب المباشرة تكمن في عملية الصراعات بين الصحف ووجود اختلاف وصراع بين وجهة نظر هذه الصحيفة وتلك».. وهو يعني بهذا القول صحافة الأفراد، وهذا كلام غير صحيح، وإذا قلت إنه تنافس كما هي الحال اليوم، فهذا لا يصل إلى حد الصراع بل – صراعات – بالجمع حسبما تحدث الأخ حمود البدر.. وإنه لمؤلم حقاً، أن يقال اليوم أو تكال الاتهامات بالباطل من رجل يفترض أن يكون قدوة في الصدق والدقة فيما يقدم للناس في منتدى، ويسجل عليه قوله، وأقول لأخي كما قال الدكتور طه حسين لصديقه توفيق الحكيم يوم استقبله عضواً في مجمع اللغة العربية بمصر ، قال الأستاذ العميد لصاحبه: «حسب الناس لك وحسبوا عليك»، وهذه المعادلة إذا طبقت على الدكتور البدر، فإنه لم يبق له شيء، حين يحسم ما عليه مما له، وقال رجل الشورى، وهو يكيل الاتهامات لصحافة الأفراد بلا تحفظ ولا احتياط: «هذه بصفة عامة الأسباب الرئيسية، والقائم على وزارة الأعلام في

ذلك الوقت جميل الحجيلان، هو الذي تبنى هذه العملية وتقدم بالاقتراح، فصدر أمر في آخر سنة 1383هـ بأن تمحى الامتيازات الفردية، وتمهل ثلاثة أشهر لكي تصدر المؤسسات، وتنتهي بذلك صحافة الأفراد». ولعلي أقول إننا رأينا حكومة الثورة في مصر أممت الصحافة وقتلت الثقافة، فاتبعناها في مسألة القضاء على صحافة الأفراد.. ويقال إن بجانب وزير الإعلام يومئذ وزير في الحكومة وأحد الشخصيات من المواطنين التجار البارزين.. ويقال إن وزارة الإعلام يومها، أحست ولمست قوة صحافة الأفراد وما تمارسه من نقد، فاقترحوا على الحكومة تفتيت تلك القوة بذلك البديل - المؤسسات - قياساً على جعل عشرة ربابنة في سفينة بدل قيادة فردية واحدة.. وهكذا كانت المؤسسات أخلاطا وما تزال إلى اليوم، تجمع من لا علاقة له بمهنة الصحافة، لأنها أصبحت تجارة، وليس ذلك عيباً، ويدير المؤسسة رئيس التحرير والمدير العام، وبقية الأعضاء لا يشغلهم إلا الشيكات يوم تجتمع الجمعية العمومية في أية صحيفة في آخر العام المالي، وهم راضون كل الرضا إذا كان الربح عريضاً، ولكنهم يبحثون عن العوار إذا أقل العائد المادي.. ولا أريد التعرض في هذه الوقفة

لصحيفة ولدت وتكونت ميتة، بحكم سوء الاختيار لرئاسة تحريرها من قبل الوزارة التي خضعت لضغوط، تتعارض مع الاختيار والنظام..

وزير الإعلام يومئذ، كان عنده تصنيفات للصحف الفردية وممارساتها، وحين بدئ في تكوين المؤسسات، قبلت الوزارة من تشاء ورفضت من لا تشاء بسبل تعجيزية، كرفض قائمة المختارين لمؤسسة ما، وطلب قائمة بأعضاء جدد، وذلك غير متاح، فتوقفت صحف بمزاج الوزارة لعدم نيلها الرضا.. وفي بعض المؤسسات التي قبلت، حرم أصحاب تلك الصحف يوم كانت فردية ، من قبل بعض من ضمتهم المؤسسات، مثل الأستاذ الكبير أحمد عبدالغفور عطار، مؤسس صحيفة عكاظ وصاحبها، وكذلك الأستاذ حسن عبد الحي قزاز - صاحب صحيفة عرفات - التي اندمجت مع البلاد السعودية، قبل قيام المؤسسات، فأصبحت - البلاد -، حرم هذان الرجلان من حق مشروع لهما فاستبعدا ظلماً.. ونظام المؤسسات الصحافية الصفحات الخمس، نص فيها على اختيار رئيس تحرير أي صحيفة، بترشيح ثلاثة من أعضاء المؤسسة، وترسل أسماؤهم إلى

الوزارة، فإذا ووفق عليهم، تبلغ المؤسسة بذلك لاختيار واحد منهم بالاقتراع السري، وإنما في حالات كثيرة، يتصل مدير عام الإعلام الداخلي بمدير عام المؤسسة، ليقول له: إن الوزير يقول إن رئيس التحرير فلان»، وبذلك ينتهي الاختيار..

وكان من العدل حين حولت أو أممت صحافة الأفراد لتكون مؤسسات، أن يقدر أصحاب تلك الصحف لما أدوا من خدمات للوطن، ولاسيما عبر تلك المعركة الشرسة مع نظام الثورة المصرية، فقد كانت صحفنا وأصحابها وكتابها وقوداً في المعركة، وبعد أن قيّض الله النصر لبلادنا، كان جزاء أصحاب الصحف، أن أخذت منهم صحفهم ، وعوملوا معاملة – سنمار –..

وبعد: فهذه الوقفة ليست تلقائية لبث شهوة كلام مضى وقته وزمنه، ولكن لأصحح للأخ الدكتور حمود البدر «عجره وبجره»، الذي ألقى به في منتدى الأخ الأستاذ معتوق شلبي، في الرياض في الأيام الماضية، دفعاً لاتهامات وأفكار مغلوطة، لا ينبغي السكوت عنها، والحق أحق أن يتبع، وإلى الله ترجع الأمور..

* * *

لماذا نظل على الهامش(*)!

سؤال منطقي، ويمكن القول: لماذا لانزال ثانياً، ولم لا ندخل خانة الأول أو في الأولوية؟ أجل: إن المرأة حظيت بالتفاتة الكل المتغير، كما تقول الكاتبة سالمة الموشي في كتابها: «الحريم الثقافي - بين الثابت والمتحوّل».. لقد أصبحت كما قالت: «من الكائن المغيّب إلى تمثل الحضور»، إننا نقرأ في بدايات الطرح هذه الاستطرادات المتتالية، وأكبر الظن أن ليس لها نهاية إلى أن تلقى إجابات أو خروجاً من القمقم الذي ظل منغلقاً أحقابا في مجاهل الأمية والجمود وحياة الركود، وسلطة الذكورية التي لها بداية، وكان يظن أن ليس لها نهاية!

(*) السبت 24 من رجب 1426هـ، 30 من يوليو 2005م، صحيفة الجزيرة، العدد 1993، الاثنين 26 من جمادى الآخرة 1426هـ، 1 من اغسطس 2005م، صحيفة الجزيرة، العدد 1995.

إنه شـيء طبعي أن تستمد المرأة مكانتها من التعليم، ذلك أن المرأة الأمية توشك أن تكون بلا هوية، أو أن قيمتها محصورة في زاوية حادة، زوجة وأم وخادمة لسيادة السلطة الرجل الزوج، وقبل ذلك كانت تحت سلطة الأبوة والأخوة، كلهم يتحكمون في حياتها ومصيرها، أما هي كآدمية، فليس لها من الأمر شيء.. لكن تعليمها أتاح لها شيئاً من قيمة، غير أنها طفقت تطالب وتنافح من أجل المزيد.. هي أعني العقلاء منهن، لا تريد أن تكون رجلاً، غير أنها تريد وبجدية ومجاهدة، أن يكون لها كيان وقيمة ومعنوية وذات، ومن حقها أن تنال ذلك، ألم يقل سيد الخلق ﷺ: «النساء شقائق الرجال لهن الذي عليهن بالمعروف».. إن المرأة في كثير من المجتمع العربي والإسلامي لا تزيد عن كونها قطعة أثاث بالٍ لا ثمن له، وهذا مفهوم انغلاقي متخلف، لم يقل به الدين الخاتم الذي كرّمها وأعطاها كل الحقوق المشروعة لها، غير أن كثيراً من الرجال الذين يجهلون هذا الحكم السماوي، أساءوا إلى المرأة فظلت مهينة، كأنها جارية اشتريت أو دون ذلك.. وحين أصبحت تعي بدافع التعلم الذي أعانها ووعّاها، أخذت تتحدث بصوت مرتفع ، يسمع الآخر القريب وحتى البعيد، في هذا

العصر الذي طويت فيه المسافات، وظهرت فيه وسائل شتَّى تحمل الخطابات من كل أنحاء العالم، فيها الواعي، وفيها المدمر المخيف، غير أن الذكي المحصَّن، يأخذ بالتي هي أقوم، والمرأة الواعية العاقلة، لا تريد أن تتمرد على الثوابت، ولكنهاتريد من الآخر أن يقدر آدميتها، وأنها إنسان لها ما عليها بالمعروف، وأنها ليست سلعة تباع وتشترى، ولكنها كيان له كل الحقوق الحقة، وبدونها تصبح مظلومة معتدى عليها، ليست شيئاً، ولا تساوي شيئاً، وهذا باطل في دين القيم والحق والعدل!

إن المرأة في الغرب أصبحت أحقر من التي كانت تباع في سوق النخاسين، وقد ضحكوا عليها وغشوها، بأنهم منحوها كل الحرية، فأضحت لا شيء، لم ينفعها تعليمها، وخرجت إلى الشارع باسم الحرية واستقلالية الذات فضاعت، وقبل ذلك أضاعت من أنجبت، فلم تعد أمّاً.. إن المرأة العاملة في الغرب تعيسة، فهي نهب للأسود والذئاب، ولم يعد لها شيء من كرامة، لأنها أعطت أغلى ما تملك وكل ما تملك، وفي كثير من البلاد العربية، كانت الوظيفة والمرتب والمرتبة ثمنها الشرف، فلم يعد ثم شرف إلا ما ندر، وكما يقال: النادر لا حكم له.. والمرأة المسلمة،

ينبغي أن تنال كل الحقوق التي منحها إياها الإسلام، لتظل شريفة محافظة على كل القيم التي تصبح بها سيدة لا مسودة، وهذا ما ينبغي أن يكون ويقرر!

تتكئ الكاتبة على رأي لابن رشد قبل نحو ثمانية قرون، أن النظرة القاصرة للمرأة على ما في هذا الكيان من قوة ذاتية ومعنوية، تنحصر في وظيفة محددة لا تتعداها وهي الإنجاب والإرضاع، وتعطلت قوى كامنة، لو استثمرت كما ينبغي لأدت مهام ترقى بحياة المجتمع والأمة.. ولعل قصور الوعي هو الذي أفضى إلى هذا التضييق الذي أشارت إليه الكاتبة نقلاً عن رأي لابن رشد، وأكبر الظن أن هذه الرؤية القاصرة خليقة بأن ترد على أصحابها، وأن يعلن إليهم بكل السبل أن تعطيل نصف كيان المجتمع الفاعل جهل يقود إلى مزيد من التخلف وحياة راكدة ليس فيها نبض ولا ارتقاء، لأن الجمود المخيم عليها لا يتيح لها أن تتطور إلى الأجدى والعلو في الحياة، لأن الأيام والأغيار لا يأبهان للذين اختاروا الوقوف الصامت الفارغ من المحتوى، والحياة ماضية في مسيرتها الجادة والهازلة، وأنا لا يهمني إلا الجاد منها وفيها، لأنه قيمة، ولأنه حياة بكل معنى لهذه الكلمة.!

وأشارت الكاتبة إلى أولئك الرموز الإصلاحيين: محمد حسن عواد، أحمد سباعي، عبدالله عبدالجبار، عبدالكريم الجهيمان.. تلك الرموز، نافحت بشجاعة، كتبت وطالبت في وقت مبكر بلغ بعضه أكثر من ثمانية عقود، كما هي حال الأديب الكبير محمد حسن عواد رحمه الله، ورحم السباعي، وبارك في عبدالجبار والجهيمان، سواء أطلقنا عليهم إصلاحيين أو تنويريين، فقد كانوا ينظرون إلى الغد من خلال بصيرة، وكانوا شجعاناً، لأنا نعرف من ذوي البصائر من يخشى الجهر بالدعوة إلى الإصلاح، مثل تعليم الفتاة والمرأة، ذلك أنهم كانوا يؤثرون السلامة، أما من تصدى لهذا الشيء المحظور يومئذ، فإنهم لا تنقصهم الشجاعة، وإنهم لا يدركون أنهم سيتعرضون لسخط من يعارض تعليم الفتاة، وحجتهم سد الذرائع، ليبقى نصف المجتمع خارجاً أو بعيداً عن دائرة الحياة والأحياء، ولا أدري كيف يفهمون أو يفسرون قول من لا ينطق عن الهوى ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»؟

المهم، لقد تم إيقاد الشمعة قبل ست وأربعين سنة، وتلتها شموع في كل مكان من الكيان الكبير، وربما كانت أرقام

الإحصاءات اليوم زيادة عدد الإناث عن الذكور، وأنهن أكثر نجحاً وفيهن من هي أعمق معارف من أخيها الفتى.. والشموع أضحت اليوم وغداً بإذن الله مشاعل يمتد ضوؤها ليبلغ القارات الخمس، وكلما أتيح لهن فتح المزيد من دور المعرفة، كلما ازدادت الأعداد الحفيلة بالثقافة الجادة الرائدة، لأن الطموح عند الكثير منهن لا حدود له ، وأنهن في سباق مع المثيل الذكر، ومع الزمن في آن، وقد حان الوقت للقول، إن القوم حمدوا السُّرى، فقد أدركوا وأدركهم الصباح بوهجه وضيائه ونوره ، ذلك أن العلم كما أدركنا نور، والله يهدي لنوره من يشاء سبحانه جل جلاله..

رأيت هذه الكاتبة سالمة الموشي، كما رأيت قبلها بالأمس حليمة مظفر تسلكان النهج نفسه، مع اختلاف في نسق الإلقاء بالرأي ؛ فسالمة طرحها حول الثابت والمتغيّر في قضية تعليم الفتاة، الذي وصفته - بغضب ورفض حاد لتسرب هذا الكائن «المرأة» من معتقل «الحصن» وظلال الجدران إلى تحول تاريخي جديد كل الجدة.. ولا أذهب بعيداً إذا قلت إن تلك الخطوة لابد منها، لأنها سبيل حياة لشطر مهم وبارز في كيان المجتمع، وأن تعطيله والغض منه تعطيل لكيان المجتمع بعامة بل شلل له.. أما

حليمة فهي تتحدث عن خيال، ولكنها لا تعيشه، ذلك أنها قد شقت طريقها في دراستها العليا بثبات وإصرار وتحدٍ لنفسها من أجل أن تكون في حياة منفتحة على التطور والارتقاء، والذي يتخلى عن التحصيل الذي يتيح البروز والقيمة، يعيش أبد الدهر بين الحفر، كما يتحدث شاعر تونس البارز أبو القاسم الشابي..

ومن خلال الشمول الذي عنت وتُعني به الكاتبة سالمة، فإنها تشير إلى ذكورية السيطرة حتى في الكتاب المدرسي، فالمتحدث والموصوف فتى وليست فتاة، وذلك فيما يختص مدارس البنات، إنه توجه منغلق، ولم يكف نحو نصف قرن على تعليم الفتاة، وحتى حين تذكر في تحاور، فإنها لا تخرج عن نمط التهميش الذي لا يستطيع أن يُعطي ويحقق ما للفتى من ممارسات، وبعضهن يَفضلن المتميزين، ولعل في ظل ارتباط تعليم الفتاة بوزارة التربية والتعليم، أن يتاح للمرأة المتعلمة القادرة، أن تشارك في كتابة المقرر المدرسي للفتاة في التعليم العام بمراحله الثلاث: الابتدائي، الإعدادي، والثانوي، لينقشع ذلك التهميش الذي ساد وقتاً غير قصير، وكفى ريادة وتوجيهاً، فالمعادلة السائدة غير عادلة، إذاً فهي غير سوية!

في كتاب سالمة الموشي نماذج شتى عن المرأة في مسار حياتها التعليمية، ثم مشاركاتها في بث المعرفة.. ولعلي من خلال مطالعاتي ومتابعتي، رأيت أن المرأة بعامة وقد أتيح لها أن تشارك وتظهر بمعارفها، مازالت منكمشة، وأضع أمامي مسؤولياتها وشواغلها وهمومها، ومع ذلك أراها شبه غائبة وقد فتحت لها الأبواب، فلعلها خائفة وهو تفسير ترددها.. إنها مطالبة بالكثير في مجالات تخصصها، ولا يكفي جهدها في فصول الكليات، وإنما في ساحات المجتمع، لاسيما قضايا المرأة الكثيرة، في حاجة إلى طرح مستنير، وما أكثر الشرائح منهن المحتاجة إلى الكثير من التوعية، لتعيش حياتها وعصرها، فحتى المعلمات في التعليم العام، نرى شرائح منهن منغلقات، لا يفقهن في الحياة إلا الدروس المدرسية الضيقة، أما الحياة بعامة، فهن بمنأى عنها، ولست معنياً بشؤون لباسها وزينتها، فذلك ليس معارف حقة وارتقاءً في الثقافة، ولابد أن ينسلخن من الانطواء ويشاركن في الحياة العامة، لأنهن أنماط من التركيبة الاجتماعية.. وقد نعذر المعلمات في التعليم العام خاصة، لأنهن مثقلات بذلك الكم من المنهج المترهل، الذي لا يتيح الارتقاء، ولكنه

مثبط ومعطل للتفكير عند المتلقي، الذي يراد منه أن - يصم - ما يلقى عليه وما يحمل من أثقال المقرر المدرسي، فمتى تغربل المناهج، ليبقى ما يفيد وينهض بالحياة التعليمية بعامة!؟

استمتعت بوقفاتي مع كتاب الموشي ، وفي البداية جذبني عنوانه، وكنت خلال الأيام الفارطة في إجازة قصيرة، قرأت فيها ما صحبت معي من بعض الكتب التي أمسي وأصبح وهي أمامي، كأنها تدعونني إلى مطالعتها مادمت قد هيأتها لذلك.. ولعلي أقول إن في ساحتنا نماذج متميزة من الكاتبات قادرات على بث أفكار بناءة مصلحة؛ من خلال نقد لأشياء راسبة بفضل الجمود الذي لم يتأثر بحركة النمو والتجديد والتحديث والتطور والرقي المدني، وتوظيف أقلام معالجة للرواكد سيؤدي إن شاء الله إلى تحريك الرياح لتدفع الجواري نحو الإبحار بمن فيها إلى آفاق حياة ليس فيها ركود ولا جمود، والذي لا يتحول إلى الأحسن، لن يدرك مسارات النهضة التي لا تعبأ بالخوالف، لأنهم اختاروا ذلك..

لقد خاضت الكاتبة في قضايا تعليم الفتاة، خوضاً بلغ حداً كبيرا من المصارحة، ولا يعني أنها وحدها من تتحدث

بصوت يُسمع في البعد قبل القرب.. وتركيز سالمة الموشي على ما ينبغي أن تنال المرأة في قضايا التعليم والتعلم ، بلغ حضور صوتها مستوى الإبلاغ.. وحينما يرقى تقدير المرأة إلى المستوى الذي تستحق، كإدارية وذات صوت يسمع، ومشاركة مسؤولية في المقرر الدراسي، ليس في مراحل التعليم العام، وإنما حتى الجامعي والعالي.. ويوم نرى مؤلفاتها في المنهج الدراسي على كل مستوى بعامة، نستطيع القول إنها أنصفت، حيث أصبح لها أداء وصوت معترف به، لأنه قيمة لا تقل إن لم يفق صوت الرجل في مجالات التعليم ، ثم ما لها الحق فيه من سبل وأنساق الحياة في مجتمعها وحياتها بعامة..

إن هذا التأييد الذي انطلق فيه، لم يكن رهين كتاب قرأته وتأثرت به فأدى ذلك إلى ما يسمى انفتاحاً أو رجاء منح حق، هو تلقائي الاستحقاق لذويه أو ذواته الجديرات به، وليس منحة يُمن بها ويُرجى نيلها.. والأمة التي يُعطل شطر أو نصف كيانها، يمكن تصنيفها بأنها لا تعيش الحياة الحقة، لأن ذلك الكيان مهيض فيها، كأنها أي الأمة تتحرك أو تحاول الطيران بجناح واحد، وذلك مستحيل في موازين الأنساق المتوازنة، فلا ترجح

فيها كفة عن الأخرى في موازينها التي تعوّل عليها في حياتها أو قل نهضتها الحضارية الحقة..

لست أدري، فإني لو مضيت أقدم ما امتزج بنفسي من حديث الكاتبة، لأطلت الوقوف عند تلك المعطيات ذات الدلالة والحيوية في بث الطرح والرؤى لما ينبغي أن ينال من تقدير نصف المجتمع.. ولقد قال ولي الأمر في مناسبات متتالية، إن المرأة لها الحق في الحياة الكريمة والعمل فيما تحسن وتستحق ، وإذا قالت كاتبة إن خطوات ذاك الكيان متعثرة، وهي مهمشة إلى أبعاد، فإنها لم تتجاوز مفهوم كلمة حق في مسرح الحياة، وتطلع إلى غد غير بعيد، لتكون المرأة في مجتمعنا في مكانها الذي تستحق، وليست في الظل، لأنها حقيق بالارتقاء والحياة الكريمة في أمتها ومجتمعها الواعي الحي..

* * *

رسالة الجامعة

في العدد الأول.. من مجلة «الكاتب المصري» الصادر في شهر شوال سنة 1364هـ الموافق شهر أكتوبر من سنة 1945 للميلاد، والتي كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين، منذ خمس وثلاثين سنة قمرية، كتب الأستاذ سليمان حزين في هذا العدد مقالة بعنوان «الحرب والجامعات في بريطانيا» تحدث فيه عن دور الجامعات في بريطانيا، والتحول الذي انتهجته الجامعات هناك، قبل وبعد الحرب الكونية الثانية. وسأنقل مقتطفات من هذا الموضوع، الذي شغل ثماني صفحات وبضعة أسطر من تلك المجلة، لما لهذه الأفكار من أهمية، فهو يقول: «والذي يعنينا الآن من حركة التطور هذه، أن نحاول أن نتبين مكان الجامعات من التحول الجديد، ومبلغ مساهمتها، في إرهاف حساسية المجتمع، لظروف البيئة والزمن وأطوارهما

المتجددة، بل مكانها من توجيه الفكر والحياة العملية العامة بالحياة العلمية والفكرية.. للجيل الجديد».

ويركز الكاتب على دور الجامعات البارز في الحياة العامة، ومساهمتها في ذلك إلى توجيه الفكر، ولا أريد أن أكرر القول.. بجانب ما أنقل من ذلك دفعاً للإطالة والإملال.

ويشير الكاتب إلى أن الجامعات في بريطانيا ساهمت كغيرها من أجهزة الدولة وأطرها، «فاشترك رجال الجامعة وشبابها في الحرب والقتال اشتراكاً فعلياً وأصبحت الدراسة مقصورة على من لم يبلغوا سن التجنيد، أو على المتفوقين.. تفوقاً خارقاً، والذين يدرسون دراسة خاصة، تجعل من الخير للأمة استمرارهم لعلهم يساهمون يوماً ما في تقدم العلم والمعرفة تقدماً يذكي من إنتاج الأمة وقدرتها أو على فئة قليلة.. من غير الصالحين للجندية والخدمة العسكرية.. في أشكالها المختلفة».

ويمضي الأستاذ حزين في القول «وأصبح واجباً على الجامعات. إن هي أرادت أن تؤدي رسالتها للمجتمع في السلم كما أدتها في الحرب، أن تتخذ عدتها وأن تعدل سياستها،

وتجدد من أداتها الخاصة ومن طرائقها في البحث والتعليم والتربية وإعداد قادة الأمة في المستقبل، ففتح المجال أمام التفكير الحر في شؤون الجامعة ووظيفتها في المجتمع، وكثر النقد، واتسعت دائرته حتى شملت الجامعة بمعناها الأوسع فشارك فيه رجالها وأبناؤها، وخريجوها في مختلف مناحي الحياة، بل شارك فيه رجال الأعمال والحياة العملية، في السياسة والصناعة والتجارة وما إليها، فدعت الأساتذة الأجانب الذين لجأوا إليها.. من بلاد أوروبا قبيل الحرب وخلالها وكانت كثرتهم من قادة الفكر الحر في القارة الأوروبية، إلى المساهمة في المناقشات الدائرة حول رسالة الجامعة في المجتمع والجيل الجديد. وترتب على هذا كله أن خرجت الجامعات البريطانية من الحرب.. ببرنامج جديد يساير الزمن، بل يسبق الحاضر إلى ما ينبغي أن يقوم عليه المستقبل، يحفظ للجامعة روحها وتقاليدها وتراثها، وأن تحفظ لكل جيل وكل زمان حقه في أن يفكر بنفسه لنفسه».

«إن الجامعة إذا لم ترتبط بالبيئة المحيطة بها، لم يعد لها وجود مميز، وإذا لم ترتبط بحياة المجتمع وتحس حاجته العقلية والثقافية، لم تستطع أن تستجيب لتلك الحاجات، استجابة تعين

المجتمع.. على أن يؤمن بقيمتها، فيستجيب هو من ناحية ويتأثر بما تغذيه الجامعة من نتاج العقل وثمار الفكر. ويحرص الجامعيون الآن في بريطانيا حرصاً شديداً على أن يؤكدوا للناس من جديد، أن الجامعة بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد (معهد عال) يمثل - المرحلة العليا - من نظام التعليم العام. فهي أكبر من ذلك وأعم من ذلك، إذ هي تتصل بحياة الشعب وثقافته كلها داخل نطاق التعليم وخارجه».

«والجامعة إلى جانب ذلك، تعنى بناحية ثانية، فهي القوامة.. على الأبحاث والدراسات التي تساهم بها الأمة في تقدم العلم وازدياد المعرفة الإنسانية، وهذه الأبحاث ينبغي أن تشمل نواحي المعرفة جميعاً، سواء في ذلك علوم العقل والثقافة الخالصة، وعلوم المادة واستغلالها العملي في قضاء مصالح المدينة، وبدون هذه الأبحاث لا يكتمل للجامعة كيانها، ولا تعتبر جامعة بالمعنى الكامل الصحيح، بل أن من رأى القائمين على شؤون الجامعات في بريطانيا الآن أن من الواجب أن تهيأ الظروف بعد الحرب، لينفق رجل الجامعة نصف وقته على الأقل في إجراء الأبحاث العلمية الخالصة كما أن من رأيهم أن ترفع

الدولة إعانتها للجامعات إلى خمسة أمثال ما كانت تدفعه قبل الحرب، وذلك حتى تتيسر ظروف البحث ووسائله، من إقامة المعامل ودور التجارب وحقولها وغير ذلك».

«ومن النواحي التي تعنى بها الجامعة في أداء رسالتها، أن تكون أداة لإذاعة المعارف ونشرها عن طريق التعليم، وكثير من الجامعيين لا يستطيعون أن يتصوروا وجود الجامعة، إذ لم يقترن فيها البحث العلمي، وتقدم المعرفة بالتعليم ونشر تلك المعرفة لاسيما بين شباب الأمة».

«والجامعة، لا تكون جامعة إلا إذا كانت مقراً للثقافة القومية العليا، ومركزاً للبحث العلمي الخالص، وداراً للعلم والتعليم، وتخريج العلماء الناشئين، والمواطنين الصالحين في مختلف مناحي الحياة».

«واهتمت الجامعة، بل تحولت إلى ما يسمى بـ (التعليم المهني) كالهندسة والطب، فزاد ارتباط الجامعة بالحياة العملية العامة، حتى أحس رجال الجامعة في الفترة الأخيرة أنه أدى إلى نوع متطرف من التخصص في التعليم، فانصرفت جهود الجامعة

إلى تخريج المحترفين.. الذين يجيدون المهن المختلفة، ولكنهم لا ينالون القدر الكافي من الثقافة الجامعية العامة. فالطبيب الجامعي مثلاً، قد يكون طبيباً ماهراً، ولكن انصرافه الشديد لإتقان تعلم مهنته أثناء وجوده في الجامعة ومستشفياتها يصرفه عن الإفادة من وجوده في الجامعة، لتوسيع ثقافته العامة، واستكمال أسباب تكوينه كمواطن يجب أن يتفهم المجتمع الذي يعيش فيه، وأن يدرك قيمة مهنته.. في الحياة العامة، وكذلك حال المهندس وغيره ممن يتخرجون في الجامعة وحتى فئة المدرسين قد يتبين الآن، أن الجامعات في بريطانيا لا تخرج منهم إلا ربع من تخرجهم دور المعلمين وذلك يعتبر نقصاً، تسعى الجامعات إلى تلافيه، إذ إن من يريد أن يحرف مهنة التعليم، هوأولى من غيره بالحياة في الوسط الجامعي، والإفادة منه في تكوينه الثقافي العام، إلى جانب إعداده لمهنته الخاصة».

«وجانب آخر يستحق عناية خاصة وهو جانب التربية الخلقية، التي لا يقصد بها هنا ترويض الطالب الجامعي على الخلق الكريم، والأخلاق الفاضلة، إذ ليس من وظيفة الجامعة.. تهذيب النفوس، بعد أن يصيبا السقم، وتقويم الخلق بعد أن

يعوج، ولن تستطيع الجامعة.. أن تحل محل البيت والمدرسة، ولا أن تصلح ما أفسداه إلا بقدر محدود، لذلك يرى الجامعيون أن يقتصر التهذيب الخلقي في الجامعة.. على ما تستطيع أن تتقن، فتعين الطالب على تربية شخصيته في دور الشباب، وتحول نشاطه الفائض إلى ما ينمي فيه روح الجماعة، وتعوده.. تحمل المسؤولية وقبول التضحية، كمواطن يعيش للمجتمع كما يعيش لنفسه. ويذهب بعض الجامعيين في بريطانيا إلى أن يقترح الخدمة العسكرية الإجبارية على الطلاب خلال عام، قبل تقدمهم للدراسة الجامعية مباشرة، فهي خير ما يعود الطالب الطاعة، ويجبله على حب العمل في الجماعة ومن أجلها. وإن كانت كثرة رجال الجامعة، ترى من الممكن تربية الشخصية وإنماء روح الجماعة في الطالب إذا توسعت الجامعة في تكوين جمعيات الطلبة، من رياضية واجتماعية وعلمية وأدبية، فهي التي تمكن الطلاب من أن يفيدوا إلى أبعد حد مما يعرف بالحياة الجامعية في أوسع معانيها، كل ذلك يعين الطالب بعد تخرجه، على أن يصبح مواطناً صالحاً مهما كانت مهنته في المجتمع، عالماً أو طبيباً أو مهندساً أو معلماً أو غير ذلك».

هذه أفكار، رغم أنها مضى عليها أكثر من ثلث قرن، إلا

أنها أسساً وبناء وأنا لا أشك.. في أن جامعاتنا تدرك دورها الكبير.. في المجتمع برجالها سعة آفاقهم، وأنهم يستطيعون التخطيط السليم، في ظل وزارة التعليم العالي ومجالسها التي تضم نخبة ممن نالوا قسطاً وافراً من التعليم العالي، يمكنهم.. من النهوض بجامعاتنا لكي تؤثر في المجتمع وتقوده نحو الرقي والوعي والحياة الكريمة، بما يسمى الانفتاح الواسع على المجتمع، وألا يقتصر دورها على تخريج أفواج من الطلبة والطالبات بما يتلقون من منهج دراسي، قد يكون في معزل عن المجتمع الذي سيخرج إليه الناجحون بشهاداتهم فقط، وإنما هو الاندماج.. بمعناه العريض في الحياة العامة، دراسة وسلوكاً ومنحى، وتأثيراً بآفاق واسعة وحصيلة علمية وثقافية ومهنية، ليتحقق دور الجامعة الكبير في الحياة العامة نفسها، تنعكس عليها، وتغرس فيها الوعي والنظام، والالتحام نحو الأفضل والأشمل، على مسلك من السمو الذي رسمته شريعة الله من أجل خيري الدنيا والآخرة.

* * *

كومو: البحيرة والجبل!

«تعتبر بحيرة كومو أجمل البحيرات الثلاث.. التي ينفرد بها اللمباردي الإيطالي، ومن أجمل مفاتن أوروبا التي جذبت إليها كثيراً من الشعراء، فألهمتهم أرق أشعارهم وأعذب أغانيهم؛ وقد زار الشاعر - علي محمود طه - هذه البحيرة متنقلاً بين شواطئها ومدنها وأروع جبالها المسمى.. بالبرونات فنظم هذه القصيدة التي أهداها إلى أدبية أمريكية.. صحبته في هذه الزيارة».

إن الحس الجمالي رفّاف في مغاني الفن، والنفس الإنسانية التي منحها خالقها الذوق والإمتاع، تصبو إلى الجمال وإلى الفن، وتحلق في عالم بعيد عن عالم الإنسان، المليء بالاقتتال والتناحر ونكد الحياة. والحياة ساعة، يخلو فيها الإنسان إلي نفسه، ويمضي وراء رؤاه، سابحاً في الفضاء

الرحب، مع أحلامه وخياله، وتفتش نفسه وراء ما يفرحها، لأنها سئمت العناء والشقاء والحياة المضطربة بكابوسها الجاثم على النفوس المثقلة بالهموم والآلام. سمه إن شئت هروباً، وسمه إن شئت ترويحاً للقلوب، فهي تتطلع إلى ألوان زاهية، وادعة، حانية، مفعمة بالأحلام والصفاء والبهاء، فلقد كلت النفوس صخب الحياة وأتراحها وضنكها، فهامت تنشد حياة بلا لغوب ولا ندوب، ولا تعب.!

ولعل ملاحنا التائه، اختار هذا السبح مع الخيال، فهام على وجهه، يذرع الأرض، في فضاء رحب جميل، بين البحيرات والجنّات المعروشات، في – فينسيا –، وكوم، و«كان»، وعلى قمم وسفوح جبال الألب، يتغنى مع الطبيعة الوارفة بالصفاء والحنان والجمال، يتنقل مع الطير.. في «مهد الجمال»، يغني له، ويتغنى به، لأنه حالم مع أحلام الطبيعية. لذلك كان شعره أنموذجاً فنياً، لأنه غناء، وصاف كمياه الثلج صفاء وخريراً في قمم الجبال المتطاولة في الفضاء الواسع، في تلك المغاني الساحرة السابحة في أحلامها، وما أروع الحلم الجميل، لأنه حياة، كأنه «حلم ليل من ليالي – كليوباترا –».!

«تلك كومو» قرأت تلك القصيدة الحالمة في وقت مبكر، فأخذت أحلم: متى أرى بحيرة كومو، لأعيش مع شاعر الجندول؟ وسرحت إلى - كومو - بالقطار من روما. ونمت على شاطئ البحيرة، بل كنت أحلم، لأنني كنت مع روح الشاعر وآثاره وغنائه وتوثبه، كان سابحاً، وكنت أحلم وراء ذلك السبح البعيد بذلك الخيال الخصيب الرفّاف، وأخذت أردد مع غناء الشاعر:

هيّ .... والوتر تلك كومو مدى النظر
واصدحي يا خواطري طويت شقة السفر
ربنت جنة المنى وحلا عندها المقر
قد بعثنا بها على موعد غير منتظر
في مساء كأنه حلم الشيخ بالصغر
البحيرات والجبا ل توشحن بالشجر
«والبرونات» غادة لبست حلة السهر
وتنقبن بالغما م واسفرن، يالقمر
وعبرن رحابها فاشارت لمن عبر

وتصعدت الجبال عبر قاطرة - كهربية -، وهناك لا تلوث ولا صخب ولا إزعاج، وإنما طبيعة، تناغي الطبيعة وتسبّح

للخالق.. بديع السموات والأرض. تلكم هي صور الجمال، يرتقي إليه الحس، فيبدع الفنان وسط الربى الخضر الناطقة، التي تتحدث إليك بأنسامها وورودها وخمائلها، فتسحرك وتبهرك، وتملك عليك حواسك، وقد كان حال شاعرنا كذلك.. حين عاش سويعات، أو قل أياماً، هناك، فتمنى البقاء لبقية أيامه، لأنه وجد نفسه، ورأى ما لم ير، فسبح وحلم وغنى وتغنى بالجمال.. الذي حوله، وأدرك السعادة، وماذا يريد وراء ذلك؟

ويصف الطبيعة وجمالها، والكون المضمخ بالشذى، لأنه عطر، ولأن المغني شاعر الجمال والوصف، بلغة متموجة براقة اللفظ شفافة، ومعان تتدفق عبر تلك المفردات المجنحة «ذات الجرس والرنين والإيقاع الوجداني الرائع». وهذا هو الشعر، غير المتكلف.. بالحشو، الذي تتعسف ألفاظه، فتجد فيه النبوء والثقل، فلا يطربك، ولا يعجبك. أما المهندس الشاع، فذو حس متميز، ونفس جميلة، فيرى الوجود جميلاً.. كما يقول إيليا أبو ماضي:

كـــن جـــمـــيـــلاً تـــر الـوجـود جـمـيـلا

ويصف شاعرنا تلك الربى الحالمة الوادعة، وهو يعيش معها بحسه وروحه، تاركاً البحيرة خلفه، حولها الناس قاطنين

وعابرين، أما فهو فقد أثر السكينة والوداعة والخضرة والظلال.. مع زمر من البشر، جاءوا ينشدون المتاع الممتع، ليحطوا عن أنفسهم أثقالها وأوزارها، وإلى الجبال عبر - التلفريك - يومئذ.

فسمونا لخدرها زمراً تلوها زمر
في زجاج محلّق لا دخان ولا شرر
يتخطى بنا الفضا ء.. على السندس النظر
فإلى النجم مرتقى وإلى السحب منحدر
وحللنا بقمة دونها حلّة الفكر
بهج في كنوزها للمحبين مدخر
بابل أم بحيرة؟ أم قصور من الدرر
حبذا أمسياتها وحنيناً إلى البكر

ولعله في سبحه.. توجه عبر البحيرة الجميلة، في زورق.. غير جندوله في «فينيسيا»، ليجمع بين اليم والجبل، وجميعها متسع ومجالات رؤى للحالمين، وذهب عن قلوب القادمين.. الهموم والمشاغل ليبلّوا الصدى، كما هي حال زهرة في القيظ:

ونزوعاً إلى السفيـ ـن تهيان للسفر
نسيت شغلها القلو ب وهلّلن للسَّمر

أوجـه مـثـلـمـا رنـت   زهـرة الصـيف لـلـمطـر
يـتـوهـجـن بـالـشـبـا   ب ويـنـديـن بـالـخـضـر
طلـعـة تـسـعـد الـشّـقـ   ي وتـعـطـي لـه الـعـمـر

وبعد هذا التحليق، يلتفت إلى رفيقة الدرب، كأنه شغل عنها بعض الوقت بسبحه، وأراد أن يسليها بحديثه القريب منها، وذلك من معطيات الرفقة والصحبة والأدب:

يـا ابـنـة الـعـالـم الجـد   يـد صـلـي عـالمـاً غـبـر
فـي دمـي مـن تـراثـه   نـفـحـة الـبـدو والحـضـر
وأغـــان لمـــن شـــدا   ومـــعـــان لمـــن فـــخـــر
مـا تـسـرين أفـصـحـي   إن فـي عـيـنـك الخـبـر
الـغـريـبـان هـامـنـا   لـيس يـجـديـهـمـا الحـذر
نـحـن روحـان عـاصـفـان   وجـسـمـان مـن سـقـر
فـاعـذر الـروح إن طـغـى   واعـذر الجـسـم إن ثـار
فـيـم والـنـبـع دافـق   يـشـتـكـي الـظـامئ الـصـدر
ولـمـن هـذا الـعـيـو   ن تـغـمـزن بـالحـور؟
بـتن يـلـعـبن بـالـنـهـى   لـعـب الـطـفـل بـالأكـر

وبعـــد:

فهذه وقفة سريعة.. مع قصيدة للشاعر الغنائي الرومانسي (علي محمود طه) يرحمه الله، الذي أبحر في الفضاء الفسيح في حياته القصيرة، وكتب أجمل الشعر.. في الحب والجمال.. حيثما هو، كان الشاعر كالطائر المغرّد والمحلّق، طليق الجناح، فكتب هذه الورود العبقة، وغنى للبهاء في الطبيعة والحسن في الإنسان والكون العامر، وكان الشاعر في أكثر حياته حالماً يتغنى، وينشد، إنه طائر.. حتى وهو في القفص الذي يسجنه لا يمنعه من الغناء، لأنه خلق ليردد بصوت بديع، فهو أي الطائر يسبّح، ويطرب غيره من الشاجين، وقد يبعث الشجى.. الشجى، كما يقال.

* * *

كنت إلى التكسب ذهبت(*)!

في كتاب الحيوان للجاحظ ، قال الجاحظ: «قلت لأبي الحسن الأخفش، أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها»!؟ فأجاب: «أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه ، قلّت حاجتهم إليّ فيها . وأنا قد كسبت في هذا التدبير، إذ كنت إلى التكسب ذهبت..».

تذكرت هذا القول، الذي مر عليه نحو اثني عشر قرنا ، وأنا أقرأ تلك الأسئلة التعجيزية، الصادرة عن جامعة الملك عبدالعزيز بجدة، لطلبة وطالبات سنة أولى - انتساب -.

(*) الأربعاء 23 جمادى الأولى 1424هـ، 23 يوليو 2003م، صحيفة الجزيرة، العدد 11255.

وتذكرت كذلك الجهود الكبيرة لذلك العالم «إلياس أنطون إلياس»، الذي قدم تلك المعجمات للغتين العربية والإنجليزية، التي أفادت طالبي العلم إلى اليوم، والتي أثنى عليها مقدروها من أعلام العربية والمهتمين بالترجمة ونفع الناس بها .. ودفعه اهتمامه بالمجاهدة في خدمة المعرفة، إلى إنشاء المطبعة العصرية، التي أصبحت ملتقى الدارسين والمؤلفين والكتاب والأدباء.!

علق الأستاذ أنطون إلياس على رأي الأخفش بقوله: «إن هذا كان رأي أكثر قدماء العلماء، وذلك للاستئثار بأسرار العلوم مهما كان نوعها، إما خوفاً عليها من أن تبتذل لو عرفها عامة الناس وتداولتها الأيدي وهي لا تحيط بدقائقها، فتسيء فهماً وهي لا تحسن استعمالها كما يدّعون، وإما لأنهم كانوا يتعمدون تضليل الناس، خوفاً على مكانتهم وهبتهم وسلطانهم من الامتهان والزوال، أو غشيهم من الانقطاع إذا عرف عامة الناس ما يعرفون».. ويجنح الأستاذ إلياس إلى القول: «الآن قد تغيرت الأمور، وأصبح العلم ملكا مشاعاً ، يستوي جميع الناس في حق النفع به، وقضت أسباب العمران أن يسهل طريقه على الطالبين بتقريبه إلى الإفهام بكل الوسائل الممكنة».!

وتعرج به هذه الوقفة، على ذلك الركام من الأسئلة المعقدة، لطالبات الانتساب، لأقتطف منها نماذج، علّ المسؤولين في جامعة الملك عبدالعزيز، وفي مقدمتهم معالي الأخ الدكتور أسامة طيب مدير الجامعة، يعيرون شيئاً من مسؤولياتهم، إلى تدارك هذه الأنماط التعجيزية، التي يجنح إليها بعض المعلمين والمعلمات، ولن أقول إنها جهل، ولكن من ركام دأبوا على صبه في أدمغة الطلاب والطالبات وما ذلك رسالة التعليم بعامة، ورسالة جامعة بخاصة، التي تعلن أنها تعمل نحو الإفادة والنفع، بعيداً عن التعقيد والضرر، لأنهما معطلان.!

معذرة! فقد ذكرتني أوراق أسئلة اللغة العربية، للعام الدراسي 1424/1423هـ، المثل الذي يردده إخواننا المصريون: «سمك، لبن، تمر هندي». فوريقات الأسئلة العشرة، كلها للغة العربية، بعض الصفحات، مكتوب عليها - انتساب -، وبعضها مكتوب عليه - انتظام - ورأيت على بعض الصفحات هذه الكلمات: الفصل الدراسي الأول العام 1420هـ، ويبدو من ذلك أن عجلة الزمن تراجعت أربع سنوات دراسية، زائد فصل.!

وليأذن لي معالي مدير الجامعة الدكتور أسامة طيب أن

أعرض عليه وعلى مساعديه، عمادة كلية الآداب، شيئاً من العجب العجاب في أسئلة اللغة العربية، من ص «8»، بشيء من تراكمات الأسئلة المعجّزة، والأمل وطيد أن يصلح معاليه ما أفسد الدهر، أو ما يجري، بعيداً عن المراجعة والرقابة ، ونظل نتساءل أين المسؤولون في صرح علمي، يحمل اسم باني ومؤسس الكيان الكبير الملك عبدالعزيز رحمه الله وطيّب ثراه.!

نمط من الأسئلة الركامية، لطلبة وطالبات الانتساب – الغلابا – هي:

يقول عنترة:

يخبرك من شهد الوقيعة انني   اغشى الوغى واعف عند المغنم

سبعة أسئلة ميسرة عن هذا البيت أكبر تيسير، وهي في وسط الصفحة ، وتبدأ :

(7) عنترة من شعراء العصر –   أ – العباسي
ب – الجاهلي   ج – الأندلسي.

(8) الكاف في «يخبرك» ضمير –   أ – رفع   ب – نصب
ج – جر.

(9) «الوقيعة» – مفعول – أ – به ب – له ج – فيه.

(10) كلمة «عند» – أ – حرف جر ب – ظرف ج – مفعول به.

(11) النسب إلى «الوغى» – أ – الوغيّ ب – الويغي
ج – الوغوي.

(12) النسب إلى «الوقيعة» – أ – الوقعي ب – الواقعي
ج – الوقيعي.

(13) «المغنم» في القاموس المحيط في – أ – باب الميم – فصل الميم ب – باب الميم – فصل الغين ج – باب الغين – فصل الميم.

ونجد من هذا النمط التراكمي المعقد والمعجز لطلبة، جاءوا من الثانوية العامة «خاليّ الوفاض»، كما يقول المثل العربي.. لا يستطيع أحد فتح القاموس المحيط، ولا مختار الصحاح.! ثم أين هو القاموس والمختار، لو افترضنا جدلاً، أننا أمام نوابغ ونابغات، وهم ندرة.! أين المعاجم في قاعة – الامتحان –!؟

رأيت في سؤال (17) كلمة - اشتكاء -، قال واضع الأسئلة - سلمت براجمه من الأوخاز -: تجدها في مختار الصحاح - أ - باب الهمزة ب - باب الواو ج - باب السين.

أقول لهذا الأستاذ: اتق الله فيما تصنع، وقدر حال هؤلاء المساكين، وأنت تقدم هذا التعجيز من الأسئلة! وأقول لعميد الكلية المختصة: اتقوا الله في أعمالكم ، وأقول لمعالي مدير الجامعة: أرجوك أن ترقى بهذه الجامعة إلى المستوى الذي تستحق، فأنت مدرك للخلل العريض وتداعيات الإحباط، وأنت يا سيدي راع، وأنت مسؤول عن رعيتك، أمام الله والدولة والضمير والتاريخ.. والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.!

* * *

«يا باشا عميد كلية الآداب ليس عمدة»!

منذ أكثر من عقدين، لملمت كليمات مبعثرة في وريقات، كان عنوانها: «العميد في الحجاز».. شاركت بها في أحد مواسم «المنيا»، حيث كان يحتفى بابن - مغاغاة - «الدكتور طه حسين»؛ ولم يتح لي أن ألقي إلا نتفاً مما كتبت عبر المشوار الطويل من جدة إلى المنيا؛ لأن ما جرى يومها وما يجري في وطننا العربي في هذه المناسبات وأمثالها يشوبه سوء التصرف بما نسميه مجاملات فارغة من المحتوى؛ ولست أريد أن أثير آلام الجراح.. والدكتور طه حسين هذا العلم يستحق الكثير من الدرس والأحاديث الطوال لأنه خليق بالدرس المتأني القويم.. وبعد أن نشرت في «علامات» إصدار النادي الأدبي الثقافي بجدة ما كتبت عن الدكتور طه؛ قال لي أخي الدكتور سعيد السريحي، حاول أن تجمع أحاديث الأستاذ العميد التي ألقاها هنا وهناك حين زارنا ووفود آخرين من مصر ومن الوطن العربي في مطلع عام 1955م؛

وكان الأستاذ العميد يومها: رئيس اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية، وكانت الأيام التي مكث الدكتور طه حسين في بلادنا حفيلة وثرية بالأدب والحوارات الكثيرة، في جدة ومكة المكرمة والمنطقة الشرقية، وفي بلد الرسول صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة، ولم يتحدث الأستاذ العميد في المدينة، وأعتذر لصاحبي جريدة المدينة بقول الحق: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾**، وإنه لم يمكث هناك سوى ساعات من يوم في دار الهجرة، وقد صحبه أستاذنا المربي الفاضل والعالم الشيخ محمد الحافظ بن موسى، الذي لم يترك أثراً بعد رحيله لأنه لم يكن يكتب، ولم يكن طلابه اللامعون الذين يسعون إليه ليسجلوا شيئاً من الكثير من أحاديثه المفيدة لكي تجمع في كتب؛ فقد كانوا مشغولين بحياتهم الخاصة والعامة؛ وذهب الرجل ولم يكتب عنه طلابه شيئاً مما عرفوا وسمعوا وأحاطوا.. إذاً في المدينة المنورة، لم يتحدث الأستاذ العميد، أو تحدث وهو يسلم على خاتم رسل الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه عليهما رضوان الله، لكن الدكتور طه قيل إنه أطال الوقوف أمام شباك الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه،

حيث استعرض الأستاذ العميد حقبة الفاروق في الخلافة، وهي حقبة ثرية جداً، وعاها الدكتور طه حسين فيما درس وكتب وعاش تلك المرحلة من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.. إذاً أطال الأستاذ العميد أمام قبر الخليفة عمر وأمام رؤاه تلك المواقف الباهرة للفاروق منذ إسلامه، وخلال الصحبة وكربها في مكة قبل الهجرة، ودعاء رسول الله: «اللهم أيِّد الإسلام بأحد العمرين»، فكان ابن الخطاب البطل الشجاع وهو أحد الذين أيَّد الله بهم الإسلام، عمر الذي قال يوم هجرته إلى المدينة، يسمع قريشاً في حرم الله مكة المكرمة: من أراد أن تثكله أمه فليلحقني بالوادي، لكن لم يلحقه أحد، فرضي الله عنه.. وقف الدكتور طه أمام نافذة الفاروق يستعرض مواقفه الجسام وهو يسلم ويتحدث إليه بقوله: «أما أنت يا عمر فالحديث عنك وإليك طويل» لأن مواقف الفاروق كثيرة وثرية، ولعل الأستاذ العميد استعرض في وقفته التي طالت أمام شباك الفاروق؛ وما لاقى المسلمون فيه من شدة وكرب، وكذلك الأحداث التي التي كانت في خلافة الفاروق، وكان منها الزلزال وعام الرمادة، والفاروق يبتهل إلى ربه بأن لا يُهلك

المسلمون في خلافة عمر.. الأستاذ العميد يستعرض تلك الأحداث في وقفته أمام الفاروق ويطيل وقوفه وهو كله إعجاب وإكبار بما كان من الخليفة عمر رضي الله عنه في كل مواقفه!.. وهي مواقف اعتزاز لكل مسلم، وحتى غير المسلمين الذين يقرؤون سيرة هذا البطل المثالي يحترمونه ويكبرونه ولا يكاد يصدق ما يقرأ ويسمع! وإني بعد أن قرأت كتاب: «أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر» للشيخين علي الطنطاوي وأخيه ناجي، وقرأت كذلك سيرته لبعض الكتاب، زاد إعجابي بهذه الشخصية الشجاعة.. ومعذرة لهذا الاستطراد وهو عدوى من الأستاذ العميد.. المهم أنني لم أستطع الإجابة لقول الأخ سعيد السريحي بأن أنجز كتاباً عن الدكتور طه حسين، وأنا أريد ذلك، ولدي عن الدكتور طه حسين ما أقول، فأنا قد قرأته في حديث الأربعاء وقرأت بعض كتبه وسمعته يتحدث عبر شريط إذاعي وأعجبت أيّما إعجاب بهذا الفيض المتدفق وكأنه نهر عذب أو شلالات «نياجرا فولز».. يتحدث الدكتور طه دون أن يتوقف، وكنت أتذوق التدفق المنهمر ذي الجرس الأخاذ دون لحن أو تلجلج عبر تلك اللغة العذبة الرائعة السلسة.. ورأيته وسمعته يوم زار الحجاز

في منتصف عام 1374هـ الموافق مطلع عام 1955م أكثر من مرة، وقرأت ما قيل عنه عبر مواقف كبار، وقرأت أيامه وعرفت الكثير عن حياته وترحاله ومشاركاته ومعاركه النقدية ومواقف كثيرة أخرى.. كل ذلك مع الإعجاب الكبير يهيئني لأن أكتب عن الأستاذ العميد كتاباً، لكن! وكثير من الناس يتطلعون ماذا بعد - لكن - هذه الاعتراضية، لكن أن لي حجة قاطعة.. فالأخ سعيد السريحي قال لي: أكتب عن طه حسين وأنا في معمعة المعركة في النادي الأدبي الثقافي، وأيامي فيه تكاد كلها أن تكون معركة متصلة.. وربما مدّ أحدهم لسانه وقال: انظروا هذا الذي يتحدث عن نفسه وكأنه وحده هو الذي عمل ويعمل وسواه يتفرج، والمعترض له الحق في ذلك! وحقاً إنني لا أماري ولا يشغلني الحديث عن عملي هنا أو هناك، غير أني أسرد حقيقة وأدلّل عليها وهي معلنة لكل ذي سمع وبصر.. إذاً فإن النادي وهمومه التي لا تنتهي حالا بيني وبين أن أفرغ للأستاذ العميد لأتحدث عنه بجد لا لعب فيه ولا مماراة.. وحين فرغت من أثقال النادي، بقي عليّ أن أكتب عن أيامي فيه، وقد حاولت بتلقائية الكتابة، ويوم أنجزت ركاماً ثقيلاً وقرأه المستشار القدير الكبير قال لي: إن هذا الذي قلت سيكون

على حساب مكاسبك في: وتلك الأيام؛ حكاية الفتى مفتاح أو - علامات - كما قلدني هذا الرمز الكبير في عقليته وسلوكه وقوته وصلابته الكثير من الإحسان؛ فرميت ما كتبت عن النادي وراء ظهري؛ أما الإرادة فباقية بحمد الله وفضله، ولم أبق عائماً! وإنما طفقت أجمع أحاديث ومقالات، ومراجعة ألف صفحة وصفحة، تغشتها الأخطاء الطباعية والسقط في النشر.. كل هذا وذاك أثقال تداعت أمامي مما يحيِّر ويعطّل الشروع في أي عمل كتابي آخر!

وأعتذر عن هذا التمهيد الطويل، والاسترسال اللذين كادا أن يحولا بيني وبين ما أريد أن أقوله في هذا المقال؛ المفترض فيه أن يكون دون هذا السبح؛ غير أن الخواطر تتداعى، وهي كثر، وأكبر الظن أن القارئ سوف يمجها ويعرض عنها، لأن ما ألقيت به سرف لا قيمة له ولا يعوّل عليه، وربما قرأ هذا المقال - مقلوباً -، أو نظر إليه من زاوية، ماذا قدم صاحب هذا الركام، وماذا يريد أن يقول، وهو يعني أن العرب قالت: «البلاغة في الإيجاز».. كل ذلك صحيح، وهذه الخواطر كلها مضيعة للوقت وسرف لا قيمة ولا محل له من القبول والإعراب!

وأقول: مبارك للأخ الأستاذ حسين بافقيه على ما قدم في ذلك الكتاب الجميل عن الأستاذ العميد والمثقفين السعوديين.. كتاب ممتع، وفيه جهد كبير في جمع مادته، وأقول: «لا يعرف الشوق إلا من يكابده».. وأوكد أنني لو حاولت أن أكتب عن الأستاذ العميد في الحجاز، كما قلت من قبل، فإن يدي لا تطال ما جمع الأخ حسين بافقيه، فهو شاب ذو قدرة وصبر وإمكانات، وأنا شيخ كبير.. وأن ما أنجزه الأخ حسين جهد كبير يستحق التقدير على جمعه وغربلته وتنسيقه ودقة المواءمة في سبكه ونظمه لتلك الأحاديث، رغم عسر ذلك الركض وراء هذا الشتات من مصادر كثيرة يعروها السقط والتحريف في هذه المواد التي ظهرت في كتاب «قيمة» والقيمة في حديث الأستاذ العميد، والقيمة كذلك في جهد المؤلف لمواد عسير تحقيقها، والجهد في لم هذا الكم من المواد وتنسيقها وتبويب هذا - المبعثر -؛ وفيه شبه الضائع لكي تكون مادة جيدة تقرأ بإمتاع وتقدير للجهد الكبير الذي بذله صاحبه وراء مصادر شتى، وتقديم هذه المواد في تجانس من خلال صمت مطبق، لم يقل أو يعلن صاحب هذا المشروع، إنه شرع منذ وقت غير يسير، ليفاجئ بعد ذلك الصمت،

بأنه استطاع أن يوجد شيئاً متوائماً جميلاً وسائغاً.. وقلت للأخ حسين حين أفضل بهذه الهدية التي فرحت بها، وهو يدرك أنني من عشاق أدب طه حسين وأحاديثه وخطبه، وإنني حقاً مولع بهذا الرمز العملاق.. وقلت آنفاً إن الأخ السريحي دفعني أن أقوم بما قام به الأخ حسين بافقيه، وأقول صادقاً، إنني لا أستطيع أن أنهض بما أنجزه الأستاذ - اليوم -، فجهده كبير ومتميز، فقد حقق بالمعنى الكبير لمعنى هذه الكلمة ما يغني أن ينهض به باحث يفرغ له وقتاً وجهداً جاداً، ويكون في هذا المستوى، ولمجهود الأخ حسين قيمة عند الذين يعرفون الشوق.. وهو أهل لتحية تقدير وتهنئة حارة..، ولعله يسلك في عداد المعجبين بالأستاذ العميد، لأنه رجل طموح، حقق الكثير مما سعى إليه، والذين يقرؤونه يدركون تلك القيمة الكبيرة التي عنوانها رمز كبير وفلتة الزمان، إن صح هذا التعبير؛ وحين أصبح وزيراً للمعارف في مصر أعلن أن التعليم عنده: «كالماء والهواء»، اللذين لا أحد يستغنى عنهما.. طه حسين عميد كلية الآداب في الجامعة المصرية، رفض إعطاء شهادات دكتوراه فخرية لأربعة رموز من الرجال في مصر، رفض طلب وزير المعارف حلمي عيسى باشا ورفض طلب رئيس

الوزراء عام 1932 صدقي باشا! وقال للوزير: «يا باشا عميد كلية الآداب ليس عمدة تصدر إليه الأوامر فينفذها، أنا كعميد للاداب لن أوافق على إعطاء الدكتوراه الفخرية لأحد لمجرد أنه من الأعيان أو السياسيين، ومجلس إدارة الكلية لا يوافق»، وقال: «إن هذا اعتداء على حرمة الجامعة، ذلك أن أولئك الرجال المراد إعطاءهم دكتوراه لا صلة لهم بالأدب ولا أستطيع أن أعرض هذا الأمر على مجلس كلية الآداب، لأن أعضاء هذا المجلس لن يوافقوا».. وأحيل الطلب إلى كلية الحقوق وقبل السنهوري طلب الوزير ورئيس الوزراء وبقي طه حسين شامخاً لا يقبل ما يراد منه مادامت إرادته ترفضه ولو ضحى بمركزه في سبيل رفض ما يتعارض وإرادة الأحرار!

* * *

تعليمنا العالي: وضعه في حالة تحدٍّ ومنافسة!

أتابع الأعداد الكبيرة التي تبتعث إلى الخارج للدراسة؛ وكانوا بالألوف، إلى أمريكا والمملكة المتحدة وأستراليا وأوروبا.. وحين زار خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر العام الماضي، هناك، التقى بأبنائه وبناته الطلاب؛ وتفضل بزيادة مكافأتهم 50٪، ليتاح لهم وألا يقلقهم بقاء المخصص السابق؛ نظراً لارتفاع تكاليف الحياة بعامة في البلاد التي ذهبوا إليها؛ ذلك أن الطالب إذا كان ما ينفق عليه لا يواجه ما يتقاضاه في تكاليف حياته وما أكثر ما يحتاج لسد كل متطلباته.. فالدولة تتحمل كل ما يحتاج إليه.. وإذا شرعتُ بالدخول في حساب كل ما ينفق على الطالب عبر مسألة حسابية تبدأ بتكاليف الدراسة في الجامعات هناك، يتبعه ويضاف إليه نفقاته الشهرية المتعددة، كأجور السكن ومصاريف المعيشة والعلاج وأثمان ما يحتاج من ملابس وأقيام تذاكر السفر

وكذلك كتبه الدراسية بجانب أمور أخرى مثل الغربة لأنماط من الشباب والشابات لمن يتزوج قبل أن يبدأ البعثة أو العزب.. وبالمناسبة وبين قوسين، سمعت أن بعض الفتيات اللاتي ارتبطن بشريك الحياة هن كارهات، لأنهن لا يتاح لهن القبول في البعثات الدراسية بمفردهن.. هذه واحدة.. وكذلك ما قيل إن المبتعثين تعقد لهم دورات قبل أن يغادروا بلادهم تشتمل التوعية وما ينبغي أن يحتاطوا له وأكثرهم شبه - مغمضين -، حتى لغة أجنبية لا يحسنون ، فهم أشبه بكيانات - خام - ويصدمون بمجتمعات غريبة عنهم بكل أبعاد مفاهيم الغربة ومعطياتها الكثيرة جداً !

وشرعت في إجراء حسابات مجاميع تلك النفقات التي تتحملها الدولة سنوياً مضروبة في عدد السنوات التي يمكثها الطالب العزب والمتزوج، فوجدتها مليارات، وأنا استطيع إحصاءها لأجدها كما أشرت.. وأريد أن أبادر إلى أني لا أحسد أبناءنا ؛ وأؤكد أني أريد لهم الخير والسعادة، إلا أني وددت إبداء وجهة نظر رأيت أنها تخدمهم وهم في أوطانهم وبين أهليهم ينعمون بالطمأنينة في حياة وادعة !

وعنّ لي الجنوح إلى بدائل، في تقديري أنها - أي البدائل - هي دعوة الجامعات في البلدان التي وجه إليها طلابنا وطالباتنا لكي تفتح لها فروعاً في بلادنا ؛ ويلتحق بها طلابنا من الجنسين، وهذه الخطوة الجادة إن تحققت، فإنها سوف توفر المال الكثير الذي ينفق على الطلاب فيبقى في الوطن، هذا من جانب، و من آخر، فإن طلابنا يبقون في أوطانهم ويتفادون الغربة العسيرة على كثير منهم ومن هن ، وثمة جانب آخر ؛ وهو أن جامعاتنا ستجد نفسها مضطرة إلى السعي نحو منافسة شريفة فترفع من مستواها، بدءاً من مناهجها وكذلك الرفع من مستوى كفاءات هيئة التدريس فيها.. وإذا استطاعت جامعاتنا وهي مضطرة إلى ذلك فإن خريجيها سيرتفع مستواهم إلى معطيات متميزة سيكون لها مردود كبير عندنا على مستوى الوطن العربي.. أقول ذلك وأمام عينيّ ما سوف يتحقق بحول الله وقوته عبر ارتفاع مستوى التعليم العام في بلادنا ؛ وقد كان متردياً عبر عقود مضت !

والتكامل في مرجعية التعليم العام والجامعي، حين يتدارك النقص والخلل، وتعالج قضايا الإنفاق فيصبح مجزياً، بحيث

يتحقق في بلادنا منظومة البحث العلمي على مستوى يفاخر به، ولا يتم ذلك إلا من خلال الإنفاق المجزي ؛ وأن يتولى أمر هذا الكيان أهلوه من كفاءات الوطن مع الاستعانة بخبراء موثوق في كفاءتهم ولهم تاريخ مجيد.. وازعم أنني لا أتحدث عن حلم، وإنما انطلق من تطلعات في زمن تتسابق فيه الدول القوية والمدركة لقيمة البحث العلمي ومعطياته لدى الجامعات التي قطعت أشواطاً طوالاً فاعلة ؛ استطاعت فيها أن ترقى معارفها على وجه الأرض، وأن تحقق لأوطانها مكاسب لا تقدر بكنوز الدنيا، لأنها أدركت سبل الرقي الحضاري فعملت له، وأنفقت عليه بسخاء، وبعد النجح الذي وصلت إليه بتضحياتها وقدراتها وإخلاصها بعمل لا سبيل فيه للتوقف ولا التواني والادعاء ؛ وقفت على هرم سامق تفاخر بما حققت، وأتيح لها أن تبرز على الكرة الأرضية يسبقها ورقيها وما وصلت إليه عبر أيام مضنية في البحث والدرس والاختبارات، وأصبحت تفاخر أمام من سبقها في الدراسات والبحث العلمي، فأتيح لها في أوطان أخرى لتقدم ثمرات ما وصلت إليه عبر مئات السنين، ودأب لا يعرف شيئاً من ضياع الأوقات ولا التقتير في الإنفاق ولا المراهنة التي لا تجدي إلا إذا

أكدتها روافد العلم الناجع بقدرات لا حدود لها ، ولكن أمتنا العربية في رأيي لم تستطع أن تدنو منها لأنها قصرت بها طموحاتها ونقصها المادي، وتولى غير أهل الشأن الطامح زمام قيادة التعليم.. وعوامل أخرى لا أجد نفسي مضطراً إلى الإتيان عليها حتى لا أوزع اتهامات أنا في غنى عنها !

أجد نفسي أنني شرعت في الحديث عن بديل لما وجه إليه أبناؤنا للدراسة في خارج بلادهم إلى فتح فروع للجامعات الشهيرة في الغرب لعلها تكون أجدى.. ومن هذا الخيار، جمح بى قلمي إلى عالم البحث العلمي وما يوصل إليه من رقي حين يظفر به شعب أو شعوب ودول طامحة، استطاعت أن تصل إلى رقيها المدني والحضاري، لأنها سلكت السبيل القويم الذي وصلت من خلاله إلى أحلامها التي لا حدود لها ، ولم تظل تحمل حلماً سرعان ما يتبدد، ولكنها كانت ذات أهداف انطلقت منها، وأعدت لها عدتها، ثم شرعت تتعمق الدرس عبر كل التوجهات وتعمل ليل نهار بصدق وإخلاص وقوة، فوصلت إلى أهدافها، وبرزت تنشر معارفها وخبراتها، فارتقت بأوطانها ؛ ولحق بها الطامحون الذين طحنتهم الحرب الكونية الثانية ولكنهم لم ييأسوا

ويركنوا إلى الدعة ليظلوا أمة خاملة ، لكنهم تحدوا أنفسهم وعملوا ليل نهار، لأنهم أرادوا أن يكونوا، فاستطاعوا أن يكونوا ويتفوقوا، وأصبحت منتجاتهم تزاحم سلع الذين هزموهم في عام 1945م، وأعني اليابان.. ويدرك المتأمل أن الطامحين لا يتراجعون، ولا يفت في عزائمهم الهزائم، لأنهم قادرون أن يكونوا متفوقين، وقد أصبحوا.. وغير اليابان من الدول التي كانت مستعمرة في آسيا، استطاعت في نصف قرن أن تكون قيمة ونجحاً ودولاً صناعية تنافس من سبقها ؛ تحدوها إرادة، ونحن المسلمين يدعونا دستورنا بقول الحق: وقل اعملوا..

إنني لست ضد الابتعاث؛ ولعلي أرجح أن يكون للذين يشرعون في الدراسات العليا ولخريجي الثانوية العامة المتميزين.. فهذان الصنفان حقيقون بالابتعاث إلى الخارج؛ ذلك أن المتوجهين إلى الدراسات العليا أكثرهم نال من النضج ما يعينه على الإدراك والوعي، وأصبح له هدف يسعى وراءه لكي يرتقي بتعليمه ليتميز حينما ينال الشهادات العليا.. ولعلي أشير إلى اشتراط أن يكون حامل البكالوريوس حصل على تميز يجعله خليق بالابتعاث، وأن اختياره بعد المقابلة التي تجرى معه في

وزارة التعليم العالي تؤكد أنه طموح وذو ذكاء بارز يجعله مختاراً..

واختبار خريج الثانوية بقسميها العلمي والأدبي؛ إذا كان مجموعه عالياً ويتوقد حيوية وطموحاً؛ يختار هذا الصنف من الطلبة للابتعاث إلى الخارج.. وخليق بالمدارس الثانوية أن تفرز إداراتها الواعية الجادة المتفوقين من الطلبة والطالبات تجعلهم في فصول مستقلة؛ لأنهم إن بقوا مع متوسطي الذكاء ومع من دونهم من الطلبة يُضيّعون وقد يصيبهم الإحباط..

وأعود إلى شأن دعوة بعض الجامعات الكبار في أمريكا وبريطانيا وأوروبا وأستراليا، لفتح فروع لها في بلادنا، أريد من هذه الخطوة الجادة؟ أن حلول جامعات أجنبية في بلادنا سوف يحرك الراكد من جامعاتنا لتنهض برسالتها كما ينبغي، وكما يريد ويطمح الجادون وفي طليعتهم قائدنا الطموح بلا حدود، مدَّ الله في حياته وأعزه ليحقق الكثير للوطن العزيز الكريم؟

* * *

● وحين أصبح الدكتور طه حسين وزيراً للمعارف في مصر أعلن أن التعليم: كالماء والهواء ".. طه حسين عميد كلية الآداب في الجامعة المصرية، رفض في عام ١٩٣٢م إعطاء شهادات دكتوراه فخرية لأربعة رموز من الرجال في مصر، رفض طلب وزير المعارف حلمي عيسى باشا صدقي باشا وقال للوزير: يا باشا عميد كلية الآداب ليس عمدة تصدر إليه الأوامر فينفذها، أنا كعميد للآداب لن أوافق على إعطاء الدكتوراه الفخرية لأحد لمجرد أنه من الأعيان أو السياسيين ومجلس إدارة الكلية لا يوافق، وقال: إن هذا اعتداء على حرمة الجامعة"، ذلك أن أولئك الرجال المراد إعطائهم دكتوراه لا صلة لهم بالأدب ولا أستطيع حتى أن أعرض هذا الأمر على مجلس كلية الآداب، لأن أعضاء هذا المجلس لن يوافقوا.

رقم الايداع: ٣٨٥٤ /١٤٣٠